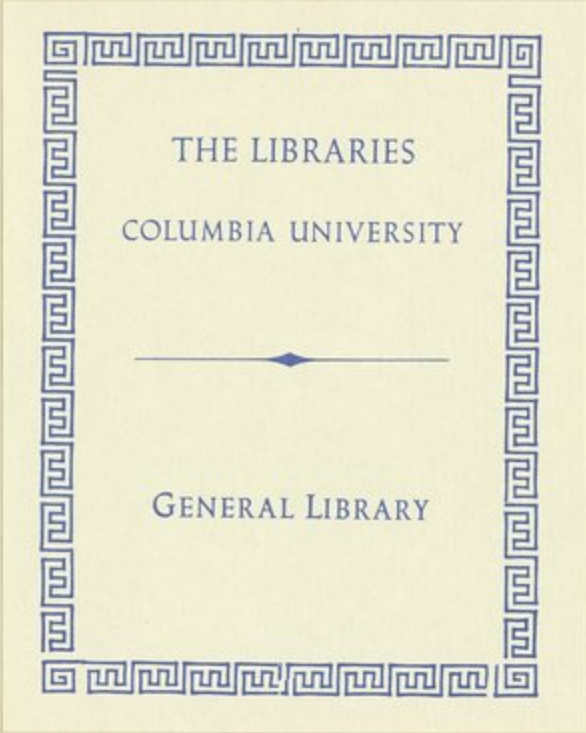
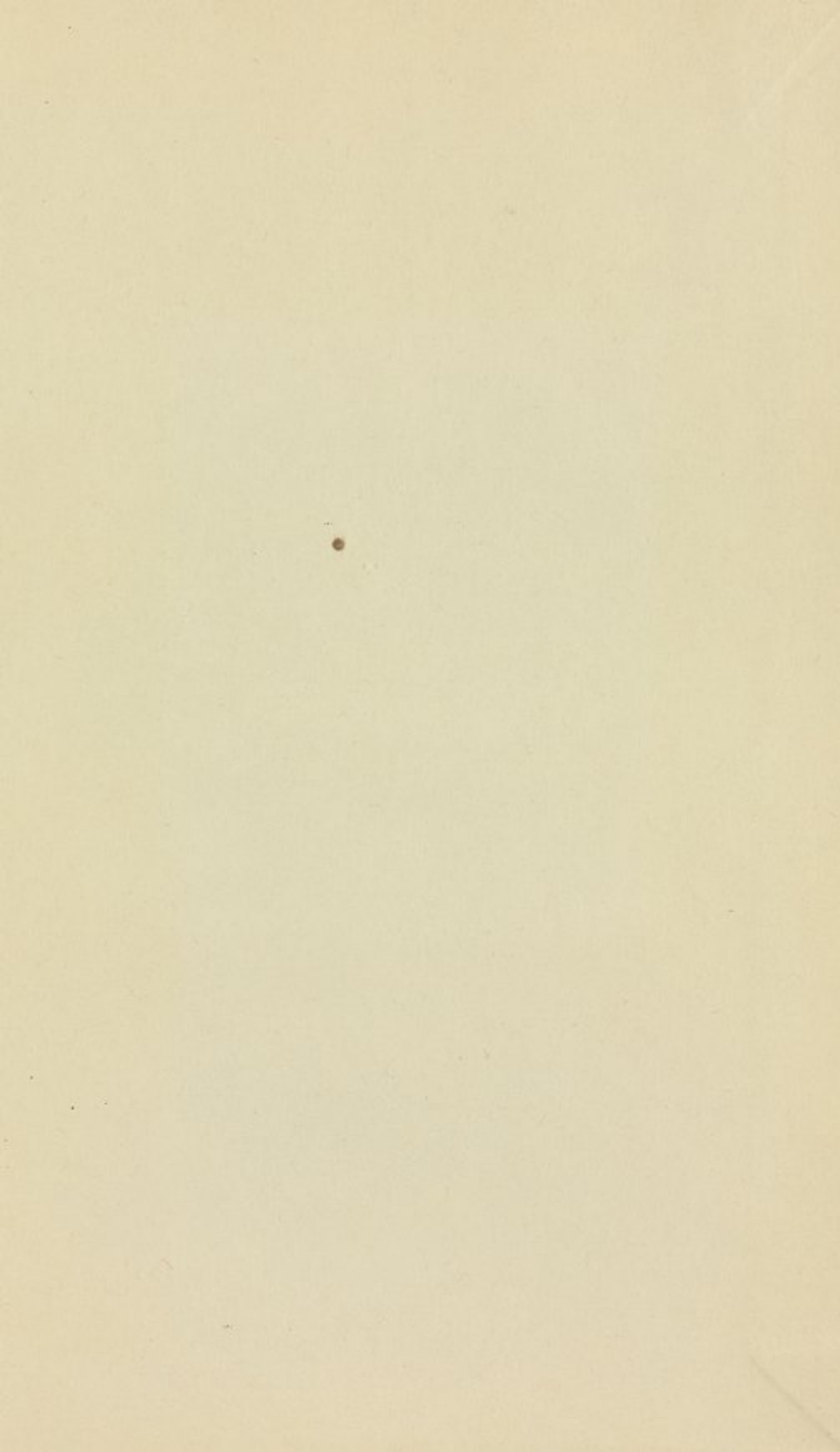




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY



مَصْرُ الحَيَاةِ

لنخبة من زعماء الرأي والثقافة في مصر

عُني بنشره

قسم الخدمة العامة

بالجامعة الأمريكية بالقاهرة

والتزمت طبعه وبيعه ادارة

المطبعة المصرية

سنة ١٩٣٣

D T

70

. A 46

فهرس

صفحة

- ٥ مقدمة - المستر وندل كلياند
- ٩ ينابيع الثروة الزراعية - فؤاد بك اباطه
القطن - القمح - البصل - قصب السكر - الذرة - الأرز -
الشعير - العدس - الفول - البرسيم - الكتان - فلاحه البساتين -
النخيل - النحل - الحيوانات الزراعية
- ٢٥ الثروة المعدنية - الدكتور و. ف. هيوم
لمحه تاريخية عن التعدين في مصر - الذهب - الفضة - النحاس -
خامات الحديد - المنجنيز الرصاص - الفوسفات - زيت البترول -
احجار الزخرفة والبناء
- ٤٣ تجارة وصناعة مصر الحديثة - الدكتور عبد الحكيم الرفاعي
تجارة مصر الخارجية - الصادرات والواردات - تجارة الترانسيت -
الميزان التجاري - ميزان الحسابات - الصناعة في مصر - صناعة السكر -
صناعة الغزل والنسيج - صناعات اخرى - مستقبل الصناعة في مصر
- ٧٠ الفلاح والصانع - الاستاذ سلامه موسى
حال الفلاح والصانع قديماً - أثر استعمال الآلات في حياتهما - البطالة -
الفاقة واسبابها - الحركة النقابية في مصر - اقتراحات للأصلاح
- ٧٩ التعليم والاتصال الفكرى - الاستاذ اسماعيل محمود القباني

٩٧ الحالة الصحية في الوقت الحاضر - الدكتور محمد شاهين باشا

١١٥ أوقات الفراغ والحياة المنزلية - الدكتور بنيامين بهمن

علاقة الرجل بزوجه - علاقة الوالدين ببناتهم - المنزل المصري
الجديد - الرجل - أوقات الفراغ - العلاج

١٣٥ الفن والأدب - الانسنة مي

اللغة في دور التطور - بواعث التطور - اللغة والصحافة - أثر الحركة
القومية في اللغة - من الجدل السياسي الى البحث الأدبي - الأدب الحديث -
اقسام الأدب - الشعر والنثر - أدب العامة - التمثيل - النحت والرسم
والتصوير - الموسيقى - الخلاصة

١٥١ الدين وأثره - الاستاذ علي عبد الرازق

١٦٥ الرأي العام كأداة للرقابة الاجتماعية - الدكتور محمد حسين

هيكلك بك

١٧٧ التنظيم الاجتماعي بواسطة الحكومة - احمد بك صفوت

١٨٩ علاقة مصر الدولية - الأستاذ سبابا حبشي

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة في نشوء المجتمع -
أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها القديم - أثر علاقات مصر الدولية في
تاريخها الحديث - حفر قناة السويس - المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب
النفوذ الانجليزي وأثره في حياة البلاد - نظام الامتيازات الأجنبية
والقضاء المختلط .

مقدمة

يقول فردريك ليلاي المهندس الفرنسى والاجتماعى الكبير فى نظريته المشهورة ان كل شعب من الشعوب هو نتيجة التفاعل بين ثلاثة عوامل ← المكان ← العمل ← السكان . وهذا ما دعا قسم الخدمة العامة الى الاهتمام بوضع كتاب (حضارة مصر الحديثة) الذى يدور حول نقطة واحدة ويبحثها من وجوه مختلفة . فيشمل هذا الكتاب اثني عشر موضوعاً روعى فى ترتيبها قاعدة ليلاي . ومع أنه لا يمكن تطبيق هذه القاعدة حرفياً الا أن جميع موضوعاته ترمى الى بيان تأثير هذه العوامل الثلاثة مجتمعة . فان حالة كل جماعة من الجماعات التى يتألف منها الشعب تتوقف الى حد كبير على المكان الذى يعيشون فيه أى طبيعة بلادهم وجوها ومواردها . أما طرق استغلال هذه الموارد أى العمل فانها تحدد نوع الأعمال التى تقوم بها الجماعة لكسب المعيشة . وهذه تؤثر فى علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات لا سيما اذا كانت التجارة أحد هذه الأعمال . غير أن العامل الأخير هو أهمها لأنه الجماعة نفسها ، أى السكان . فان سبيل ائتلاف الجماعة وطرق استغلال مواردهم ونوع الحضارة التى يعملون على ترقيتها انما تتوقف على مبلغ إدراكهم ونبوغهم

دخلت الحياة المصرية فى عصر جديد منذ نشوب الحرب العالمية مما أدى الى اهتمام المصريين المتعلمين بأثر هذه العوامل الثلاثة التى يتوقف عليها تقدم البلاد فى المستقبل . فكانت الشؤون الزراعية من زمن بعيد أهم ما يشغل بال المصريين . غير أن الشؤون الصناعية أخذت تنال قسطاً وافراً من العناية فى عصرنا الحاضر وكذلك الأحوال التجارية التى يتوقف عليها رواج الزراعة والصناعة . ولم يكن اهتمام المصريين مقصوراً على الأمور المادية فان الحالة الاجتماعية والفكرية عنى بأمرها سواء ما كان منها متصلاً بحاجات الأهالى الأساسية للمعيشة والصحة والتعليم ، أو خاصاً بالترفيه والتهذيب كاستعمالهم لأوقات الفراغ ، أو آدابهم وفنونهم ودينهم . هذه الموارد المادية والعقلية تحتم علينا أن نبحث فى الطرق التى تضمن نموها وتقدمها ، وهذا البحث يشير امامنا عدة مسائل كالأميال العامة وتقدم أنظمة الحكومة وعلاقتها بالأمم الأخرى .

فمن الموضوعات الأثني عشر تتناول الثلاثة الأولى موارد البلاد المادية من زراعة ومعادن وتجارة وصناعة ، ثم يلي ذلك ستة موضوعات تبحث في حالة مصر الاجتماعية وكيفية تقدمهما ، كعمل الفلاح والصانع ، وانتشار الآراء في أنحاء البلاد ، وتقدم المواصلات ، وحالة الأهالي الصحية ، واستعمال أوقات الفراغ ، والحياة المنزلية ، وبعد ذلك تعالج الحياة الروحية التي تتمثل في أدب وفن مصر ، والحياة الدينية في موضوعين . وأخيراً تبحث ثلاثة موضوعات في التنظيم الاجتماعي . فيتناول الأول أثر التنظيم الاقتصادي ، العادة والرأى العام . ويتناول الثاني التنظيم الرسمي بواسطة الحكومة . ويعالج الثالث العلاقات الدولية وأثرها في توجيه الحياة الأهلية

هذه الموضوعات القيت في اثنتي عشرة محاضرة بقاعة يورت التذكارية في فبراير ومارس وأبريل سنة ١٩٣٢

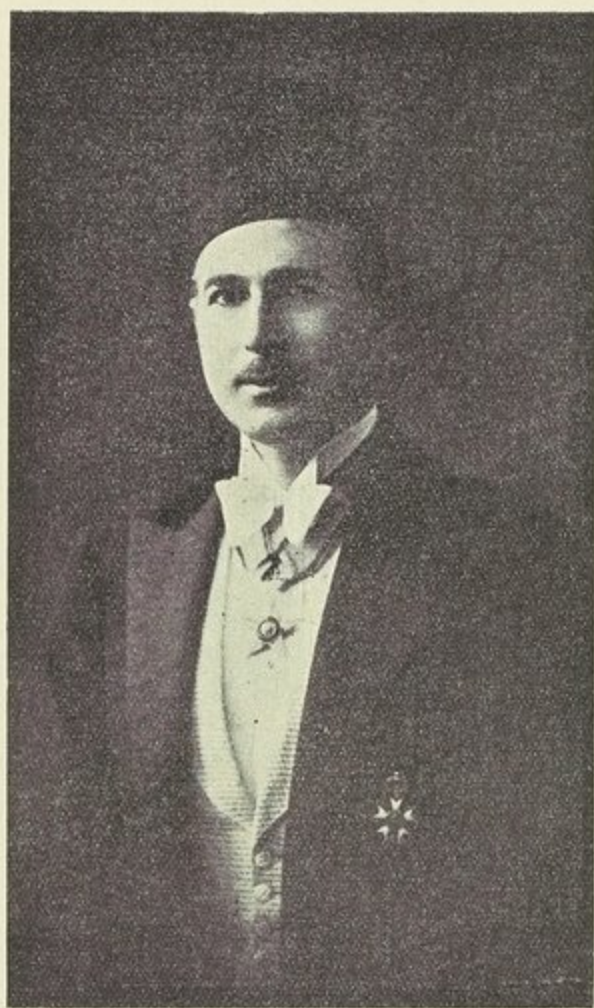
وكتب كل موضوع منها متخصص له ومعروف بصحة البحث وسعة الاطلاع وطول الاختبار . وعليه سيكون كل موضوع مرجعاً وملخصاً لأحدث الحقائق والنظريات . ويمتاز هذا الكتاب بأنه من وضع المصريين الذين لا تشوب آراءهم صبغة أجنبية .

وقد عالج كل محاضر موضوعه على طريقته في التفكير والأسلوب الذي ارتضاه ومن الواضح بناء على هذا ان المحاضرين غير متضامين فيما تضمن هذا الكتاب من مختلف الآراء . وقسم الخدمة العامة يسره أن يعرض هذه الأبحاث في جيدة تامة لأن مهمته ان يسعى لتنشيط الفكر لا أن يسيطر عليه

والأمل وطيد بأن يؤدي هذا الكتاب الى زيادة تفاعل العوامل الثلاثة — المكان — العمل — السكان ، وتقدم المرافق الوطنية وازدياد أثرها حتى ينعكس ترتيب النظرية فتصبح — السكان — العمل — المكان . أى أن السكان يصبحون العامل المسيطر في انتاج العمل حسب ارادتهم وبكيفية تؤدي الى تحسين المكان وجعله جذاباً منعشاً وهو منتهى الفن الذي يتجلى في سلسلة الموضوعات حيث تظهر عبقرية مصر الحديثة وطموحها

ونزل كليبلا

مدير قسم الخدمة العامة



صاحب العزة فؤاد بك أباطه
مدير الجمعية الزراعية الملكية

ينابيع الثروة الزراعية في مصر

لحضرة صاحب العزة فؤاد بك باشا

يخيل الى حين أنكلم عن ينابيع الثروة الزراعية في مصر اني انما أتناول حديثاً معاداً وأروى قصصاً تناولتها الأفكار ، وأعتقد اعتقاداً جازماً انه ان كانت مصر في حاجة ماسة وضرورة لازمة فان هذه الحاجة وتلك الضرورة هما تعمق الافكار المصرية وبذل أقصى الجهود في بحث ينابيع الثروة الزراعية ينبوعاً ينبوعاً ، وأن تكون العناية بهذه المباحث هي شغلنا الشاغل تذكرها كلما أشرقت شمسنا المنيعة ونكرر ذكرها عند مغربها ايضاً . ومن تغذى بنعم مصر الزراعية لن ينكر ما لتوالي البحث في ينابيع هذه الثروة من الفوائد الجليلة والنعم التي تتجاوز الحصر والعد . ولعل بما سأبينه من قصص حدثنا التاريخ عنه تبين ما نحن ملزمون به وما يجب أن تبذل في سبيله كل مرتخص وغال حتى ندفع عن أنفسنا ما تهددنا الأيام به من الضوائق الزراعية .
وأقدم بحثي بكلمة مجملة عن مصر الزراعية

مصر بلد زراعي

مصر وادٍ استوى بين صحراويين يشق وسطه نهر النيل الميمون الروحات المبارك الغدوات . الذي يفيض كل عام على هذا الوادي بما يملؤه قوة ويزيد في اخصابه واعداده للانبات والاثمار معاً . لولاه لعم الجذب وأقفرت الأرض وعم سطحها تراب تذروه الرياح وأصبحت جزءاً متمماً للصحراويين اللذين تكثفانها . فهي كما قيل بحق هبة من النيل . ونعمة من نعمه نرجو الله دوامها ونسأله أن يقدرننا على شكره بالمحافظة عليها ، والسعي في مواصلة الانتفاع بها ، والعمل الدائم على زيادة الاثمار والانتاج بما تتخذه من التدابير الصالحة للارتواء بمائه ولادخاره لأوقات الحاجة ، حتى يعم النفع ويزداد الانتاج .

تلك حالة مصر منذ عرفها التاريخ من أول عصوره الى اليوم. فان أسفاره تحدثنا عن الزراعة في مصر ومبلغ عناية القائمين بالأمر فيها بهذا النهر الكريم — لا — بل النعيم الدائم. والخير المتتابع يتوالى علينا فيضيه. وبتكرار زيادته يستعاد فينا النشاط وتنشرح له صدورنا، ونقبل على هذه الأرض التي تنادينا للعمل وتستقبلنا بوعود لم تخلفها، فكأنما كلما رويت من ماء هذا النهر الكريم تقول لسكانها «هلموا الى بيوتكم أردوها عليكم زرعاً مستويّاً على سوقه يملأ جيوبكم نضاراً ويوتكم خيراً».

ان مصر تعتمد في ثروتها على الزراعة فهي رأس مالها منذ القدم ولقد تعلق مبلغ الرخاء فيها بالزراعة على تعاقب الأجيال فعم الرخاء كلها صاحبت الزراعة. وحلت بالناس الضوايق وهددتهم الفاقة كلها اعتلت نظم الزراعة وتدهورت نتائجها وقلت حاصلاتها. كما أن الزراعة أثر من آثار النيل ونعمة من نعمه.

بقى على أن أضرم الى النيل تلك اليد العاملة والساعد المقتول والنفس المطبوعة على العمل والصبر المنتج، أى الفلاح المصرى. فهو العامل الذى تتحقق على يديه نتائج العمران فى هذا البلد. ولا يفوتنى أن أضرم الى العوامل التى جعلت مصر بلداً زراعياً منذ نشأته، شمسها المشرقة تلقى بأشعتها على هذه الأرض فتبقى تربتها وتدفع غوائل البرد عن نباتها وتأخذ بيد ذلك النبات الى مستوى النماء الصالح ثم تعاونه على اخراج ثمره دائبة فى مساعدته على النضج حتى يحين حصاده وجنيه. ولا تقف آثارها عند هذا الحد بل أن الفلاح يستعين بضوئها وحرارتها على تجفيف ثماره حتى تصلح للحفظ.

هذه العوامل مجتمعة هى التى جعلت مصر بلداً فريداً فى جميع الأدوار الزراعية. ففي العهد الأول عرفنا من التاريخ أن مصر ربت حياتها الزراعية تبعاً لفيض ذلك النيل. فان الفلاح المصرى فى ذلك العهد كان ينتظر انكشاف الأرض ونزول الماء عنها بعد الفيضان حتى يهب مشمراً عن سواعده يلقي فيها بالبذور قبل أن تجف، ثم يعمل على أن تتوارى هذه البذور فى طيات الأرض حتى تأخذ لنفسها الغذاء الصالح والماء الضرورى، ثم لا يلبث أن يراها وقد لبست حلة خضراء تلاعبها الرياح وتساعددها حرارة الشمس على النماء. ولا تكاد تمر على هذه الحالة بضعة أشهر حتى يسعى هذا الفلاح لحصد ما زرعت يده وجمع الثمرة التى كان يرجوها. وهذا النوع من الزراعة بقيت عهوده متتابعة فى مصر حتى عصرنا الحاضر فى بعض الجهات وهو المسمى «برى الحياض» فى

مصر العليا . ولقد عرفنا أيضاً أن المصريين في العهد القديم طمعوا في زيادة الثروة والانتاج فعمدوا الى النيل وبسطوا بعض نفوذهم عليه . وكان من آثار هندسة الري لهم أن حولوا مجرى النيل ، وأقاموا عليه المقاييس ، ومدوا منه الفروع تشق جنبات الأرض البعيدة عنه لتصل ماء النيل بها . ولما لم تتحقق كل رغباتهم في هذه الاعمال وحدها اعتزموا عملاً يعد من اكبر الأعمال الهندسية في أيامهم فأنشأوا بحيرة الفيوم ليخزنوا فيها كميات عظيمة من ماء النيل يروون بها أرضهم رياً دائماً حتى يتمكنوا من التنويع في الحاصلات . ولقد اجمعت المصادر التاريخية ، أو كادت ، فيما تحدثنا عن المقدار المزروع في هذا العهد السحيق . فان الأرض المزروعة في هذا العهد كانت أوسع من الأرض المزروعة الآن . فقد أربت المساحة المزروعة في عهد الأسرات على السبعة ملايين من الأفدنة ، وبلغ ما أنتجته الأرض من القمح والشعير في السنة الواحدة نحو اربعين مليوناً من الأرداب ، وذلك يقارب خمسة أمثال ما تنتجه البلاد المصرية في السنة في الوقت الحاضر . حتى لقد كانت مصر في هذا الوقت ينبوعاً غذائياً لجاراتها ، تصدر إليها القمح وتقف في وجه القحط الذي كان يهاجم هذه الأقطار المجاورة في سنوات متعاقبة . وتلك قصة يوسف عليه السلام حينما جعله عزيز مصر على خزائن الأرض تنبئنا بأفصح بيان وأصدق خبر عن سيارات الأمم المجاورة حينما هبطت مصر تشترى منها القمح وتعود به الى بلادها . وأحب أن نذكر أن سكان مصر في هذا العهد لم يكونوا حفنة من الناس بل كانوا اكثر عدداً من سكانها الآن ، فقد بلغ عددهم حينئذ ثمانية عشر مليوناً ، عمتهم غلات مصر وفضلت حتى وسعت الأقطار الاوربية وأخص بالذكر منها روما

ذلكم مبلغ ارتقاء مصر في العصور القديمة ، ولكن شأنها شأن غيرها في الخضوع لنواميس العمران وسنن الحياة . فقد اعتورتها حوادث الأيام ودال ملكها ونزلت الى عصور الجهالة المظلمة حتى كان عدد سكانها في أول القرن الماضي — أى القرن التاسع عشر — ٣,٤٣٠,٠٠٠ نسمة وانحطت مكانة الزراعة وأفقرت مساحاتها الواسعة حتى هبط المزروع من أرضها في ذلك الوقت الى ٦١٣,٦٨٥ فداناً . ثم بدأت من ذلك الحين تسترد عظمتها وما كان لها من الرخاء ونماء الثروة الزراعية على يد ذلك المصلح العظيم منشئ مصر الحديثة صاحب الآثار الخالدة والنعم المشورة رأس الأسرة المالكة محمد علي باشا

فما تبوأ أريكة الولاية المصرية في أوائل القرن الماضي حتى نهض بمصر وسعى سعيًا متواصلًا في تحسين زراعتها فتكاثر سكانها واتسعت مساحة الزراعة فيها. وإنى أرى قياماً بالواجب واعترافاً بالجميل لهذه الصفحة الخالدة أن أستعرض بعض ما قام به من الإصلاح الزراعى وتنظيم الري فأقول :

عمد محمد على باشا الى إصلاح نظام الري وجعله دائماً فى الدلتا، وإلى تغيير زراعة الحياض بالزراعة الدائمة والمتنوعة. فكان أول ما قام به تطهير الترع حتى يتسع مجراها لحمل كميات كبيرة من الماء. ولما لم يحقق هذا بعض رجائه عمد إلى النيل نفسه فأخذ يرفع مناسيب مياهه، فأقام عند القناطر الخيرية هذه القناطر العظيمة التى ضمنت للوجه البحرى كله رخاء دائماً بما شقه من الترع والرياحات التى تحمل مياه ذلك النهر إلى أراضيه المترامية الأطراف. وضع الحجر الأساسى لذلك البناء العظيم (القناطر الخيرية) فى سنة ١٨٤٧. ولما رأى من تولوا بعده أثر هذه القناطر بذلوا المال فى تقويتها سنتى ١٨٨٦ و ١٨٨٧ وهكذا استمرت أعمال تنظيم الري فى الحكومات المصرية المتعاقبة، فحفرت المصارف العمومية والفرعية وزيد فى عدد الترع. ومن أكبر أعمال الري عوداً بالفائدة على الزراعة المصرية ذلك البناء العظيم الذى أقيم عند مدينة اسوان (خزان اسوان) عام ١٨٩٩ وما زالت الحكومات ساهرة على ذلك البناء توالى تعليته وتقويته وتعهده بالصيانة الدائمة حتى كان من آثاره أن قلت زراعة الحياض واتسعت مساحات الري الدائم فى مصر العليا أيضاً. ثم توالى بعد ذلك إقامة القناطر فانشئت قناطر اسنا عام ١٩٠٩ ونجع حمادى الجارى العمل فيها الآن. وأسويط عام ١٩٠١ وقناطر زفتى عام ١٩٠٢ لرفع منسوب المياه خلفها وتغذية الترع المتفرعة من النهر عندها. وكان من آثار كل ذلك أن بلغت مساحة الأرض المزروعة فى مصر هذه السنة — ٣١٧ و ٦١٦ و ٥ من الأفدنة. وما زالت البلاد تنظر بعين الأمل إلى المستقبل القريب الذى تتم فيه مشروعات الري الكبرى فتنهض الزراعة نهضتها الأولى وتنجو البلاد من الضوائق الزراعيّة التى تهددها. فإن عدد سكانها قد نما نماء سريعاً جداً حتى بلغ فى الإحصاء الأخير ١٤ و ٢١٣ و ٠٠ نسمة، لكن مساحة الأراضى المزروعة ٣١٧ و ٦١٦ و ٥ فداناً وهو مقدار كما تعرفون قليل جداً بالنسبة إلى عدد السكان، ويدل دلالة صريحة على أن البلاد ما زالت مهددة بخاطر القحط والمجاعة

وضروب البطالة والعمال العاطلين الذين لا بد لنا من ان تدبر شأنهم ونسعى في إيجاد أعمال لهم . ويكفينى دليلاً على هذا أن اذكر النسبة بين عدد السكان وعدد الأفدنة في أزمنة سابقة وفي الوقت الحاضر ، فإن ما يخص كل خمسة أشخاص من السكان في هذا الوقت هو فدان من الأرض — نسبة ضئيلة جداً — فقد كانت في أول عهد محمد علي باشا لكل شخص واحد فداناً وفي سنة ١٨٨١ كان لكل ثلاثة أشخاص فدانان . لذلك كانت واجباً محتوماً علينا أن لا تتوانى في مواصلة السعى في توسيع المساحات المزروعة واصلاح الأراضي البور واقامة المشروعات الهندسية المساعدة على ذلك . واني لكبير الأمل أن تكلل مشروعاتنا المستقبلية بالنجاح حتى تنجو البلاد من الأخطار وتكافأ نسبة الأراضي الزراعية وحاجة السكان الذين ينمو عددهم نمواً مطرداً كل سنة ولقد كان من اثار منشآت الري ان نعمت مصر بكثير من صنوف الحاصلات الزراعية التي تحتاج الى الري الدائم طول السنة . وكان أهم ما تمتعت به من الحاصلات الزراعية القطن .

القطن

قد يظن البعض ان زراعة القطن لم تعرفها مصر الا في القرن الماضي ، ولكنني أقول أن زراعته كانت معروفة قبل ذلك من زمن بعيد . ومع اني لا أستطيع الجزم بوجوده في عهد الفراعنة أوكد أنه عرف في مصر منذ الفتح الاسلامي ، وان لم يكن في مقدمة الحاصلات الأخرى ولا في مستواها ، فإن عماد الثروة الزراعية في هذه العهود كان على القمح والقصب وغيرهما من الحاصلات الأخرى . ولم يكن القطن حولياً كما هو الآن ، فقد كانت أشجاره تعمر في الأرض وتستثمر في كل عام شأن أشجار الفاكهة اليوم . ولقد ذكر ابن معاذي خراج مصر في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي (٥٧٢ هـ — ١١٧٦ م) ثم قام حضرة صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون بتقدير قيمة ذلك الخراج الذي كان يتقاضى عن الفدان الواحد فكانت حسبته ٤٢ قرشاً لفدان القطن و ٢١٢ قرشاً لفدان القصب و ٦١ قرشاً لفدان القمح و ١٢٧ قرشاً للكتان و ١٢٧ قرشاً للنيلة (من كتاب مالية مصر صحيفة ٢٣٣ و ٢٣٤) ومن ذلك يرى أن القطن لم يكن من الحاصلات الرئيسة في ثروة البلاد في ذلك العهد .

فلما استولى محمد على باشا على البلاد المصرية ونهض بها، كما أشرت الى ذلك، كان من آثار نهضته هذه ان استقدم من فرنسا المسيو جومل سنة ١٨٢١ ليستعين به على تنظيم مصانع الغزل والنسيج في مصر. وكان النوع الغالب من القطن اذ ذاك رديثا لا يكاد يصلح الا للتجيد ولكن مسيو جومل عثر مصادفة في بعض جولاته على نوع جيد من القطن في حدائق محوبك، أحد ولاياتها، فاعجب برتبته وعرضه على محمد على باشا وأشار عليه أن يزيد مقدار المزروع من نوعه. وأدرك محمد على باشا بثاقب رأيه ما يعود على البلاد من الفوائد الجمة اذا انتشرت زراعته فعمل على تنشيط المزارعين بشراء محصولاتهم القطنية بأثمان مرتفعة. ولم يمض على ذلك الا سنوات قليلة حتى انتشر هذا النوع من القطن وأطلق عليه قطن محوبك أو قطن جومل. ولما أدرك محمد على باشا الثمرة العظيمة من هذا المحصول استورد نوعاً آخر من أمريكا كان يزرع بجزيرة «سى ايلند» فأخذ القطن المصرى بأنواعه يحتل مكانة رفيعة في الأسواق العالمية وتهاقت على طلبه مصانع النسيج في فرنسا وانجلترا، ومن جراء ذلك أخذت زراعته تزداد سنة فسنة. فبعد ان كان محصوله في سنة ١٨٢١ - ٩٤٤ قنطاراً وصل بعد ست سنين أى سنة ١٨٢٧ الى ٣٤٠٠ قنطاراً. ثم استمر في زيادة مطردة حتى وثب وثبة سريعة في الزيادة بعد حرب أمريكا الأهلية عام ١٨٦٦ حين كثر عليه الطالب فنشط المصريون في زراعته فاستكثروا منه، ومن ذلك الوقت أصبح القطن الدعامة الأولى في ثروة مصر الزراعية، ودأبت البلاد في المحافظة عليه فتأبرت على تحسين أنواعه وإيجاد أصناف جديدة اختص كل صنف منها بمنطقة من المناطق المصرية. فاختص الوجه البحرى بالأصناف الطويلة التيلة مثل السكلاريدس وغيره والوجه القبلى عنى بزراعة الأشمونى والزاجورا. وكان من سهر البلاد وعنايتها بهذا المحصول ان عملت على تجديد أنواعه كلها شاخ نوع وفسدت نتيجته، وكان من هذه الأنواع الجديدة «قطن المعرض» الطويل التيلة والناعم الشعرة الذى أخرجه الجمعية الزراعية الملكية ليأخذ محل السكلاريدس الذى أصابه الانحطاط في مناطق كثيرة من مناطق الوجه البحرى. كما عملت وزارة الزراعة من ناحيتها على إيجاد «جيزه ٧» وغيره من الأصناف. واشتغل أفراد في إخراج أقطان أخرى ولا تزال مصر متفوقة بأقطانها من حيث جودة النوع على أقطان الدنيا، مع أن نسبة المحصول المصرى تعادل ٥ ٪ مما ينتجه العالم وهى نسبة ضئيلة جداً، وعلى رغم ضآلة هذه النسبة فإن القطن هو المورد الوحيد العظيم الشأن للثروة المصرية، يرتبط رخاؤها به، فهو

بحور سعادتها وشقاؤها . فقد بلغت قيمة القطن وبذرت ما يناهز ٩٠ ٪ مما تصدره مصر جملة . وامتازت سنة ١٩١٩ بظاهرة بارزة فانه بعد أن خرج العالم من الحرب كان في شبه مجاعة قطنية فزاد الطلب على القطن وارتفع ثمنه حتى باعت مصر محصولها منه بما زاد على ١١٧ مليون من الجنيهات . غير أن الطفرة التي طفرها العالم في سبيل الانتاج انتكست من جميع النواحي فزاد الانتاج وقل الاستهلاك وأصبح العالم يعاني أزمة طاحنة ، فهبطت اسعار القطن وتناقص ظل الرخاء عن البلاد . وبعد ان كانت مصر تبنى ثمناً لقطنها الذي بلغ نحو ثمانية ملايين قنطار في كل من سنتي ١٩٢٨ - ١٩٢٩ ما يزيد على خمسين مليوناً من الجنيهات اصبحت وما جنته في كل سنة من السنتين الأخيرتين لا يكاد يزيد على ثلث هذا المبلغ

ان شبح الازمات الخفيف والحراب الذي يحتل نواحي البلاد فيقض علينا المضاجع ، ويهزم جند الرخاء ، يفيدنا بما يثيره من الهمم ويبعثه من قوى النشاط الفكري ، ويحمل المصلحين من اهل هذا البلد على الاحتيال في تخفيف ويلات هذه الضائقة ، واقتاد البلاد مما وقعت فيه وابتكار ما تتسلح به ضد هذه النكبات في المستقبل . واطهر اثر لهذا الدرس ان اتجهت نفوسنا جميعاً الى البحث عن عمد كثيرة يرتكز عليها بناء الثروة الزراعية المصرية . وكان أول ما اتجهت افكار المصلحين اليه ان لا يعتمد المصريون في ابناء ثروتهم على القطن وحده ، ورأوا البلاد وهي تستورد من مواد الغذاء ما يستنزف اموالاً كثيرة من أيدي اهلها في غير ضرورة لو انهم عولوا على الاكثار من زراعة الحبوب ، والتنويع في الحاصلات الزراعية الاخرى حتى تغني البلاد بمنتجاتها اولاً وترسل ما يفضل عن حاجاتها الى البلاد الاجنبية ثانياً فتكسب بذلك توازنها الاقتصادي الذي تعرفون أن اساسه زيادة الصادرات على الوارد . وكان ايضاً من اثر عناية المصلحين في البلد ان أنشأوا مصانع للغزل والنسيج ، وصناعات زراعية متنوعة ، لتغني بها البلاد ولوقليلاً عن استيراد منسوجات البلاد الاجنبية . وهي نهضة مباركة ترجو البلاد الخير كل الخير منها . فانها وان كانت تبدو ضئيلة في مبدئها فذلك شأن الأعمال الكبيرة تبدو ضئيلة ثم تنمو حتى تبلغ مستوى رقيها انشاء الله .

ولم تقصر جماعة المتخرجين من مدرسة الزراعة العليا التي اتشرف برآستها في أداء ذلك الواجب المقدس عليها نحو البلاد ، فقد نشطت عقول رجالها الى البحث فيما حل بنا

من ازمات خطيرة واتجهت الى الحكومة بنداها المتوالى لانقاص زمام القطن حتى تنزع البلاد عن عنقها نير الاستعباد القطنى اثراتها . كما طلبت اليها رفع الرسوم الجمركية على الواردات الزراعية وخصوصا القمح والدقيق لتحمى حاصلات البلاد من تدهور اثمانها . ولقد اجتمعنا مرات كثيرة ، اذكر من بينها اجتماعنا بالنادى الزراعى القيت فيه كلمة جاء بها : انه من العيب الفاضح بل من الاجرام الوطنى فى حق بلادنا الزراعية أن تخرج من جيوبنا كل عام ملايين الجنيهات لشراء القمح والدقيق .

القمح

تزرع مصر قمحاً نحو مليون ونصف مليون من الأفدنة ، ومحصول ذلك المقدار يزيد على سبعة ملايين أردب من القمح . قيمته ٥ و ١٢ ٪ من قيمة الحاصلات الزراعية المصرية جميعها كما دل على ذلك متوسط الاحصاء فى العشر سنوات الماضية ، ونسبته الى محصول القمح فى العالم تساوى ١ ٪ . وثمر ذلك المحصول فى مصر يبلغ اثنى عشر مليون جنيه . ومع أن هذا المحصول يستهلك جميعه فى البلاد فإنه لا يكفى حاجتها ولذلك تستورد قمحاً ودقيقاً تبلغ قيمتهما نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات فى كل سنة . وقد قدمت أن مصر ايام الفراغة كانت تنتج من القمح اربعين مليوناً من الأردب تسد به حاجتها ويفيض عنها الى جيرانها ، حتى لقد بلغ روما فى ايطاليا . ولعل ذلك يبدو غريباً لأول نظرة ، ولكنى ازيل هذه الغرابة بان مصر انصرفت عن القمح وشغلت نفسها بزراعة القطن حينما عرفت انه ثروة لا يستطيع القمح أن يدنو منها فقد كان يعوض على البلاد اضعاف ما تنفقه على ثمن القمح الذى ذكرته . ولكن الحالة فى هذه الأيام قد ساءت ونزل القطن الى مستوى لا تستطيع البلد معه أن تبذل المال فى ثمن القمح الاجنبى ، فالواجب عليها أن تسارع الى الاستغناء عن الواردات الاجنبية من القمح بما تنتجه ارضها المستعدة لهذا الانتاج

وبعد أن بينت أهمية القطن فى الأيام الماضية ، وأهمية الأكتار من زراعة القمح فى الأيام الحاضرة ، أرى حتماً على أن استعرض المحصولات الأخرى التى لها اثر ظاهر فى تكوين الثروة الزراعية

البصل

البصل حاصل مهم عرفه المصريون منذ أقدم عصورهم الى اليوم بتفوقه على جميع اصناف البصل في البلاد الأخرى، ولذلك ترجو البلاد رواج سوقه في الأقطار الأجنبية وتعمل على تنظيم اصداره وحفظه من التلف حتى يصل الى هذه الأسواق في حالة حسنة تضمن رواجه. ومنه تصدر مصر الى الخارج نحو ثلاثة أرباع ما تنتجه ولذلك تعده في المرتبة الثانية من المحصولات التي تصدرها وتشغل زراعته في البلاد نحو ٤١ ألف فدان تنتج أكثر من ستة ملايين قطار تبلغ قيمتها مليون جنيه

قصب السكر

ومن المحصولات المهمة في مصر قصب السكر، وتبلغ الأرض المزروعة قصباً أربعة وخمسين ألف فدان تنتج محصولاً قيمته نحو مليون وأربع مئة ألف جنيه. وقد عني اولو الأمر بتحسين هذه الزراعة من عهد محمد علي باشا الى الآن. ومع انصراف البلاد عن زرعه قليلاً لطغيان القطن عليه بقيت الحاجة الى السكر والعسل تستحث الأهليين على زرع حتى عاود النشاط هذه الزراعة بعد أن اتخذت الحكومة التدابير الضرورية لحمايتها وحماية الصناعة الناشئة عنها اعنى تكرير السكر. واكثر ما يزرع القصب في اراضي الوجه القبلي لانها أصالح لاتاجه

الذرة

الذرة غذاء جمهور المصريين وتزرع في أرض تكاد مساحتها تبلغ مليوني فدان يقدر محصولها بنحو ثلاثة عشر مليون اردب تختلف قيمتها باختلاف السنين، ولكن متوسط القيمة السنوية لهذا المحصول يزيد قليلاً عن اثني عشر مليون جنيه

الذرة العويجه

الذرة العويجه تزرع في الوجه القبلي . والمساحة المزروعة منها تبلغ ربع مليون فدان قيمتها مليون وسبعائة وخمسين ألف جنيه

الأرز

تختلف زراعة الأرز في مصر بحسب كمية المياه التي يجود بها النيل . واكثر ما يزرع في الاراضي الواقعة شمال الدلتا وفي جهات معينة من مديرية الفيوم . وقد اهتم المزارعون أخيراً لهذا النوع من المحصول رغبة منهم في أن يجعلوا له مكاناً بين محصولات البلاد . ولجودة نوعه يصدرون كميات كثيرة منه الى البلاد الأخرى لارتفاع ثمنه هناك ويستوردون بدلها أنواعاً رخيصة يتحمل صغار المستهلكين أثمانها . ومساحة الأراضي المزروعة منه تبلغ ٣٤٥٠,٠٠٠ فدان ثمن ما ينتج منها يبلغ نحو ٢,٨٦٥,٠٠٠ جنيه

الشعير

يزرع الشعير في الاراضي الضعيفة التي لا تنهض بزراعة القمح . وتبلغ الارض المزروعة منه ما يزيد على ثلثماية الف فدان يقدر محصولها بنحو مليوني اردب ثمنها نحو مليون ونصف مليون جنيه

العدس

يزرع العدس في أرض مساحتها ٧٤,٢٤٥ فداناً ، تنتج نحو ثلثماية الف أردب تبلغ قيمتها نحو ٤٨٤,٠٠٠ جنيه ويزرع عادة في الوجه القبلي

الفول

تغلب زراعته في الوجه القبلي ، والأرض المزروعة منه نحو ٣٢٣,٧٥٨ فداناً تنتج نحو مليوني اردب قيمتها نحو ٣,٣٤٢,٠٠٠ جنيه .

البرسيم

وهو غذاء الحيوان غصاً وجافاً وتكثر زراعته في البلاد المصرية . وله تأثير عظيم في إخصاب الأرض وتجديد قواها

الكتان

لا تزال زراعة الكتان ضئيلة في مصر ، وللبلاد أمل كبير بتنشيط هذه الزراعة ونجاحها بعد أن اتجهت عناية رجال بنك مصر الى انشاء شركة له تعمل على رواج سوق محصوله ، كما تعمل على تجهيز اليافه وفي مصر محاصيلات شتى لها أهمية ثانوية . من بينها الحلبة ، والفول السوداني ، والحمص ، والترمس ، والسهم ، والحناء ، وقيمتها في الثروة الزراعية قيمة ثانوية

فلاحة البساتين والخضر

ولا يفوتنا أن نذكر شيئاً كبير الأهمية عظيم الفائدة وهو فلاحة البساتين والخضر فقد تنبه المصريون في السنوات الأخيرة الى حاجة البلاد الى منتجات البساتين التي تحتل الأسواق المصرية من الخارج . فعمل كثير من الزراع على الاكثار من أنواع الفاكهة . وتوافرت الجهود في تحسين أنواعها . وظهرت ثمرة تلك الجهود في ما شهدته البلاد من الأنواع التي لا تقل جودة ان لم تزد على نظائرها مما تستورده البلاد . وقد عني اولو الأمر بحماية هذه المنتجات فرفعت قيمة الضريبة الجمركية على الفواكه المستوردة من الخارج حماية لحاصلات البلاد . ولنا أمل كبير بأن يستكثر الزراع من هذا النوع من المحصول وأن يعملوا على اتخاذ أحسن التدابير وأمثلة الطرق في استثمارها والانتفاع بمصنوعات تتخذ منها حتى تستطيع أن تصدر ما فضل من حاجتها فتحقق بذلك مورداً جديداً للثروة تزيد في نمائها وتكثر من مواردها ، ولعل هذا البحث يبدو تافهاً للنظر السطحي ، ولكني أود أن اذكر ما دفعته البلاد في سنة ١٩٣٠ ثمناً لما استوردته من الفواكه والخضر بأنواعها حتى يتبين عظم هذه المبالغ وكبرها ، ووجوب الاهتمام بهذا المورد العظيم الشأن .

(١) فواكه طازجة وجافة	١,٠٥٣,٥٩٢	جنيهاً
(٢) بطيخ	٨٨,٥٧٧	»
(٣) شمام	٢,٥٠٣	»
(٤) برتقال ويوسفى	٧٩,٧٣٢	»
(٥) خضروات طازجة	٨,٣٧٤	»
(٦) فاصوليا ولويا	٦٢,٧٦٠	»
(٧) بطاطس	١٣٥,٥٥٢	»

ولقد رأينا استغناء البلاد المصرية في هذا العام عن بعض ما تستورده من الفاكهة كالبرتقال والبطيخ، ولنا أمل وطيد بتقديم زراعة الفاكهة والخضر في بلدنا لما شاهدناه من اقبال الزراع عليها في السنوات الأخيرة

النخيل ومحصوله من البلح

يقدر عدد النخيل بالقطر المصرى بنحو ١١ مليون نخلة تنتج نحو ١١ مليون قنطار من البلح تبلغ قيمتها نحو ١,١٠٠,٠٠٠ جنية. وجميع هذا المحصول يستهلك في داخلية البلاد. ولقد سبق لى أن القيت محاضرة عن المباحث الزراعية بهذه القاعة في السنة الماضية جاء فيها « فمن المباحث التى عملت تخفيف البلح حيث يظهر بكميات وافرة في الأسواق وفي وقت واحد وفي فترة قصيرة، فسعت الجمعية الزراعية الملكية حوالى عام ١٩٢٠ في تخفيفه، ولا يزال قسم البساتين التابع لوزارة الزراعة يوالى سعيه في هذا الصدد وأعماله في هذا الموضوع تبشر بالنجاح إذ تمكن من حفظ أنواع كثيرة في حالة جيدة صالحة لاستعمالها في مصر ولتصديرها الى الخارج »

وأظن أن بعضاً منكم، إن لم يكن كلكم، قد رأى نتيجة هذا المجهود، فقد ظهر هذا البلح المجفف في الأسواق وكان الاقبال عليه عظيماً جداً، حتى أن الكميات التى أخرجها قسم البساتين نفدت في وقت قصير، وذلك راجع الى جودة الصنف ورخص ثمنه بالنسبة الى الأنواع التى نستوردها من الخارج. والامل كبير بأن لا يمضى وقت طويل حتى تستغنى البلاد عن المقادير الكبيرة التى نستوردها سنوياً من الخارج وندفع

فيها مبالغ طائلة. فان مصر تستورد كل سنة من البلاد الاجنبية نحو ٣.٣٢ طناً من البلح قيمتها ٢٧,٦٨٢ جنيهاً كما تستورد من السودان ٣٩٢٤ طناً قيمتها ٤١,٧٠٣ جنيهات الآن وقد انتهى بنا البحث فيما تخرجه الارض من الثروة الزراعية بما دعت الحال اليه من الاجمال والاختصار في كثير من موارد فان استقصاء البحث في كل مورد من الموارد التي أتيت عليها لا يتسع له هذا المجال ، ولا بد له من كتب طوال يقضى قارئوها الأيام الطويلة في الوقوف على الحقائق التي تدون فيها . غير انه بقيت لنا كلبة قصيرة تناول فيها ملحقات من ملحقات الثروة الزراعية وأثراً من آثارها وهي منتجات الحيوان الذي يعيش على الزراعة ويستخدم فيها ، ومن ذلك :

النحل

ازدهرت هذه الصناعة في السنتين الأخيرتين ازدهاراً يبشر البلاد بخير قريب تغني به عن استيراد هذا الغذاء الطيب النافع . ولعل الحركة الجديدة تخرج البلاد منها ظافرة بتدريتها على الاصدار بدل الاستيراد فتخفف بذلك عبئاً ثقيلاً من اعباء النفقات على نفسها ، وتزيد في موارد ثروتها زيادة جديدة ، وتضم الى الصناعات التي اخذت تحيا في النواحي الزراعية مثل حفظ الخضر والفاكهة وعمل الصلصة والنشاء صناعة جديدة هي هذه الصناعة التي اتحدث عنها

الحيوانات الزراعية ومنتجاتها

ولا يسعني وانا اتكلم عن تربية النحل أن اترك المنتجات الحيوانية الاخرى كصناعة الزيت والجبين التي لا اشك في انكم قد رأيتم انواعاً كثيرة منها في ما قدمته المصانع المصرية والمدارس الزراعية في معرض الجمعية الزراعية الملكية الذي اقامته في السنة الماضية . وهي صناعة يشعر كل مصري بأمله ورجائه الحار في تقدمها وترقيتها حتى تخلص البلاد من هذا الاحتلال الاقتصادي الغذائي الذي بقيت مصر من جرائه في اسر كثير من البلاد القريبة لحاجتها اليها في أمس ضرورتها ، وذلك هو الغذاء . فانه اذا تحقق لنا هذا الرجاء وهو لا بد (ان شاء الله) من تحقيقه ، زال عن هذه البلاد كابوس الحاجة وتوفرت في جيوب اهليها المبالغ الطائلة التي تستنزف كل سنة في استيراد هذه الضروريات الغذائية .

ويحتاج التقدم في الصناعة التي ذكرتها الآن الى العناية الكبيرة بالماشية، فان الذي يتبع الاحصاءات يرى أن عدد الأبقار لا تزال نسبتُه ضئيلة بالنسبة الى عدد السكان ولا تزال بنا حاجة الى الاستكثار من عدده لسبيين . أما أحدهما فهو أنه يكثر في مصر الزراع الصغار الذين يعتمدون على الماشية في حرث الأرض وسقيها لأن ضيق زراعاتهم لا تساعدهم على استخدام الآلات الحديثة . وأما الثاني فهو حاجة الصناعة المتقدمة الى الاكثار من صنوف هذا الحيوان ومن الجاموس أيضا، مع العلم أن الصنف الأخير أعود بالفائدة على صناعة الزبد والجبن والألبان لغنى لبنه بالمادة الدهنية التي فيه ولوفرة الكمية التي تعطيها الجاموسة في السنة

بقي أثر هذه الحيوانات من الناحية الغذائية، فلحومها من المواد التي لا غنى للإنسان عنها مهما نزلت به الدنيا، ولولا وجود هذه اللحوم ورخص أثمانها لاحتلت جسومنا الامراض التي تعتري الفقراء الذين لا تساعدهم الايام على نيل مقدار كاف من اللحم كل أسبوع

وما تقدم ذكره يكفي لاستنهاض الهمم وتضافر الجهود وعقد العزائم على مساعدة البلاد وانعاشها مما وقعت فيه من ازمة مخربة . فان الأعمال الجسام لا يرجى تمامها الا بتضافر الايدي العاملة عليها مهما كانت هذه الايدي قليلة فقد علمتنا التجارب وتواريخ الشعوب أن الاتحادات والنقابات العظيمة ذات الآثار الخالدة في الامم والنعم المشكورة فيها انما قامت على ايدي جماعات كانت في البداءة قليلة ضئيلة ثم تداركها النماء وتلاحقت قواها حتى ظهرت في جلال مظهرها وجماله ؟





جناب الدكتور و. ف. هيوم
مستشار فني قسم المساحة الجيولوجية

رُوة مصر المعرنية

لجناب الدكتور و. ف. هيوم

مستشار في قسم المساحة الجيولوجية

(ترجمها الاستاذ محمود ابراهيم عطيه ، مفتش المساحة الجيولوجية)

يضطرنى قصر الوقت وتشعب أطراف الموضوع الى الاكتفاء بالتحدث اليكم عن بعض النقط الهامة ، وسأبدأ محاضرتى بمناقضة القول الشائع « بأن مصر ما هى إلا هبة النيل » .
حقاً أن مصر تعتمد فى حياتها وبقائها واستقرارها على نهر النيل ، ولولاه لما وجد أحد منا هنا . ولكن مصر تدين بعظمتها وجاهها ومكانتها كقوة فى العالم ، للصحراء لا للنيل . فمن صخور الصحراء شيدت الأهرامات وأعظم الهياكل المصرية . ولولا وفرة أحجار البناء فى الصحراء التى تكتنف مدينة القاهرة لما أمكن قيام هذه المدينة العظيمة

وقد استخرج من الصحراء الصوان والنحاس والذهب ومعادن أخرى استعملت لأغراض حرية أو تجارية أو كأدوات للزينة . وللصحراء تاريخ طويل وعجيب ، وبخاصة تاريخ صحراء مصر الشرقية الواقعة بين نهر النيل والبحر الأحمر . فلقد تعاقبت على هذه المنطقة فترات اتعشت فيها حياة التعدين وأخرى أصيبت خلالها بالأضمحلال . ولا بد أن كان قدماء المصريين على علم تام بالثروة المعدنية . فهم أول من كشف عن كثير من المعادن القيمة ، ولقد أخذوا منها لسوء حظنا كميات عظيمة استعملت فى شؤونهم الخاصة وتركوا لأحفادهم نصيباً ضئيلاً من هذه الثروة . ومن عهد ملوك المصريين القدماء الى عهد سيادة العرب استمر التعدين فى الصحراء لمنتجات عديدة مثل الذهب والنحاس والبريل (الزمرد المصرى) . غير أنه لما ضعفت الحكومة المركزية واستعادت قبائل الصحراء حريتها أصبحت الصحراء أرضاً مجهولة ولم يزورها المستكشفون للبحث عن الثروة المعدنية ، وضاعت معالم الأمانة التى وجدت بها المعادن . واتعش التعدين بعد ذلك عند

بدء القرن التاسع عشر وذلك بظهور السياسى العظيم المعروف ببعد النظر وعلو الهمة المغفور له محمد على باشا الذى شجع المنقبين من مختلف الجنسيات على إعادة اكتشاف الأماكن الصحراوية، وبذا عاد عهد الاستكشاف واطهار ما كان مجهولاً . فقد عثر « برتون ، و « ولكنسون ، على محاجر الحجر السماقى الامبراطورى ثانية ، ووجد « كايو ، أما كن الزمرد ، و زار « بروتشى ، مناجم الرصاص القديمة وقام ببعض الاكتشافات الهامة . ولقد أسدل الستار ثانية على هذه المناطق الصحراوية بموت المغفور له محمد على باشا لى ما يربو على نصف قرن فضاعت كل المعلومات التى اكتسبت فى الماضى ولم يعد أحد يعرف مواقع المناجم القديمة الا فى الحالات التى نشر فيها المستكشفون نتائج تجاربهم . وعندما حضرت الى مصر فى سنة ١٨٩٧ كان عهد انتعاش آخر على أبواب الابتداء فقام « جونسون باشا ، و « الفورد ، بأول مجهود لتحديد مواقع مناجم الذهب القديمة . على ان الصحراء كانت فى حالة جمود يشبه الموت عندما بدأ أعضاء المساحة الجيولوجية الناشئة القيام بأعمالهم . ففى سنة ١٨٩٧ - ١٨٩٨ اثناء الطواف فى الصحراء الشرقية المصرية لمدة سبعة أشهر قابلت البعثة الجيولوجية عدداً قليلاً جداً من الأعراب يحملون ملحاً مهرباً . وكانت مدينة القصير فى حالة اضمحلال شديد يحكمها عدد من الموظفين الذين ابعدوا عن وادى النيل لأدماهم الخمر أو لعدم كفاءتهم . ولم يكن على خليج السويس والبحر الاحمر سوى ميناءين : - القصير - على الساحل المصرى - والطور - على ساحل شبه جزيرة سيناء . وكان ينذر أن تمر البواخر بميناء القصير ، وكانت ميناء الطور مسرحاً لعمل مضطرب فى فترتين قصيرتين من السنة بسبب الحجر الصحى على الحجاج القادمين من مصر والعائدين إليها .

أما اليوم فالفارق عظيم ، إذ يمكن للمسافر بالبحر الأحمر ، بعد مغادرته مدينة السويس بساعات قليلة ، أن يرسو عند « أبى زيمه ، وهناك يرى مستعمرة جديدة انشئت لاستخراج المنجنيز ، فاذا واصل السفر حتى بضعة كيلومترات شمالى الطور يرى « أبى دربه ، وفيها يجرى العمل لاستخراج زيت البترول ، أما الطور نفسها فلا تزال كما كانت مركزاً للحجر الصحى . وإذا عرج المسافر على الشاطئ المصرى فيلاحظ التقدم الصناعى الحديث عند ميناء الزيتية وكذا عند جمسه . وباستمرار السفر نحو الجنوب يمر المسافر بميناء بعد أخرى من مراكز العمل النشط . فالغردقة تنتج مئات آلاف الأطنان من زيت البترول سنوياً

وسفاجه ، بها مناجم الفوسفات ولها سكة حديدية تتوغل لمسافة تزيد على العشرين كيلو متر في قلب الصحراء . أما القصير فهي اليوم مدينة عامرة ترسو بها - كما هي الحال في سفاجه - البواخر الكبيرة لشحن الفوسفات ، وترتبط المناجم بالشاطئ . سكة حديدية يبلغ طولها سبعة كيلو مترات . وقد اكسبت صناعة تعدين الرصاص الحياة والانتعاش للواقع التي على امتداد الشاطئ . في أقصى الجنوب وهي التي كانت لمدة طويلة قفراً موحشاً . كيف حدث إذاً هذا التطور في مدة لا تتجاوز خمسة وثلاثين عاماً ؟؟ اننا نغزى هذا الى السياسة الرشيدة التي اتبعتها الحكومة المصرية من ناحية . ولما أبداه الموظفون والأفراد من الهمة والاخلاص من الناحية الأخرى . وسندكر باختصار المؤثرات التي سببت هذا الانتعاش .

ففي سنة ١٨٩٦ عين الكابتن ليونز (الآن الاميرالاي سير هنري ليونز) مديراً للمساحة الجيولوجية ، وفي وقت قصير استطاع أن يضع المساحة المصرية على أسسها الحالي . وكان الغرض من المساحة عمل خريطة عامة للملكة تكون على أعظم ما يمكن من الدقة ومبنية على نقط مثلثات غاية في الضبط . ولقد قام الدكتور جون بول بهذا العمل بهمة فائقة في الصحاري المصرية يساعده موظفو قسم مساحة الصحاري ، وأصبح الآن من الممكن تحديد مواقع أى استكشافات معدنية جديدة بدقة متناهية .

ولقد أصابت الحكومة المصرية في سياسة البحث العلمى بانشائها قسم المساحة الجيولوجية . والغرض من هذا القسم من الوجهة الاقتصادية هو البحث عن رواسب جديدة ذات قيمة اقتصادية ودرس العلاقات بين المعادن الموجودة وتعيين المعادن التي يجب البحث عنها من درس الأحجار المختلفة . وزيادة على ذلك يقوم هذا القسم تحت شراف زميلي أ . هـ . لتل بدرس جميع المسائل الجيولوجية المصرية بصرف النظر عن أى منفعة اقتصادية عاجلة .

وفي سنة ١٩٠٢ أنشئت مصلحة المناجم لمعالجة وتحسين صناعة التعدين وكانت قد بدأت فعلاً بتقديم سريع . وكان أول مدير لها ذلك الرجل القدير جون ويلز الذي أثار اهتماماً عظيماً باكتشاف منجم أم جاريات في صحراء مصر الجنوبية الشرقية به كمية عظيمة من الذهب ، وبدأ بإعادة بحث المعادن القيمة التي سبق استغلالها في الماضي ، وشجع الشركات للبحث عن زيت البترول بفحص الطبقات الحاملة له على سواحل البحر الأحمر .

والغرض الذى من أجله انشئت مصلحة المناجم هو دراسة جميع منتجات القطر المصرى ذات الفائدة الاقتصادية والعمل على ارتقاها، وكذا تحديد العلاقات بين الحكومة المصرية والشركات التى تعمل على استغلال المعادن . وبعد ان ترك المستر ويلز خدمة الحكومة المصرية تولى ادارتها لمدة تربو على العشرين عاماً مستر ر. ه جريفز والمراقب الحالى لمصلحة المناجم هو زميلى القديم الدكتور حسن صادق بك الذى لا يزال يعمل على تقدم ادارتها بهمة ونجاح عظيمين

وكان تقرير التعليم الجيولوجى فى مصر خطوة أخرى من خطوات التقدم فى سياسة الحكومة المصرية . ويرجع الفضل فى ذلك الى السير وليم جارستن الذى قام بقسط كبير فى انهاض الرى وأعمال الصحراء مما تستحق تقدير المصريين . ومن دواعى غبطتى أتى كنت أول مدرس انتخب لتدريس الجيولوجيا بمدرسة الهندسة بالجيزة . وقد هيات لى هذه الفرصة التعرف على عدد كبير من الشبان المصريين يقومون الآن بخدمات جليلة لوطنهم فى مختلف الأعمال

وعندما يتم اكتشاف معدن يبدأ التساؤل عن امكان استغلاله من الوجهة التجارية . وهذا عمل يحتاج الى رأس مال ومخاطرات من جانب الحكومة أو الشركات أو الأفراد . ولقد لعب الرأسماليون دوراً هاماً فى انهاض مصادر المعادن فى الصحراء ، ويقوم بعضهم بمختلف الأبحاث (كالمساحة والدراسة العلمية الاقتصادية) كما هى الحال فى الحكومات المستنيرة المتقدمة . ولقد يكفى الدور الذى لعبه الأفراد لانعاش صناعة التعدين بمصر لتحرير فصل شائق فى تاريخ الصحراء لولا ان معظم المادة اللازمة لكتابة هذا الفصل منطوية فى السجلات السرية للأفراد أو الشركات التى قدمت المال اللازم للبحث والاستكشاف . ولنعد الآن الى بحث المعادن فنقول : —

الذهب : للذهب الاعتبار الأول لجماله الحقيقى وقيمه — وتاريخ وجوده واستغلاله فى مصر شيق للغاية . فأن أقدم خريطة عرفت للآن هى التى وجدها « دروفيتى » فى طيبة وبها اشارات عديدة مكتوبة بالهيروجليفى تدل على وجود الذهب فى الصحراء الشرقية المصرية . وتحتوى هذه الخريطة على رسم لوحة منقوشة للملك سىتى الأول العظيم مما يدل على أنها ترجع الى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ومن النقوش الموجودة على حيطان معبد الرديسية ، الواقع فى الوادى الصحراوى الذى ينساب فى وادى النيل عند أدفو ، نعرف أن

الملك سیتی الأول قد زار بعض مناجم الذهب التي استغلت في الصحراء الشرقية . وتدل النقوش المرسومة عل حائط معبد مدينة هابو على وجود الذهب بمصر في عهد رمسيس الثالث . وهذه النقوش عبارة عن مجموعة من الآواني والأوعية كتب على معظمها أنها من الذهب وكذا اسم الموقع الذي أخذ منه هذا المعدن . وهذه الاسماء المصرية القديمة تشمل بعض البلاد المصرية المعروفة مثل « قفط » .

واعتماداً على الخرائط المصرية القديمة والمخطوطات قد أعيد زيارة المناجم القديمة المختلفة ، وفي أغلب الأحوال أعيد افتتاحها في السنين الأخيرة . وتقع هذه المناجم في المنطقة الجبلية بين وادى النيل والبحر الأحمر . ولقد تتبع المصريون القدماء عروق المرو (الكوارتز) الحاملة للذهب لأبعد حد ممكن . وكانوا يسحقون المرو في مصاحن من حجر الديوريت الصلب ويفصلون مسحوق المرو عن الذهب بغسله على الواح مائلة . وكان يقوم بهذا العمل الشاق المسجونون وقد شرح حالتهم التعسة بوضوح تام كاتب قدير قديم

وتبين المعروضات الجميلة الموجودة في غرفة المجوهرات بالمتحف المصرى بالقاهرة الأغراض التي استعمل فيها الذهب بعد استخراجها من المناجم . وأحد هذه المعروضات سكين من الصوان له يد من الذهب ويرجع عهده الى ما قبل الأسر الملكية القديمة . وهذه أقدم أداة للزينة من الذهب فى مصر ومن أقدم ، ان لم تكن أقدم ، شئ من الذهب عرف للآن . وهناك أساور من الذهب المرصعة بالفيروز والجشمت يرجع عهدها الى الأسرة الملكية الأولى . وفي مقابر الملكة « هتيفريس » ، والددة باني الهرم الأكبر ، وجدت أدوات منتقاة من الذهب الخالص ، فهناك رأس صقر من الذهب المطروق له عينان من الزجاج الطبيعي الذي لم يوجد حتى الآن فى مصر ويغلب أنه استحضر من ارمينيا على أنه يوجد أيضاً فى بلاد الحبشة .

وبالقرب من اهرام دهشور وجدت كنوز الأميرة « خونوموت » وهى من الأسرة الثانية عشرة ودفت هناك . وهذه الكنوز تحتوى على نماذج جميلة على شكل الفراش والأسماك النجمية والقواقع وكلها مصنوعة من الذهب المحبب مما يدل على المهارة الفائقة التي وصل اليها الصانع المصرى القديم . ومن العصر نفسه توجد صورة لتاج من الذهب تعلوه أفعى ومرصع بالعقيق واللازورد والفيروز . وهناك معروضات أخرى

لبعض الأدوات الذهبية النادرة التي وجدت بمقبرة توت عنخ أمون بطيبة (الأسرة الثامنة عشرة) وأخرى للملكة من الأسرة التاسعة عشرة .

وفي خلال الثلاثين سنة الماضية كانت الأدوار التي مر بها تعدين الذهب في مصر متقلبة جداً . فقد أثار الاهتمام ذلك الاكتشاف العظيم للذهب بأمر جاريات واتجهت المجهودات لإعادة فتح المناجم القديمة واكتشاف أخرى جديدة . ومن مناجم الذهب المعروفة منجم البرامية وعطائه وأمر جاريات وقد زادت قيمة الذهب الذي استخرج من منجم البرامية على ما صرف لتحسين المنجم .

ولا يستخرج الذهب الآن ، ولكن بلغ ما استخرج منه في سنة ١٩٠٧ - خمسة آلاف أوقية وفي سنة ١٩١٥ عشرة آلاف أوقية . وبلغت قيمة كل ما استخرج من الذهب منذ سنة ١٩٠٠ - ٣٠.٠٠٠.٠٠٠ جنيهاً مصرياً

ويوجد الذهب في حالة خاصة . ففي عروق المرو (الكوارتز) يكثر الذهب قرب سطح الأرض ويقل بزيادة العمق وهذه حالة من حالات التركيز قرب سطح الأرض بتأثير عوامل كيميائية وطبيعية خاصة . وهذه حقيقة لا تسر من وجهة نظرنا الآن - لأن قدماء المصريين وجدوا ذهباً مرزاً قرب سطح الأرض وفي متناول أيديهم ولقد تتبعوه في حالات عديدة لأعماق تزيد عن ٣٠٠ قدماً (١٠٠ متراً) تحت سطح الأرض . وهذا مما دعى أن تجرى الأعمال الحديثة أسفل هذا العمق الذي وصل اليه القدماء وكانت نتائجها غير مرضية . وربما وجدت أحجار تحتوى على الذهب تحت غطاء من الحجر الرملي كما وجد المصريون القدماء . ولكن ليس من السهل الجزم بصحة هذه النظرية . وبما أنه يغلب وجود الذهب في مصر مع أحجار الجرانيت القاعدية وأحجار الديوريت فيجب أن نلاحظ بعناية الأماكن التي توجد بها هذه الأحجار والحجر الرملي جنباً إلى جنب . ولقد تمتعت أن يتحقق هذا الاكتشاف في أيام حياتي غير إنى أخشى أن لا يتحقق أمني

الفضة : لم يكن تعدين الفضة بمصر ذات أهمية في يوم من الأيام ومع ذلك فإن أكثر الذهب المستخرج من هذه البلاد يحتوى على جزء كبير من الفضة مرتبطة به ارتباطاً متيناً . وقد أطلق « بليني » اسم الكترولوم على الذهب الذى يحتوى على ٢٠ ٪ من الفضة . وتحتوى خمسة مناجم هامة في مصر على هذا النوع من الذهب . ولم يعرف إلى الآن إذا كان قدماء المصريين قد توصلوا إلى معرفة استخلاص الفضة من مركباتها

ولو أن الفضة استعملت فعلا - ولو قليلا - في عهد الأسر المصرية القديمة ويحتمل أن معظم هذه الفضة استورد في هذا الوقت من الممالك الخارجية وبخاصة آسيا الصغرى . ولم يكثر استعمال أدوات الزينة الفضية في مصر الا في عهد البطالسة فقط وزاد استعمال الفضة عن الذهب عندما تأثرت مصر بالحضارة الاغريقية

النحاس : قد لعب هذا المعدن دوراً هاماً في تاريخ مصر وبه استطاعت أن تكون أولى الأمم القوية . وقد بلغ « عصر النحاس » حد ارتقائه في هذا القطر في عهد الأسرة السادسة . ولقد بحث وعثر قدماء المصريين على خامات النحاس في الأماكن النائية جداً . فقد وجدت آثار أعمالهم في شرق وغرب شبه جزيرة سيناء وكذلك في قلب المنطقة الجبلية بالصحراء الشرقية المصرية وكان يحشم عن كربونات النحاس (ملاكيت) الخضراء وسليكات النحاس (كريسوكولا) الزرقاء . وتوجد منطقة تعدين عند سفح جبل أبو حمamid أعيد فيها فحص خامات النحاس حديثاً .

والموقف الحالي لا يشجع على تقدم تعدين النحاس في هذا القطر لوجود كميات عظيمة جداً من خامات النحاس في أسبانيا والولايات المتحدة وغيرها قريبة من طرق الملاحة العالمية الهامة . وتدرس المصالح الحكومية المختصة باستمرار احتمال الانتفاع بهذا المعدن والمعادن الأخرى . ويوجد في منطقة جبل أبو حمamid ارتباط بين الكالكوبيريت (كبريتور النحاس والحديد) وبين كبريتور الزنك . وتتحول هذه الى خامات النحاس الخضراء التي كان يبحث عنها المصريون القدماء

خامات الحديد : قد دلت دراسة الصحارى المصرية في السنين الأخيرة على أن خامات الحديد ليست نادرة في المناطق الصحراوية وانها توجد في بعض المواقع التي ينتشر فيها الحجر الرملي النوبي . وفي الجزء الشمالى من الواحة البحرية وجدت مساحات عظيمة من خام حديد جيد

ودلت أعمال الاستكشاف التي قام بها ليب افندى نسيم في الصحراء شرق اسوان على انتشار خام الحديد المحبب في تلك المنطقة وقد سررت لمعاينتها مع زميل الدكتور صادق منذ أسابيع قليلة . ويستعمل نسيم افندى هذه الخامات الآن في صناعة الالوان . وتدرس الآن طرق الانتفاع بهذه الخامات ، وقد استخرج منها ما زنته ٨٣٠ طناً في العام الماضى و ١٠٠٠ طناً في العام السابق له

المنجنيز : يعتبر تعدين خامات المنجنيز حديثاً بالنسبة لمصر . وكان أول من لفت النظر الى وجودها في غرب شبه جزيرة سيناء هو المرحوم المستر بارون أحد أعضاء المساحة الجيولوجية المصرية عند بحثه الجيولوجي لتلك المنطقة في عام ١٨٩٨ - ١٨٩٩ وكان مستر بلانتر وآخرون أول من درس هذه الخامات من الوجهة الاقتصادية وانتهى الأمر بتكوين شركة برأس مال انجليزي والمالي . وافتتح منجم أم بوجما وأقيم سلك معلق يبلغ طوله عشرة كيلو مترات ويمتد فوق وديان عميقة متسعة . وينقل الخام المستخرج وهو مخلوط من خامات الحديد والمنجنيز بواسطة هذا السلك الى حافة الجبل ومن هناك ينقل بواسطة سكة حديد يبلغ طولها نحو سبعة كيلو مترات مخترقة سهل « مرخا » وتنتهى عند ميناء ابوزنيمه

وفي سنة ١٩١٨ بلغ ما استخرج من خام المنجنيز ٢٧٠٠٠ طناً وزاد في سنة ١٩٢٩ الى ما لا يقل عن ١٩١٠٠٠ طن . وكان في العام الماضى ١٠١٠٠٠ طن ولكن طرأت بعد ذلك ظروف عديدة أوقفت حركة تعدين المنجنيز وبيعته . ويبلغ المخزون منه الآن نحواً من ٣٠٠٠٠٠ طن وهذه لا يمكن شحنها وتصديرها لأسباب سيئة أولها أن خامات المنجنيز الغنية لا يمكن استغلالها بفائدة نظراً لمنافسة روسيا الشيوعية بتوريدها خامات من أعلى درجة تستخرجها من القوقاز . وثانيها أن الضريبة الجمركية التى فرضتها الولايات المتحدة قد أثرت كثيراً على الخامات التى من الدرجة الثانية فقد كانت خامات الحديد التى تحتوى على نسبة تساوى ٣٠ ٪ من اكسيد المنجنيز يصرح بدخولها الولايات المتحدة خالية من الرسوم الجمركية أما الآن فهذه النسبة يجب ألا تزيد عن ١٠ ٪ ونظراً لهذه الظروف ولقداحة الضريبة على الشحنات التى تمر بقنال السويس فلا يمكن لخامات الدرجة الثانية أن تنافس غيرها بنجاح فى الأسواق الحرة . ومع هذا فإن خام المنجنيز هو أحد المعادن التى تكون الثروة المعدنية فى مصر وهو فى هذه الحال ينتظر الوقت الملائم ليصبح مصدر كسب للبلاد ولمن يشتغل بتعدينه

الرصاص : لقد نشطت حركة البحث عن خامات الرصاص مدة الثلاثين سنة الماضية فى المنطقة الشاطئية للبحر الأحمر جنوب القصير وقد افتتحت هناك مناجم عديدة، ولو أن سوق الرصاص فى الوقت الحاضر ليس فى حالة انتعاش من الوجهة التجارية الا

أنه ينتظر أن يصبح أحد موارد الثروة المعدنية في مصر عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية . وتوجد خامات الزنك مع خامات الرصاص في المنطقة الواحدة

وقد استغل الرومان مناجم جبل الرصاص وأعيد العمل فيها بنجاح في السنين الأخيرة وهناك بعض المعادن التي لو وجدت بكميات وافرة لأمكن أن تكون ذات قيمة عظيمة . يطلق على بعض مجموعة أحجار اسم « الأحجار فوق القاعدية » ، وهذه في الممالك الأخرى يغلب أن تحتوى على معادن ذات قيمة اقتصادية أو تلازمها معادن مثل خام الحديد المحتوى على الكروميوم وبعض مركبات النيكل وقد وجد هذان المعدنان في الأحجار فوق القاعدية المصرية التي تنتشر انتشاراً عظيماً في الصحارى الجنوبية الشرقية . وفي جزيرة القديس يوحنا (جزيرة الزبرجد) قرب رأس بناس يوجد « الجارنيريت » وهو خام أخضر للنيكل في أحد العروق ، واستخرج من هذا المعدن نحو من ٨٠ طناً . وفي ثانياً الأحجار فوق القاعدية بالجزيرة نفسها توجد بلورات الزبرجد التي تجمع بين جمال الشكل واللون الأخضر الرقيق وهذا الحجر الكريم غير مطلوب في الوقت الحاضر وتوجد كميات كبيرة من هذه البلورات لم يمكن بيعها بعد .

و « البريل » هو أحد المعادن الذى بحث عنه كثيراً في الزمن الماضى . والنوع الشفاف الأخضر الصافى منه هو الزمرد . ويوجد هذا الحجر الكريم في منطقة سيكيت بالصحراء الشرقية على مقربة من شبه جزيرة رأس بناس ويغلب أن يكون الزمرد في المرو (الكوارتز) داخل السيشت الميكائى وقديماً استخرجت كميات عظيمة من هذا السيشت ويشاع عن بعض المؤلفات العربية أن أحجاراً جميلة جداً من الزمرد كبيرة الحجم قد وجدت ولكن معظم المجهودات الحديثة التي بذلت للحصول على نوع جيد من الزمرد لم تصادف نجاحاً حتى الآن

ولقد تناول بحثنا حتى الآن المعادن التي تلازم الأحجار النارية القديمة أو الأحجار الراقية المتحولة . الا أنه يوجد نوعان من الرواسب تكون جزءاً من تكاوين راسية منتشرة جداً وهما الآن من موارد الثروة في البلاد ويحتوى الأول على فوسفات الجير أما الثانى فهو مصدر زيت البترول الخام — وتعتبر الفوسفات وزيت البترول من أهم منتجات الصحراء المصرية .

الفوسفات : لم يكن وجود الفوسفات معروفاً في مصر عند انشاء قسم المساحة الجيولوجية في سنة ١٨٩٦ وفي نفس السنة أثبت المستر بارون وجود صخر الفوسفات بجبل قرن قرب جبل قفط . وفي السنة التالية عندما كنت والمستر بارون ندرس المنطقة بين قنا والقصر من الوجهة الجيولوجية تبين لنا أن صخر الفوسفات يوجد في طبقات سميكه كثيرة الأمتداد كما وجدنا به كذلك حفرة خاصة بالعصر الكريتلى وبذلك تحدد موقع الفوسفات في السلسلة الجيولوجية وبهذا الدليل تمكنت البعثات الجيولوجية في عام واحد من تعقب الفوسفات في طبقات قرب القصر وفي الواحة الداخلة أيضاً وأمكننا الارشاد بأن البحث عن الفوسفات يجب أن يبدأ من الوجه القبلي قرب المحاميد . وقد نتج عن ذلك اكتشاف فوسفات عظيمة الأهمية عند السباعية جنوبي اسنا . وتحتوي الفوسفات الموجودة عند سطح الأرض على ما يقل عن ٥٠ ٪ من فوسفات الكلسيوم وقد أرسل مستر أندرو كروكستون الذى يهتم بالفوسفات الموجودة في شمال افريقيا من الوجهة المالية مستر ت . جريفرز ليدرس هذه الرواسب دراسة تفصيلية . وقد وجد الأخير أن الفوسفات السطحية الرديئة تخفى تحتها فوسفات منوعة وجيدة فكان ذلك سبباً في استغلال عظم للفوسفات في منطقة ميناؤها سفاجه وعقب ذلك افتتح مناجم الفوسفات عند جبال ديوى وجبل نخيل بالقرب من القصر ومناجم أخرى في وادى النيل مركزها السباعية جنوبي اسنا .

وقد ابتدئ باستخراج الفوسفات في سنة ١٩٠٨ وبلغ مجموع ما استخرج في ذلك العام ٧٠٠ طناً وزاد هذا المقدار في سنة ١٩٣٠ الى ما زنته ٣١٣٠٤٧٨ طناً وبالرغم من الصعوبات المالية الحالية فإن مجموع ما استخرج في سنة ١٩٣١ هو ٢٥٧٠٠١١ طناً

زيت البترول : كان زيت البترول معروفاً منذ عهد الرومان بجبل الزيت على خليج السويس وأطلق على هذه المنطقة اسم « مونز بترولوس » . وفي سنة ١٨٦٨ اهتم مجلس شركة تعدين فرنسية بأمر الاتفاح بالكبريت الموجود بحمسا وعلى بعد كيلو مترات قليلة جنوبي جبل الزيت . ولم يصادف تعدين الكبريت نجاحاً غير أنه عند فتح أحد السرايب تجمع زيت البترول الخام مكوناً بركة فيه . وفي سنة ١٨٨٠ بذلت الحكومة المصرية مجهوداً عظيماً بحفر الآبار التجريبية وذلك لانعاش استخراج زيت

البترول ولكن هذه المجهودات لم تصادف نجاحاً تاماً . وقد تقدم المستر جون ويلز في سنة ١٩٠٦ الى الشركات المختلفة التي تبحث عن زيت البترول لكي تعيد حفر الآبار في هذه المنطقة نفسها وفي أول بئر حفرت وجد زيت بترول خام خفيف وجيد وكان ذلك في سنة ١٩٠٨ . وحفرت بعد ذلك آبار عديدة كان النجاح نصيب أكثرها . وقد بلغ ما استخرج من زيت البترول في منطقة جمسا في العشرين سنة الأخيرة نحو ١٨٠٠٠٠٠ طناً . ولكن طغيان الماء على آبار الزيت أوقف استخراجه في هذه المنطقة .

وفي نفس الوقت كانت الحكومة المصرية تستخدم رجالها الفنيين في دراسة منطقة حقول البترول دراسة عميقة ووجه كل الاهتمام لمنطقة الغردقة . وكانت الشركات من جانبها تقوم بنفس المجهود ، حفرت شركة حقول البترول الانجليزية المصرية بناء على تقرير خيرين جيولوجيين من الألمان أول بئر في بقعة وجد فيها صخر يشتم منه رائحة زيت البترول . ووجد زيت البترول في البئر على بعد ١٢٠٠ قدماً من سطح الأرض . وبذلك اتعشت صناعة استخراج زيت البترول في مصر وتعد الآن من أهم الصناعات فيها . وانه لمن المدهش حقاً أن يستخرج ما يزيد عن ١٠٠٠٠٠٠ طن من زيت البترول سنوياً منذ سنة ١٩١٧ من منطقة صغيرة جداً تظهر لأول وهلة بأنها صحراء قاحلة . وكان أعظم انتاج في سنة ١٩٣١ اذ استخرج نحو ٢٨٩٠٤١٩ طناً من زيت البترول

وبذلك أصبحت الفوسفات وزيت البترول في السنين القلائل الأخيرة أعظم موارد للثروة في هذه البلاد وقد كانا غير معروفين للمصريين القدماء .

أهمجار الرزفرفة والبناء : يوجد بالقطر المصري مختلف أحجار الرزفرفة استعمالها قدماء المصريين والرومان بكثرة نذكر من بينها : —

١ — **سُمِيت الحمّامات الأخضر :** يختلف لون هذا الشبيست الدقيق التبلور من الأخضر الى الاسود وهو يوجد على الطريق بين قنا والقصير . وقد استغله قدماء المصريين بكثرة ابتداء من الاسرة الرابعة الى الاسرة الثالثة عشرة . ويوجد بالمتحف المصري عدد كبير جداً من التماثيل وخلافها مصنوعة من هذا الحجر الذي عرف قديماً باسم « بنجن » . ويوجد في نفس الموقع بریش مكون من أنواع مختلفة من الصخور الملونة

(مثل الجرانيت والشيست الأخضر وخلافها) وكانت معروفاً للبصريين القدماء في العصور المتوسطة باسم البريش الأخضر . ومن المحتمل أن يستعمل هذا الحجر ثانية يوم من الأيام قريباً كان أو بعيداً نظراً لمئاته وجمال منظره .

٢ - **الحجر السماوي الإمبراطوري** : قدر الأباطرة الرومان مثل « كلوديوس » و « هارديان » وغيرهما هذا الصخر حق قدره وهو أحمر أو أرجواني اللون منتشرة به بلورات بيضاء . والموقع الوحيد الذي يوجد به هو جبل الدخان في الصحارى المصرية الشمالية . وفي كل المتاحف العظيمة توجد تماثيل مصنوعة من هذا الصخر وصنع منه أيضاً عمود القسطنطينية ذو الشهرة العالمية . وهذا الحجر يلفت النظر لأول وهلة وحديثاً طلبت سيدة انجليزية إلى مصلحة المناجم أن تستحضر لها قطعة منه لعمل نصب تذكاري لزوجها الذي فقدته وربما كانت هذه أول مرة يفتح فيها هذا الحجر ثانية منذ عهد الرومان .

٣ - **صرايبت اسوان الأصغر المستعمل للتماثيل** : أصبح لهذا الصخر شهرة عالمية لكثرة استعمال قدماء المصريين له في تماثيلهم واهراماتهم ومعابدهم . وتكون نماذج جيدة منه الغطاء الخارجى لقاعدة الهرم الثالث . ويقتلع منه الآن كميات عظيمة لاستعمالها في تغطية خزان اسوان .

٤ - **الرخام** : يوجد نوع جيد من الرخام في وادى ميا بالصحراء الشرقية وعلى بعد ١٢٠ كيلو متراً شمال شرقى ادفو . وقد اقتلع بعضه في الماضى ولوان موقعه كان أقرب الى وادى النيل من موقعه الآن لكان من المحقق استعماله بكثرة في القطر المصرى كحجر للزخرفة .

٥ - **الألباستر المصرى** : أو المرمر المصرى وهو حجر زخرقة له شهرة عالمية اكتسبها من كثرة استعمال المصريين القدماء له في صنع الأوانى وخلافها . ويتكون هذا الصخر تدريجياً في فجوات في جوف الأرض بالرسوب من مياه مذاب بها كربونات الكلسيوم كما هو الحال في « الاستلاكتيت » . وأحسن المواقع التى يوجد بها الصخر

جنوب شرقى بنى سويف وشرق اسيوط . وقد اقتلع بعضه شرقى تل العمارنة . والآخر لم يحدد موقعه بالضبط ولم تدرس خواصه بعد .

ويمر المسافر بالنيل من وادى حلفا الى القاهرة بمرا كز نشاط صناعى نشأت من استغلال سكان وادى النيل لل مواد الموجودة بالصحراء وأهمها ما يأتى : -

٦ - الطين : وهو يستعمل فى صناعة مختلف أنواع الخزف . ففى دمهيت جنوبى اسوان يصنع الخزف الاحمر والاسود المنقوش والذى يعيد الى ذاكرتنا صناعة المصريين قبل عهد الأسر . وقد سبق أن أشرنا الى جرانيت اسوان وصناعته . ويستخرج بكثرة من التلال قرب شمالى اسوان الطين الملون وهو نوع جيد جداً ويستعمل فى صناعة الأدوات المختلفة التى تحتاج الى الصلابة وطول البقاء .

وفى بين المحاميد وقنا يتحول الطين الى طفل وهذا يحتوى على نسبة طيبة من كربونات الجير ويستعمل فى صنع الأواني المسامية « كالبلاص » المشهور استعماله فى مصر لحزن وترطيب المياه . وتعتمد صناعة الآجر (الطوب) على رواسب الطين النهرية فى وادى النيل . وهذه المواد يحملها النيل الى مصر من اعلى الحبشة وهى ليست من منتجات الصحارى المجاورة

٧ - التترات . يشاهد المسافر القوى الملاحظه الذى يتطلع من القطار ويتابع حافة الصحراء بين ادفو واسنا جمالا وحميراً تهبط من التلال الواقعة شرقى السكة الحديدية تحمل « الطفلة » وهى عبارة عن طفل أو طين يحتوى على التترات وتغطى به الحقول كسماد ولكن نسبة التترات لسوء الحظ حوالى ٥ ٪ . ويخالطها كثير من ملح الطعام والآخر عنصر ضار للسماد . ولو وجد الطن محتوياً على تترات بنسبة اعلى لكان من اهم منتجات الصحارى التى تحف بالنيل نظراً لتأثيره فى خصوبة الأراضى الزراعية .

٨ - مجامع البهاء : استعملت احجار الصحراء منذ عصر الاسرة الثالثة فى المباني التى تتطلب الصلابة وطول البقاء فقد استعمل الحجر الرملى الموجود بين وادى حلفا واسنا فى بعض المعابد المصرية الهامة ولا تزال محاجر قدماء المصريين موجودة بقرب

السلسلة . اما الأحجار الجيرية التى تمتد على حافة الصحراء من الأقصر الى القاهرة فقد اقلعت باستمرار تقريباً منذ العصور التاريخية القديمة . وتدين مقابر الملوك بوجودها لحجر جبرى ابيض دقيق يسهل اختراقه وتلوينه . وقد بنيت قناطر أسبوط ومنشآت اخرى حديثة وهامة من حجر جبرى مسامى المنظر ولكنه فى الحقيقة متماسك ويوجد بالقرب من العيساوية بالوجه القبلى . وتخرج المحاجر التى بين حلوان وشرق القاهرة انواعاً عديدة من الحجر الجبرى تختلف اختلافاً عظيماً فى كيفية تركيب اجزائها . فمنها ما يستعمل لحرق الجبر ومنها ما يستعمل « بلاط » . وتقتلع كل احجار البناء اللازمة لمبانى القاهرة من الأماكن المجاورة

وتستعمل الاسكندرية حجر المكس الجبرى وهو نوع غير جيد . بينما توجد محاجر هامة للحجر الجبرى عند جبل عتاقه قرب السويس وعند جبل فريد بين السويس والاسماعيلية

٩ - الرمال : اصبح للرمال اهمية خاصة فى السنين الأخيرة نظراً لكثرة استعمالها فى الانشاءات المختلفة وفى صناعة القراميد وخلافها وظلت القاهرة مدة طويلة وموارد الرمال الجيدة موجودة على ابوابها فى العباسية والجبل الأحمر الآن هذه نفذت اخيراً . وتوجد موارد أخرى للرمال على حافة الصحراء الغربية قرب الاهرامات . والمسألة التى تشغل مصلحة المناجم وقسم المساحة الجيولوجية فى الوقت الحاضر هى الحصول على نوع جيد من الرمال يكون على مسافات قريبة من المدن التى تستعمله . ويدور البحث الآن على الرمال البيضاء لاستعمالها فى صناعة الزجاج وتدل الدلائل على ان هذه المجهودات ستكلل بالنجاح .

١٠ - مجمر الجبل الأحمر الرملى : يستعمل هذا الصخر السيليسى بنوع خاص فى بناء الأساسات ويقتلع من الجبل الأحمر فى شمال شرق القاهرة . ومن المناطق المجاورة يستخرج الرمل الأحمر لتفرش به الطرقات ويستعمل فى أغراض أخرى

١١ - بازلت ابى زعبل : يختلف لون هذا الصخر الصلب المتماسك من الأزرق

القائم الى الاسود ويستعمل في رصف شوارع القاهرة والاسكندرية . وسنحتاج قريباً لموارد أخرى للبازلت خصوصاً وأن ما يقتلع منه في المناطق المجاورة غير جيد وعليه يلزم إعادة البحث في الصحراء عن موارد تكفى لسد النقص الذي سنشعر به في القريب العاجل

١٢ - الجبس هو : أحد المنتجات الهامة جداً لاستعماله أما في إصلاح الأراضي الزراعية عديمة النفع لاحتوائها على كربونات الصودا أو في صناعة المصيص الذي يكثر استعماله في مصر . ولقد استغلت ولا تزال تستغل رواسب الجبس الموجودة قرب سطح الأرض في التلال الصحراوية جنوب شرق حلوان وفي الغربانيات في منطقة مريوط وفي البلاح بين الاسماعيلية وبورسعيد . والرواسب في الموقع الأخير لها علاقة بامتداد بحيرة المنزلة

١٣ - النطرون : أحد المنتجات الهامة التي تستعمل في صناعة الصابون والزجاج وله فوائد أخرى ويستخرج من البحيرات القليلة الغور بمديرية البحيرة ومن منطقة وادى النطرون الشهيرة

١٤ - ملح الطعام : يوجد بكثرة ويستخرج بواسطة التبخير في مناطق البحيرات شمالى الدلتا ونذكر على سبيل المثال المكس قرب الاسكندرية وضواحي بورسعيد ويقل في الاهمية عما سبق المواد الآتية :-

الطون : استخرج في الماضي من جبل عمرو ويعد بضعة كيلو مترات شرقى اسوان ولا يزال يوجد بكميات كثيرة في تلال الصحراء الشرقية المصرية

مجمر السب : استخرج من وقت لآخر من الواحات وبخاصة الواحة الخارجة

سلفات المغنيسيوم (الملح الانجليزى) : يوجد هذا أيضاً في الواحات . وقد أثار الاهتمام في السنين الأخيرة وجود رمال على شاطئ البحر قرب الاسكندرية

وهذه تحتوى على الماجنتيت (اكسيد الحديد الممغطس) واكسيد حديد آخر يحتوى على التيتانيوم .

ولعلى ذكرت ما فيه الكفاية لايين الى أى حد يتوقف كيان مصر وتقدمها على المواد التى تستخرج من المناطق المقفرة التى تحيط بنهرها العظيم وواهب حياتها . وليس فى هذه المملكة المترامية الأطراف منطقة واحدة لا تعود على سكانها بفائدة ما . وتستظل الزراعة حياة مصر وقوامها كما تبقى الصحراء المحيطة بها مورداً لما يزيد فى رفاهيتها وسعادتها





الدكتور عبد الحكيم الرفاعي
مدرس الاقتصاد السياسي بكلية الحقوق

تجارة وصناعة مصر الحديثة

لحضرة الدكتور عبد الحكيم الرفاعي

(مدرس الاقتصاد السياسي بكلية الحقوق)

تمهيد

١. — الأمة — كما بينه الكاتب الفرنسي الشهير لبلای Le Play — نتيجة اشتراك ثلاثة عناصر : المكان ، والعمل ، والسكان . فالمكان ، أو البيئة الطبيعية ، له أثره في حياة الأمم ، لأن الحالة الاقتصادية في أية أمة تتوقف على مناخها ، ودرجة خصوبة أرضها ، ومقدار غنى طبقاتها الأرضية بالمناجم وموقعها الجغرافي ، والقوى التي تساعد الإنسان على عمله ، ومن هذا يتبين مقدار صلاحيتها لأنواع النشاط الاقتصادي المختلفة . كذلك عمل الإنسان وكيفية استفادته من الثروات الطبيعية لا يقل أهمية عن العامل الأول ، فيقوم باستغلال الأرض ، واستخراج الثروات الكامنة في الطبقات الأرضية ، ويسخر القوى الطبيعية لخدمته . أما عن العنصر الثالث ، وهو السكان ، فيلاحظ أن كل شعب له ميزات خاصة وصفات كامنة ، هي مجموعة الصفات الفردية لأبناء الأمة ، وهي التي توجهها في النهاية إلى المركز الاقتصادي الجدير بها ، إذ يعتمد السكان إلى التأثير في الظروف الطبيعية حتى تصبح ملائمة لأطباعهم .

٢. — وإن الباحث في تطور الحالة الاقتصادية في الأمم يلاحظ أن الشعوب تمر بعدة مراحل ، ففي المرحلة الأولى نجد الناس في حالة الهمجية ، وفي المرحلة الثانية ، نجدهم في حالة الرعي ، ثم يتلوها طور الزراعة . ومتى بلغوا درجة كبيرة من الحضارة ينتقلون إلى دور آخر هو دور الصناعة . وقد بين أحد الكتاب الألمان List أن الأمة لا تصبح

أمة عادية الا اذا كانت زراعية وصناعية وتجارية في آن واحد . فالى بلوغ هذه المرحلة يجب أن توجه الأمم جهودها. (١)

٣ . — هذه المبادئ العامة ، اذا طبقناها على حالة مصر ، اتضح لنا أن البيئة الطبيعية كان لها أكبر أثر في حالتها الاقتصادية . فاعتدال مناخها ، وخصوبة ارضها ، وانتظام مياه الري فيها ، جعل منها أمة زراعية ، معظم اعتمادها على ما تنتجه الأرض ، كما أن موقعها الجغرافي بين الشرق والغرب جعل منها مركزاً تجارياً مهماً . كذلك من يتصفح تاريخ مصر يمكنه أن يلاحظ العلاقة الوثيقة بين درجة انتشار الصناعة فيها ، ومقدار حضارتها . ففي وقت ازدهار المدينة ، كنت ترى الصناعة بالغة شأواً بعيداً . وفي أوقات الانحطاط كان يعتورها الكساد .

وسأحاول أن أبين في ما يلي تطور تجارة مصر الخارجية وصناعاتها ، وحالتها في الوقت الحاضر ، ووسائل انهائها ومستقبلها .

١.

تجارة مصر الخارجية (٢)

٤ . — كانت مصر ، منذ العصور القديمة ، نظراً لموقعها الجغرافي : مركزاً للتجارة الدولية . وكانت الاسكندرية في عهد اليونان والرومان مستودعاً للبضائع التي ترسل بين الغرب والشرق . وفي عهد البطالسة نشطت الحركة الاقتصادية في مصر . وكانت تصدر للخارج منسوجاتها الدقيقة ، وأوراق البردى على أن أهم سلعة كانت تصدرها هي القمح . وقد ما كانت تصدره منه في ذلك الوقت الى روما بما يقرب من مليوني هكتولتر .

(١) راجع كتاب فردريك لست في النظام القومي للاقتصاد السياسي (الترجمة الفرنسية)

F. List : Système national d'économie politique.

(٢) أهم المراجع : تقرير لجنة التجارة والصناعة ، المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٥ .
أرمنجون : حالة مصر الاقتصادية والمالية (بالفرنسية) باريس سنة ١٩١١ . — كريج :
تجارة مصر الخارجية ، ملحق المانستر جارديان الخاص بمصر في أول مارس سنة ١٩٣١ . —
تريمن : تجارة بريطانيا مع مصر ، ملحق الفاينانشيال نيوز الخاص بمصر في ٢٥ يناير سنة ١٩٣٢ ،
عبد الحكيم الرفاعي : تأثير الازمات النقدية الانجليزية في النظام النقدي المصري . مجلة القا
والاقتصاد ، السنة الاولى ، العدد الخامس ، نوفمبر سنة ١٩٣١ ص ٧٦٦ — ٨٤٦ . —
الدكتور ليفي : تجارة مصر الخارجية ، مجلة مصر المعاصرة سنة ١٩١٩ .

وقد احتفظت مصر بمكاتها في عهد الاسلام ، الى أن جاء المالك ، فندهرت في أيامهم الدولة المصرية ، وتدهورت أيضاً تجارتها . وظل الأمر على ذلك في عهد الترك . ولما جاء نابليون الى مصر ، لاحظ العلماء الملازمون للحملة الفرنسية ما طراً على تجارة مصر الخارجية من الانحطاط ، وما نتج عن ذلك من نقص ايراد الجمارك . وعلى العموم يمكن القول أن مصر وصلت في عهد الترك ، بسبب المظالم واستبداد الحكام الى الدرك الأسفل من التأخر وارتبكت حالتها الاقتصادية والمالية .

٥ . - ولما ولي محمد علي باشا حكم مصر ، عمل على انقاذها من الفوضى ، وعنى بترقية الزراعة ، ووسع نطاق زراعة القطن والقصب ، وعمل على نشر الصناعة ، فزادت تجارتها الخارجية ، فبعد أن كان مجموعها ، في اوائل عهده ، من صادرات وواردات يقدر بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات ، تجاوزت قيمة التجارة في أواخر عهده ١٢٢ مليون فرنك : منها ٦٧ مليوناً للصادرات و ٥٥ مليون للواردات . وقد نشطت تجارة مصر بعد ذلك وبلغت أقصى حد لها في سنة ١٩٢٠ إذ بلغت ٢٠٢٠٧١١٠٧٩٢ من الجنيهات المصرية .

٦ . - وإذا حللنا الاحصائيات الخاصة بالتجارة الخارجية ، نجد أن مصر — نظراً لاعتمادها على محصول واحد هو القطن — تتأثر صادراتها و وارداتها بثمر القطن وكمية محصوله . لأن نحو ٨٥ ٪ من تجارة الصادرات تتكون من القطن وبذرة القطن . وفي السنوات التي يرتفع فيها ثمن القطن ، تزيد قوة شراء الأهلالي ، ويستوردون مقادير كبيرة من السلع . وفي السنوات التي ينخفض فيها ثمنه ، تضعف قوة شراء الأهلالي . وتقل الواردات تبعاً لذلك . وهذا ما حصل بالفعل في سنة ١٩٣١ إذ انخفضت قيمة تجارة مصر الى مستوى ما كانت عليه في سنة ١٩١٣ (١) .

٧ . - على أن المتأمل في الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية ليندهش حيناً يرى أن مصر ، وهي بلد زراعية ، تستورد من الخارج كميات كبيرة من المحصولات الزراعية . واليك بيان أهم ما استوردته مصر في السنوات الأخيرة مقدراً بالجنيهات المصرية :

(١) بلغ مجموع الصادرات والواردات في سنة ١٩٣١ : ٦٠٠١٩٢٠٠٠٠ جنيه وهذا الرقم يقترب من قيمة تجارة مصر في سنة ١٩١٣ إذ بلغت ٦٠٠١٠٥٠٠٠٠ جنيه .

١٩٣١	١٩٣٠	١٩٢٩	١٩٢٨	١٩٢٧	١٩٢٦	أهم المنتجات الزراعية المستوردة
٢١٥,٠٠٠	١٢٦,١٨٥	٣٥٦,٧٨٥	١١٥,٦١٦	٤١٩	١٦٤,٦٢٢	القمح
١,١٦٦,٠٠٠	٢,١٥٠,٣٤٨	٣,٠٠٠,٤٧٥	٢,٢١٩,١١٢	٢,٤٣١,٧٨٣	٣,٣٢٢,١٨٥	الذيق
٢٥٨,٠٠٠	١٣٤,٠٧٣	٢١١,٤٢٤	١٩٢,٩٩٨	٢٠٩,١٥١	٦٦٩,٣١٦	الأرز
٦٤,٠٠٠	١٤,٠٢٩	٧,٦٣٣	١,٦٩٩	٢,٥٢٠	٥١,٨٨٩	الذرة والذرة العويجه
٩,٠٠٠	٢٤,٦٨٦	٥,٦٨٤	٢,٥٨٩	٣٨,٧١٦	٩٣,٢٠٠	الفاول
٧٢,٠٠٠	١٧,٠٣٤	٢,٤٤١	٥٦٣	١٦,١٩٧	١٢٠,٨٩٨	الشعير
٣٨,٦٠٠	١,٥٠٦,٤٧٥	١,١٧١,٠٧٣	٩٩٧,٩٥٧	٨٥٢,٠٨٦	٩٠٦,٧٥٥	السكر
١٠٣,٠٠٠	١٣٥,٥٥٢	١٥٣,٦٥١	١٥٣,٨٥٤	١٦٧,٤٥٨	١٥٤,٠٣٤	البطاطس
٦٣٧,٠٠٠	٥٨٨,٤٠٩	٤٤٤,٥٧٣	٣٧٧,٧١٤	٤١٢,٧٢٣	٤٦٤,٨٩٠	الفراكة
	٤٢٣,٣٥٩	٤٧٤,٨٢١	٤٧٢,٩٢٤	٤٨٢,٨٧٩	٤٧١,٥١٦	الفراكة المحفوظة
٢٢٥,٠٠٠	٥٨٨,٦٢٩	٧٠٥,٦٣٧	٧٥٧,٢٠٤	٥٤٣,٧٦٨	٧٨٧,٥٤٨	المواشي واللحوم

والأزمة الحالية تبين مقدار الخطر الذى تعرض له الأمة المصرية فى اعتمادها على محصول واحد مستهدف للتغيرات العالمية ، ولمنافسة بعض المواد الأخرى مثل الحرير الصناعى . ولتوالى نقص اثمان القطن أصدرت الحكومة أخيراً مرسوماً بتاريخ ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣١ يقضى بتحديد المساحة القطنية : فى منطقة السكلا ريدس بنسبة ٣٠ ٪ وفى غيرها بنسبة ٢٥ ٪ من المساحة القابلة للزراعة . وسيكون من شأن هذا القرار الاكثار من زراعة القمح والفواكه وغيرها من المواد الغذائية حتى تسد حاجة القطن وتغنيه عن استيراد كثير من المواد الغذائية من الخارج .

٧ - وإذا رجعنا الى تاريخ التجارة الخارجية المصرية وجدنا أن مصر فى أوائل القرن التاسع عشر كانت من الممالك التى تصدر المواد الغذائية ولكنها أصبحت الآن تعتمد على الخارج فيما يلزمها من الحبوب والدقيق وغيرها وتستورد منها مقادير كبيرة . وهذا ناتج طبعاً من بذل كل العناية الى ترقية محصول القطن . كذلك كانت مصر تصدر الى الخارج فى سنة ١٨٣٦ من المنسوجات القطنية ما قيمته ٦٢٠٠٠ جنيه أى نحو ٣ ٪ من مجموع الصادرات . ولكن هذه النسبة أصبحت الآن فى حكم العدم . وقد لاحظت ، بحق ، لجنة التجارة والصناعة التى ألفت فى سنة ١٩١٦ : « ان المكنة الاقتصادية لتجارة الصادرات المصرية قد ضعفت وانحطت ، لأن تنوع المواد التى تتكون منها تلك الصادرات ، أخذ فى النقص بدل الزيادة . وهذا يجعل اعتماد القطن على البلاد الأجنبية أشد واعظم منه فى أى زمن سابق كما أنه يجعل دائرة الاتساج قاصرة قصوراً لم يسبق له نظير فى تاريخ البلاد . »

٨ - **صادرات مصر** - أهم صادرات مصر الى الممالك الأجنبية هو القطن . وقد بلغت قيمة الصادر منه فى سنة ١٩٢٩ مبلغ ٤١,٣٦١,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣٠ ، ٢٣,٧٨٨,٠٠٠ جنيه ، وفى سنة ١٩٣١ ، ١٩,٦٨٨,٠٠٠ جنيه . وهذا بالنسبة الى مجموع الصادرات يمثل ٨٠ ٪ فى سنة ١٩٢٩ ، ٧٤ ٪ فى سنة ١٩٣٠ ، و ٧٠ ٪ فى سنة ١٩٣١ . هذه الأرقام تدلنا على مقدار نقص قيمة الصادر من القطن فى السنتين الأخيرتين نظراً للازمة العالمية والحاضرة وكساد الصناعة القطنية . ومع ذلك يمكن أن نلاحظ أن نقص قيمة الصادر من القطن يرجع الى انخفاض الأثمان أكثر منه الى نقص

الكمية المصدرة إذ لم يقل الصادر منه في سنة ١٩٣١ عن سنة ١٩٢٩ الا بمقدار ٣ ٪ ،
وفي الجدول الآتي بيان كمية الصادر من القطن في الثلاث سنوات الأخيرة ، ومتوسط ثمنه :

السنة	كمية القطن المصدر (بالقطنار)	متوسط ثمن القطنار (بالريال)
١٩٢٩	٧,٦٢٥,٠٠٠	٢٧,١٣
١٩٣٠	٥,٩٢٧,٠٠٠	٢٠,٠٨
١٩٣١	٧,٣٩٧,٠٠٠	١٣,٣١

وأهم صادرات مصر ، عدا القطن : بذرة القطن . الأرز ، البصل ، زيت بذرة القطن ،
والسجائر ، والفوسفات والبيض ، والكسب واليك بيان قيمة الصادر منها في السنوات
الثلاث الأخيرة (بآلاف الجنيهات المصرية) :

أهم الصادرات	سنة ١٩٢٩		سنة ١٩٣٠		سنة ١٩٣١	
	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات	قيمة المصدر	النسبة المئوية للمجموع الصادرات
بذرة القطن	٢,٨٦١	٥٨ ٪	١,٨٦٥	٥٨ ٪	١,٤٣٧	٥١ ٪
الأرز	٩٦٧	٢ ٪	٦٣٣	٢ ٪	٣٥٠	١٢ ٪
البصل	٨٧٢	١٧ ٪	٥٤٠	١٧ ٪	٧١٧	٢٥ ٪
زيت بذرة القطن	٤٧١	٩ ٪	٤٢٥	١٣ ٪	٢٨٨	١ ٪
السجائر	٣٥٢	٧ ٪	٣١٢	١ ٪	٢٤٨	٨ ٪
الفوسفات	١٧٧	٣ ٪	٢٥٨	٨ ٪	٢١٧	٧ ٪
البيض	٣٢٠	٦ ٪	٢٥٨	٨ ٪	٣٢٢	١١ ٪
الكسب	٦٠٧	٢ ٪	٩٠٧	٢٨ ٪	٧٩١	٢٨ ٪

ويلاحظ أن تجارة الصادرات المصرية عانت في المدة الأخيرة عناء شديداً من القيود والرسوم الجمركية المرتفعة التي فرضتها بعض الدول عليها مثل الولايات المتحدة . فإن ضريبة السبعة سنتات التي فرضتها على كل رطل من القطن المصري قد انقصت مقدار الصادر اليها منه من ١٠٢٧٧ و ٠٠٠ قنطار في سنة ١٩٢٩ الى ١٨٦ و ٠٠٠ قنطار في سنة ١٩٣١ . وقد نقصت أيضاً صادرات القطن الى فرنسا نظراً للضائقة الشديدة التي تعانيها تلك الصناعة فيها .

وقد قامت الحكومة في العام الماضي بالدعوة للاقطان المصرية والعمل على التعامل بها في البورصات الأجنبية . وعلى اثر ذلك زاد ما تستورده بعض الدول من القطن المصري خصوصاً ألمانيا ، والهند ، واليونان ، والسويد ، وكندا ، والصين ، وإسبانيا . وتبذل الحكومة مجهودات كبيرة للحصول على الغاء الضريبة الاميركية على القطن .

٩ - **واردات مصر** - تتبع واردات مصر ثمن القطن وكية محصوله ، لأن قوة شراء الأهالي من الخارج تتوقف على ذلك المحصول .

وقد نقصت قيمة واردات مصر في السنتين الأخيرتين ، بسبب هبوط اسعار القطن من جهة ، ومن جهة أخرى فإن التجار في مصر كانوا قد استوردوا مقادير كبيرة من السلع قبل تطبيق التعريفة الجمركية الجديدة التي نفذت في ١٧ فبراير سنة ١٩٣٠ . ويقدر ما استوردته مصر في سنة ١٩٢٩ بمبلغ ٥٦ مليون جنيه ، وفي سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٤٧ و ٤٨٠ و ٠٠٠ جنيه وفي سنة ١٩٣١ زاد نقص الواردات فلم تتجاوز قيمتها ٣١ و ٥٢٩ و ٠٠٠ جنيه أي بنقص ١٥ و ٩٥٩ و ٠٠٠ عن سنة ١٩٣٠ . وهذا النقص يمكن تعليله بالأسباب السابق ذكرها ، إذ أن ما يقرب من ٩٠ ٪ من سكان مصر يشتغلون بالزراعة وقد تأثرت مقدرتهم على الشراء بسبب نقص اثمان المحصولات الزراعية ، ويمكن أن نزيد على ذلك ازدياد هبوط الأثمان في سنة ١٩٣١ . ويرجع نقص الواردات أيضاً الى تشجيع انتاج بعض الحاصلات القومية .

وأهم واردات مصر هي : المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية ، والحديد ، والصلب والسماد ، والقمح ، والدقيق ، والسكر ، والشاي . والبن والفلفل والنيذ . والزجاج والكحول والبتروال والآلات والروائح والبنزين والمازوت والأسماك ، والجن والاحذية وخشب البناء والفحم والصابون وخيوط القطن والحقائب والتبغ والفواكه والخضروات . وفي

الجدول الآتي بيان قيمة أهم الواردات في المدة من أول سبتمبر سنة ١٩٣٠ لغاية ٣١ أغسطس سنة ١٩٣١. (١)

أهم الواردات	القيمة بالجنيهات المصرية
الخضروات والفواكه	٤,٣٧٢,١١٤
المواد المعدنية	٢,٨١٨,٠٨٣
المواد الكيماوية	٣,٣٢٧,٩٧٢
المنسوجات	٨,٤٦٣,٣٩٠
المعادن العادية (المصنوعة والخام)	٢,٩٤٥,٥٢٥
الآلات والقطع الميكانيكية (الخ)	١,٩٦٢,٩٨٧
مواد التغذية والتبغ	٤,٠٤٤,٨٦٤
مواد أخرى	٦,٣١٧,٤٣٩
الجملة	٣٤,٢٥٢,٣٧٤

١٠ - **تجارة الترانسيت** — كانت مصر مستحوذة على جانب كبير من تجارة الترانسيت بين أوروبا والشرق، وذلك نظراً لموقعها الجغرافي. إلا أن الإحصاءات في السنوات الأخيرة تدل على نقص هذه التجارة. وربما كان منشأ ذلك الأزمة العالمية التي تيج عنها قلة المبادلة بين الأقطار (٢). كذلك تدل الإحصاءات على نقص البضائع المعاد تصديرها في سنة ١٩٣١ (٣).

- (١) هذه الأرقام مأخوذة من إحصاءات البنك الأهلي.
- (٢) كانت الإحصاءات لا تتضمن بياناً عن البضائع التي تمر برسم الترانسيت إلا الفحومات وزيت الوقود. ولكن ابتداء من سنة ١٩٣٢ شرعت مصلحة الجمارك في اتخاذ التدابير التي تمكنها من نشر البيانات الخاصة بها.
- (٣) أهم الأصناف المعاد تصديرها: الكيروزين، والبنزين، والمازوت والفحم الحجري والسجاجيد، والبسط، والاكياس الفوارغ والسيارات والسجاير.

١١- الممالك التي تجر معها مصر - هي إنجلترا ومستعمراتها ، وفرنسا ، وإيطاليا ، والمانيا ، والولايات المتحدة ، وشيلي ، والبلجيك ، بلجيكا ، ورومانيا ، وتشكوسلوفاكيا ، واليابان ، واليونان ، وروسيا ، وفلسطين ، وسوريا ، وسيام ، والهند ، والهند الصينية الفرنسية ، والمستعمرات الهولندية ، والنمسا ، وسويسرا ، وهولندا ، والسويد ، وبلغاريا ، وتركيا .

ويلاحظ أن لانجلترا المقام الأول في تجارة مصر الخارجية . فهي أكبر دولة تتعامل معها مصر سواء في المبيعات أو في المشتريات . الا أنه بمقارنة الأرقام الخاصة بالتجارة الخارجية قبل الحرب ، بمثلاتها بعد الحرب نرى أن نصيبها من التجارة المصرية أخذ في النقص : ففي سنة ١٩١٣ كانت بريطانيا تشتري من صادرات مصر نحو ١ و ٤٣٪ . وتبيع لها من وارداتها نحو ٥ و ٣٠٪ . وقد انخفضت هذه النسبة في سنة ١٩٣٠ الى ٥ و ٣٤٪ بالنسبة الى الصادرات والى ٧ و ٢٣٪ بالنسبة الى الواردات . على أننا لو أنعمنا النظر لوجدنا أن نقص تجارة الواردات الانجليزية في مصر يرجع الى سنة ١٩٢٥ . إذ في السنين التي تلت الحرب مباشرة لم ينقص نصيب إنجلترا بل بالعكس وزادت وارداتها في سنة ١٩٢٢ الى ٣٤٪ ، أي بزيادة ٥ و ٣٪ عما كانت عليه في سنة ١٩١٣ . ولكن ابتداء من سنة ١٩٢٥ ، وهي السنة التي أصلحت فيها إنجلترا نظامها النقدي ، أخذت وارداتها في النقصان . وذلك يرجع الى أن نفقة الانتاج في إنجلترا أعلى مما هي في غيرها ، لارتفاع أجور العمال . ولذا لا يمكن أن تراحم الممالك الأخرى في الأسواق الدولية . وعلى أثر ذلك أخذ نصيب إنجلترا في الواردات المصرية يقل شيئاً فشيئاً فانخفضت الواردات الانجليزية في سنة ١٩٢٥ الى ٢ و ٢٥٪ وفي سنة ١٩٢٦ الى ٨ و ٢١٪ وفي سنة ١٩٢٧ انتعشت بعض الشيء فاصبحت تعادل ٦ و ٢٥٪ ولكنها أخذت في الانخفاض بعد ذلك فكانت نسبتها ٧ و ٢١٪ في سنة ١٩٢٨ ، وكانت ٧ و ٢٣٪ في سنة ١٩٣٠ . وهذا ما أدى في العام الماضي الى ارسال بعثة تجارية انجليزية تحت رئاسة السير بلفور لتوثيق العلاقات التجارية بين مصر وإنجلترا .

الا أن عدول إنجلترا عن قاعدة الذهب في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ وانخفاض الجنيه الانجليزي والجنيه المصري تبعاً له مما يؤدي الى اتساع نطاق العلاقات التجارية بين مصر

وانجلترا لأن المصرى ليس من مصلحته أن يشتري من الممالك التى لا تزال متبعة قاعدة الذهب. اذ أن أثمانها تعتبر مرتفعة بالنسبة اليه ، نظراً لتدهور نقوده ، فهو مضطرباً على ارتباط النقد المصرى والانجليزى أن يستورد منها ما تنتجه من المواد . وقد نشطت قليلاً صناعة القطن فى لانكشير على أثر هبوط الجنيه و زاد مقدار ما صدر اليها من القطن المصرى فى المدة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣١ الى نهاية الأسبوع الثانى من يناير سنة ١٩٣٢ عما صدر فى نفس المدة من الموسم السابق بمقدار ٢٩٦ و ٠٠٠ قطار .

١٢ - أما نصيب الممالك الأخرى فيتبين من الجدول الآتى ومنه يتضح الفرق بين نصيب أهم الممالك فى تجارة مصر الخارجية قبل الحرب ، وفى سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣١ :

اولاً : تجارة الصادرات (١)

الدولة	النسبة المئوية فى سنة ١٩١٣	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية فى سنة ١٩٣١
فرنسا	٨ و ٨ %	١٤ و ٤ %	١٢ و ٨ %
المانيا	١٢ و ٨ %	٧ و ٩ %	٩ و ١٢ %
ايطاليا	٣ و ٢ %	٦ و ٢ %	٥ و ٩٩ %
الولايات المتحدة	٧ و ٨ %	٦ و ١ %	٢ و ٥ %
روسيا	٧ و ١ %	٥ و ٤ %	٦ و ٠٨ %
سويسرا	٣ و ٢ %	٣ و ٩ %	٣ و ٥ %
الهند	—	٣ و ٤ %	٤ و ٥٤ %
اليابان	٢ و ٣ %	٣ %	٤ و ٧٥ %

(١) راجع مقالة مستر كريج عن تجارة مصر الخارجية فى المانشستر جارديان : اول مارس سنة ١٩٣٠ . وراجع تقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

ثانياً: تجارة الواردات (١)

الدولة	النسبة المئوية في سنة ١٩١٣	النسبة المئوية في سنة ١٩٣٠	النسبة المئوية في سنة ١٩٣١
فرنسا	٩٪	٩و٤٪	٩و٨٪
ايطاليا	٥٣٪	٩و١٪	٩و١٧٪
المانيا	٥٨٪	٧و٩٪	٨و٥٪
الولايات المتحدة	١و٩٪	٤و٧٪	٤و٣٤٪
البلجيك	٤و٢٪	٣و٩٪	٣و٨٧٪
اليابان	٠و٢٪	٣و٦٪	٤و٨٧٪
الصين	١٪	٠و٦٥٪	٠و٧٤٪
الهند الصينية	٤و٨٪	١و٢٤٪	٠و٧٧٪
استراليا	١و٣٪	٢و٧٪	٣و١٢٪
روسيا	٣و٢٪	١و٩٪	١و٤٪
سويسرا	٥٪	١و٢٪	١و٣٪
رومانيا	٤٪	٣و٨٪	٣و٦٪

١٣ - **حالة الميزان التجاري المصري** - يتأثر الميزان التجاري بسعر القطن .

ولذا نجد أنه كان في مصلحة مصر في مدة الحرب وفي السنتين التاليتين لها . وذلك لأن القطن ارتفع ثمنه في مدة الحرب لزيادة الطلب عليه . فبعد ان كان متوسط ثمنه في سنة ١٩١٣ نحو ٣ جنيه و ٣٠.٨ ملهمات زاد في سنة ١٩١٩ الى ١٧ جنيه و ٥٦.٢ ملهما . وفي الجدول الآتي بيان حالة الميزان التجاري في أثناء الحرب ، وفي السنتين التاليتين لعقد الصلح :

(١) راجع مقالة مستر كيرج السالفة الذكر وراجع ايضا ارمنجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ . وتقرير ادارة الجمارك عن سنة ١٩٣١ .

(بالجنهيات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (-) الصادرات عن الواردات
١٩١٥ - ١٩١٦	٢٧,٥٤٥,٣٤٠	٢٩,٨٨٢,٣٩٣	٢,٣٣٧,٠٥٣ +
١٩١٦ - ١٩١٧	٣٠,٠٩٥,٣٧١	٤٤,٥٨٧,٩٥٠	١٤,٤٩٢,٥٧٩ +
١٩١٧ - ١٩١٨	٤٧,٢٨٥,٢٢٦	٤٨,٠١٩,٩٥٢	٧٣٤,٧٢٦ +
١٩١٨ - ١٩١٩	٤٤,٣٣٤,٧٢٠	٤٨,٨٢٩,٩٥١	٤,٤٥٩,٢٣١ +
١٩١٩ - ١٩٢٠	٨٧,٥٧٧,٩٨٥	١١٣,٤٦١,٨٠٦	٢٥,٨٨٣,٨٢١ +

على أنه ابتداء من سنة ١٩٢٠-١٩٢١ رجع الميزان التجارى فأصبح فى غير صالح مصر، وذلك لانخفاض أثمان القطن وكان مقدار العجز فى تلك السنة ١٧ و ٤٠٥٤ و ٣٤ جنيه ثم تحسن فى السنوات التالية، ثم تغير بعد ذلك وأصبح فى غير مصلحة مصر من سنة ١٩٢٥ - ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ (أى عدا ستى ١٩١٧ - ١٩٢٨) ، و (١٩٢٨ - ١٩٢٩) . وقد بلغ العجز أكثر من ١٤ مليوناً فى سنة ١٩٢٩ - ١٩٣٠ . ويعلل ذلك أولاً بتدهور أثمان القطن كما بيناه من جهة ، وبكثرة ما استورده التجار قبل تطبيق التعريفة الجمركية الجديدة من جهة أخرى . فى الجدول الآتى بيان حالة الميزان التجارى من سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ الى سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ :

(بالجنيهات المصرية)

السنة (من أول سبتمبر الى ٣١ أغسطس)	الواردات	الصادرات	الميزان التجارى زيادة (+) او نقص (-) الصادرات عن الواردات
١٩٢٠ - ١٩٢١	٧١,٧٢٥,٦٧٧	٣٧,٦٩٠,٢٦٠	٣٤,٠٣٥,٤١٧ -
١٩٢١ - ١٩٢٢	٤٦,٠٠٦,٥٢٩	٥٠,١٨٥,١٤٠	٤,١٧٨,٦٦١ +
١٩٢٢ - ١٩٢٣	٤٤,٤٥٣,١١٦	٥٣,٥٦١,٧٨٨	٩,١٠٨,٦٧٢ +
١٩٢٣ - ١٩٢٤	٤٧,٤٤٠,٥٩٠	٦٤,١٠٩,٦٩٦	١٦,٦٦٩,١٠٦ +
١٩٢٤ - ١٩٢٥	٥٦,٢٥٧,٥١١	٦٧,٩٥٢,٨٠٨	١١,٦٩٥,٢٩٧ +
١٩٢٥ - ١١٢٥	٥٥,٩٧٣,٠٧٥	٥٢,٨٥٤,٦٣٠	٣,١١٧,٤٤٥ -
١٩٢٦ - ١٩٢٧	٤٨,٢٣٠,٢٢٣	٤٥,٨٢٣,٠٣٥	٢,٤٠٧,١٨٨ -
١٩٢٧ - ١٩٢٨	٥١,٥٦٥,٣٨٨	٥٤,٣١٠,٩٨٣	٢,٧٤٥,٥٩٥ +
١٩٢٨ - ١٩٢٩	٥٥,٢٨٤,٣٩٧	٥٧,١٩٥,٣٨٨	١,٩١٠,٩٩١ +
١٩٢٩ - ١٩٣٠	٥٤,٠٥٦,٩٨٨	٣٩,٧٢٢,٠٢٩	١٤,٣٣٤,٩٥٩ -
١٩٣٠ - ١٩٣١	٣٤,٢٥٢,٣٧٤	٢٩,٣٣٠,٦٩٥	٤,٩٢١,٦٧٩ -
متوسط العشر السنوات الاخيرة من سنة ١٩٢١ — سنة ١٩٣٢ الى سنة ١٩٣٠ — ١٩٣١	٤٩,٣٥٢,٠١٩	٥١,٥٠٤,٧١٩	٢,١٥٢,٧٠٠ -

نستخلص من هذه الاحصاءات أن الميزان التجارى غير متوازن وأنه يجب معالجة هذا الاضطراب. وقد عملت الحكومة على السعى لايجاد أسواق جديدة لتصريف المحصول المصرى ونشر الدعاية له فى الخارج وادخاله فى التعامل فى البورصات الأوربية ونأمل أن تثمر هذه الجهود قريباً. وهى الآن شارعة فى العمل على تشجيع صادراتنا من الفواكه والخضروات. وقد وضعت رقابة على المحصولات الرئيسة المعدة للتصدير. إذ أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مكتباً لمراقبة الصادرات. وسيقوم هذا المكتب فى أول الأمر بمراقبة البيض والبصل، لتحسين سمعة هذين الصنفين فى الخارج.

على أن توازن الميزان التجارى لن يتم على وجه مرضى الا بتنويع الزراعات والعمل على انهاض الصناعة . وسأعالج فى القسم الثانى من هذا البحث موضوع الصناعة وطرق انماؤها فى مصر . انما يحسن قبل بحث هذا الموضوع أن نقول كلمة موجزة عن حالة ميزان الحسابات المصرى .

١٤ . — ميزانه الحسابات المصرى : لا ينحصر ميزان الحسابات فى الميزان التجارى بل يشمل أيضاً عناصر أخرى متنوعة ، هى التى يطلق عليها العناصر الغير المنظورة invisibles ، ومن الصعب تقويمها بدقة ، ومن هذه العناصر : مصاريف السائحين الاجانب فى مصر ، ونفقات الحجاج ، والسائحين المصريين فى اوربا زمن الصيف ، وعدددهم يختلف باختلاف السنوات ، وأقساط الديون المصرية ، والمبالغ التى تدفع لسد نفقات الجيش البريطانى ، وما يدفع فى مصر لسد قيمة الكوبونات التى يحملها سكان القطر ، والمبالغ التى تدفعها الشركات لمساهميها وحملة سنداتنا فى الخارج ، والمبالغ التى تدفع بمصر نظير خدمات شركة قنال السويس للملاحة ، ونفقات التمثيل السياسى الاجنبى فى مصر ، ونفقات تمثيل مصر فى الخارج . والمبالغ التى تدفع لأعضاء البعثات العلمية ، ونفقات المراكب الاجنبية فى الموانئ المصرية ، وفوائد السندات الضامنة لأصدار البنوك المصرى . هذه العناصر كلها يجب مراعاتها فى تقدير ما لمصر وما عليها من الديون .

ويمكن القول أن مصر تكون دائنة للخارج غالباً فى فصل الشتاء إذ تصدر مقادير كبيرة من القطن فى ذلك الوقت ، كذلك يكثُر عدد السائحين الاجانب فى مصر . وبالعكس تكون مدينة فى فصل الصيف اذ تقل فيه الصادرات المصرية ، ويكثر سفر المصريين لقضاء فصل الصيف فى الخارج .

ويكاد يكون من المستحيل أن نبين بدقة حالة ميزان الحسابات المصرى . الا أن البنك الاهلى يرى فى تقاريره السنوية أنه قد يصح القول بتعادل العناصر التى يتألف منها الميزان الحسابى بعضها مع بعض فى السنوات العادية .

وقد كان ميزان الحسابات فى مصلحة مصر فى مدة الحرب ، وذلك لارتفاع ثمن القطن ولكثرة ما أنفقته انجلترا على جيوشها فى مصر . وانه وان قل قدوم السائحين الى مصر فى فصل الشتاء فى تلك المدة ، فان هذا النقص قد عوضه وجود الجيوش البريطانية فى مصر ، كما أن المصريين الذين كانوا ينفقون فى الخارج أموالاً طائلة فى فصل الصيف ، اضطروا

الى ملازمة بلادهم ، كذلك قلت الواردات الى مصر ، بسبب صعوبة المواصلات وبطئها كما أن الحكومة المصرية وضعت قيوداً على الاستهلاك ، وحددت الحصص التي يستهلكها كل فرد من بعض السلع ، كما أنه كان لمصر رؤوس أموال كبيرة في الخارج منها بونلات الخزينة البريطانية التي كانت تأتي بربح كبير للدولة وقد زاد مقدار هذه البونلات نظراً لزيادة الاصدار في مصر .

وقد قدر ما كسبته مصر في مدة الحرب ، نظراً لأن ميزان الحسابات كان في صالحها ، بمبلغ ١٠٠ مليون جنيه .

الا أنه ابتداء من سنة ١٩٢١ فقدت مصر معظم ما كسبته في أثناء الحرب ، إذ غالت في الاستيراد وكان عجز الميزان التجارى وحده في سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ يقدر بنحو ٤١٧,٠٣٥,٣٤ جنيه .

ولما كان مسألة توازن الحسابات لها أهمية حيوية نأمل أن تهتم الحكومة بوضع إحصاءات شاملة وأن تعمل على الحصول على المعلومات اللازمة من شركات الملاحة ، والفنادق ، والمصالح المختلفة (١) .

(١) وقدر المستر كيرج السكرتير المالى للحكومة المصرية ما ينفقه السائحون الاجانب في مصر بما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين جنيه . وهذا المبلغ يعادل تقريباً ما ينفقه السائحون المصريون بأوروبا في فصل الصيف ، والحجاج . وقدر الفوائد التي تدفع للعالميين الاجانب الذين يستثمرون أموالهم في مصر بما يتراوح بين ثمانية ملايين وتسعة ملايين جنيه . على أن هذا التقدير اساسه المدة التي قبل الحرب . وقدرت مذكرة اللجنة المالية عن مشروع الميزانية سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ المبالغ المدفوعة نظير البضائع المستوردة أو الخدمات المؤداة للجيش البريطاني بمبلغ ١٠٦ مليون في سنة ١٩٢٩ ، ١٠٩ مليون في سنة ١٩٣٠ ومليونين في سنة ١٩٣١ . وقدرت أيضاً المبالغ التي تدفع في مصر نظير خدمات شركة قناة السويس للملاحة من جهة ، ولسد قيمة السكوبونات التي يحملها سكان القطر المصرى من جهة اخرى في سنة ١٩٢٩ ، بمبلغ ٢٠٦ مليون ، وفي سنة ١٩٣٠ بمبلغ ٢٠٤ مليون وفي سنة ١٩٣١ بمبلغ ٢٠٣ مليون راجع كيرج : تجارة مصر الخارجية في المانشستر جارديان . العدد الخاص بمصر — أول مارس سنة ١٩٣١ .

٢

الصناعة في مصر

١٥- ان عدد سكان القطر المصرى أخذ في الازدياد . وبحسب تعداد سنة ١٩٢٧ يبلغون ٨٦٧ر١٧ر١٤ . ولما كانت مساحة الأراضى المزروعة تبلغ نحو ستة ملايين فدان ولا يمكن زيادتها عن ذلك الا قليلا ، وجب التفكير في إيجاد موارد عمل لهذا العدد الكبير من السكان ، والاهتمام بترقية الصناعة . إذ أن التطور الاجتماعى يتوقف على التطور الصناعى . وأن دولة تهمل الصناعة لى دولة متأخرة .

وربما كان التعبير ، بأن دولة ما صناعية أو غير صناعية ، غير دقيق ، بل الأصح أن نقول أن دولة وصلت أو لم تصل بعد الى المرحلة الصناعية . فالأمة كما بينا تنتقل من مرحلة الرعى الى مرحلة الزراعة ومن الطور الزراعى الى الطور الصناعى .

١٦ - وان تاريخ القطر المصرى ، من عصر الفراعنة الى الآن ، يبين لنا بدقة ذلك التلازم بين درجة رقى الدولة ، وحالة الصناعة فيها .

ففى عصر الفراعنة تدل الأبحاث على مبلغ حضارة المصريين ، وكيف أنهم كونوا فكرة صحيحة عن نظام الحكم ، وقد ازدهرت الصناعة فى عصرهم . وكانت تتميز اذ ذاك بصفة الابتكار . فلم يكن الصانع المصرى مقلداً فى عمله للغير بل كان يتميز بسبقه فى ذلك الميدان . وأهم الصناعات التى وجدت فى ذلك العهد : صناعة التعدين ، وسبك المعادن . يدلك على تقدمها تلك التماثيل والآلات الزراعية المصنوعة من النحاس ، كذلك صناعات النقل (السفن الصغيرة والعجلات) ، وصناعة البناء ، يشهد بعلو كعبهم فيها الاهرامات الخالدة ، وصناعة التجارة ، والفخار ، والمصوغات ، والمجوهرات والزجاج . وان آثار قدماء المصريين لتبين مبلغ المامهم بفن الكيمياء . الا أن رقى الصناعة فى مصر كانت تتوره فى بعض الأحيان ، فترات من الخمول ، تبعاً لتحكم الدول الفاتحة لها .

وفى عهد البطالسة كانت مصر أرقى مملكة فى البحر الأبيض المتوسط ، فكان المصريون ينسجون أدق الخيوط ، وانتشرت فى ذلك العصر صناعة الزجاج ، وأوراق البردى... الخ ١٧ - وبعد انتهاء عصر الأسرة اليونانية المصرية ، أخذت الصناعة فى التدهور ، الى أن جاء الاسلام ، فأعاد الفتح الاسلامى لمصر مركزها الصناعى . وقد كانت مصر

مركزاً تجارياً مهماً في ذلك العصر نظراً لموقعها الجغرافي . والصناعات ، التي كانوا يزاوونها ، : اما صناعات مدنية مثل صناعة البناء ، إذ اشتهرت مصر في ذلك الوقت بالتبليط والترخيم والنحت ، مثل صناعة الجلود والمصوغات والأثاث والزجاج ، والورق والحصر ، والشمع ، والصابون ، والسكر ، والدقيق ، والخلوى . واما صناعات حربية مثل صناعة الأسلحة ، والسروج ، والتروس والخيام والسفن^(١) . وكانت الصناعات المصرية خاضعة لنظام الطوائف ، فكان لكل طائفة شيخ يشرف على أعمالها .

على أن أهم عصر اسلامي لرقى الصناعة هو عصر الفاطميين ، ويرجع ذلك الى عناية الخلفاء بها وما كانوا يوالونها به من اعانات وجوائز صناعية ، وتشجيعها بالمشترقات منها

١٨ - هذا العصر الذهبي للصناعة المصرية ما لبث أن انتهى في عهد المماليك والترك . ويمكن تعليل ذلك بتعسف الأتراك في فرض الضرائب على المصريين . فكانوا يبذلون جهدهم في ابتزاز اكبر ما يمكن من الأموال دون نظر الى مصلحة الشعب ، كذلك أخذ الأتراك ، عند فتحهم لمصر ، عدداً كبيراً من الصناع المصريين . كما أن تحول مجرى التجارة عن مصر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، أضعف مركزها التجاري . وفي هذا العصر ضعفت روح الاختراع عند الصانع المصري . وبعد أن كانت الصناعة أساسها الابتكار ، تغيرت مهمة الصانع فأصبح مقلداً ، ولذا يسمى هذا العصر ، عصر التقليد

١٩ - ولما ولي محمد علي باشا على مصر عمل على انقاذها من حالة الفوضى ، وسعى الى استئصال لال مصر سياسياً واقتصادياً . واستعان بالخبراء الاجانب خصوصاً الفرنسيين والايطاليين (الا أنه ما لبث أن طرد الايطاليين لمنازعات سياسية) . وقد عمل هؤلاء الاجانب على مساعدة مصر بمعلوماتهم الفنية والزراعية والصناعية .

وقد كانت المشروعات الصناعية ، في عهد محمد علي ، مشروعات حكومية ، أهمها : صناعة السفن ، إذ أنشأ داراً لصناعة السفن ببولاق . وأنشأ مصانع للنسيج والغزل وكان يصدر ما يزيد عن حاجة مصر الى سوريا ، واوربا ، وعنى بصناعة الحرير ، واكثر من

(١) راجع تقرير لجنة التجارة والصناعة . المطبعة الاميرية سنة ١٩٢٥ . وراجع أيضاً أرمنجون . حالة مصر الاقتصادية والمالية . باريس سنة ١٩١١ ، وراجع كتاب المقرري ومقال نوس بك في مجلة مصر العصرية ، يناير سنة ١٩٣٠ .

زراعة أشجار التوت . وأنشأ كثيراً من الصناعات الأخرى ، مثل صناعة الجوخ ، والطرابيش ، والزيت .

ولم يهمل محمد علي باشا الجانب العلمى والمعنوى للحركة الصناعية . فأنشأ مدرسة الفنون والصنائع . وبث في نفوس الناس روح تشجيع الصناعات الوطنية . هذا البناء ، الذى أقامه محمد علي باشا ، لم يلبث أن انهار بعد وفاته . إذ أهمل الحكام الذين قاموا بعده تعهد ذلك العمل العظيم الذى بدأ به .

٢٠ - وعلى أثر انشاء المحاكم المختلطة أخذت رؤوس الأموال الأجنبية تغد الى مصر لتستغل فيها . وانشئت عدة شركات صناعية ، منها شركات الترام ، وشركات الماء ، وشركة السكر ، وشركات الكهرباء . الخ . وقد استعانت بالعمال المصريين ، والاجانب النازحين من بعض بلاد البحر الأبيض المتوسط . وأظهر العامل المصرى نبوغاً فى العمل تحت اشرافهم ، حتى أنه يمكن القول ان الصانع المصرى ، ورث اليوم شيئاً عن مهارة أسلافه ، التى حازت إعجاب العالم فى ما مضى .

٢١ - ولما نشبت الحرب العظمى ، أوجدت فى نفوس المصريين روح الاعتماد على النفس ، إذ أن صعوبة المواصلات ، وقلة الانتاج فى مصر ، أجبرت الشعب على القيام بسد حاجياته . خصوصاً أن مصر كان يجب عليها أن تنتج ما يكفى حاجة سكانها ، والجيوش المرباطة فيها فى ذلك الوقت . فنشأت عدة صناعات منها صناعة الأخشاب ، والتغذية ، وصنع الملابس ، والفخار ، وأدوات البناء وبعض صناعات التعدين ، والجلود وبعض الصناعات الاستخراجية والزجاج .

ويمكن أن نقارن تأثير الحرب فى الصناعة المصرية بحالة الحصر البحرى فى أوربا أيام الحرب النابليونية ، إذ امتنع دخول المنتجات الانجليزية فى القارة ، فأنشئت عدة مصانع للقيام بانتاج السلع التى تعذر استيرادها . كذلك كان الحال فى مصر . إذ أصبح من المتعذر استيراد كثير من المواد المصنوعة فانشئت عدة مصانع لانتاج ما كانت البلاد تشتريه من أوربا .

ويلاحظ أن تلك الصناعات كانت وليدة الحاجة فلم تقم الحكومة فى بادئ الأمر بتعويضها . ولكن لما طالت مدة الحرب ، ألقت الحكومة لجنة فى سنة ١٩١٦ تسمى لجنة التجارة والصناعة برئاسة حضرة صاحب الدولة اسماعيل صدق باشا ، وصدر قرار

مجلس الوزراء بتشكيلها في ٨ مارس سنة ١٩١٦ . وكانت مهمة تلك اللجنة بحث تأثير الحرب في الصناعة والتجارة في مصر . واقتراح التدابير المؤدية لتشجيع وإيجاد أسواق جديدة ، لتصريف الحاصلات المصرية ، واستبدال الأصناف التي انقطع ورودها بغيرها مما يصنع في مصر ، وبحث طرق التعليم الفني والتجاري . وقد زارت اللجنة معظم المصانع ووضعت اللجنة تقريراً مسهباً مفيداً ، بينت فيه الطرق التي يمكن اتخاذها لتشجيع الصناعات المصرية وتوسيع نطاقها . ولكن ما جاء بتقرير اللجنة لم يعمل على تنفيذه ولم يوضع لنا برنامج اقتصادي ثابت نسير عليه .

٢١ - وفي سنة ١٩٢٠ فكر عدد من المصريين في إنشاء بنك مصري ، تكون كل عناصره مصرية ، رأس ماله يكتب فيه المصريون وحدهم ، مديروه وموظفوه مصريون . هذا هو بنك مصر الذي يعتبر الخطوة الأولى لاقبال المصريين على المشروعات المالية والتجارية ، وقد زيد رأس ماله الى أن أصبح مليون جنيه . وعمل البنك على إنشاء مشاريع صناعية . لها شخصية متميزة عن شخصيته ، وميزانية مستقلة عن ميزانيته . ولكنها تتمتع بمساعدته وتعضيده . وقد عمل البنك على استجلاب ثقة أصحاب الأموال . وبلغ عدد الشركات التي أنشأها عشرا هي : مطبعة مصر ، شركة مصر لتجارة وحلج القطن ، شركة مصر للنقل والملاحة ، شركة مصر للسبيل والتشييل ، شركة مصر لغزل القطن ونسجه ، شركة مصر لنسج الصوف ، شركة مصر للكتان ، شركة مصر لصيد الأسماك ، شركة مصر للتصدير ، شركة مصر لصنع الورق ، وأخيراً قام البنك بإنشاء شركة للطيران^(١) .

هكذا عمل بنك مصر على اجتذاب المصريين نحو الصناعة ، وعلى تشجيعهم على توظيف رؤوس أموالهم في المشروعات المالية والتجارية فصر مدينة له بتلك الروح الجديدة التي بثها في النفوس .

(١) وقد قررت الحكومة منح شركة الطيران التسهيلات الآتية (١) ايجار الاراضى اللازمة لها بأجور مخفضة (٢) استخدام الراديو الكهربائى بلا مقابل (٣) دفع اعانة لتشجيع تعليم الطيران عن كل فرد من المصريين (٤) اعفاؤها من رسوم الواردات على الطائرات وجميع المواد التي تستوردها للقيام بعمليها (٥) منحها اعانة سنوية .

٢٣ - هالة الصناعة في مصر في الوقت الحاضر - بعد تلك المقدمة الموجزة

عن تاريخ الصناعة في مصر ، يحسن بنا أن ندرس حالتها في الوقت الحاضر .
يدل تعداد السكان الذي حصل في سنة ١٩٢٧ على أن في بلادنا حركة صناعية قابلة للتوسع . وقد زاد عدد المشتغلين بالصناعة بعد أن كان عددهم يقدر في سنة ١٩١٧ بـ ٤٢٨ و ٩١١ زاد الى ٥٥٥ و ٩٦٩ في سنة ١٩٢٧ أى نسبة الزيادة في عشر سنوات تبلغ ٢٩,٦ ٪ ، بينما بلغت نسبة زيادة السكان في نفس المدة ١١,٥ ٪ (زاد عدد السكان من ٩١٨ و ٧٥٠ الى ١٢ و ١٩١٧ الى ٢١٧ و ٨٦٧) . كذلك زادت نسبة التعليم الصناعي ، فعدد طلبة المدارس الصناعية زاد من ٢٦٥٠ في سنة ١٩١٧ الى ٦١٧٥ في سنة ١٩٢٨ أى بزيادة ١٣٢ ٪ . في بحر إحدى عشرة سنة .
وهاك بيان أهم الصناعات في مصر :

٢٤ - ١ : صناعة السكر ^(١) - هي أكبر الصناعات في مصر . ويبلغ عدد

المشتغلين بها نحو ٢٧ ألف عامل . وتقوم بهذه الصناعة ، شركة مؤسسة برؤوس أموال أجنبية . وقد كانت حالة الشركة في تدهور مستمر قبل الحرب . وقد أفلست في سنة ١٩٠٥ اذ كانت تنتج بخسارة ، نظراً لمزاومة السكر النمساوى ، الذى كانت تواليه حكومته بالمنح (primes) . ولأن رئيس مجلس ادارتها كان يغالى في المضاربات . الا أنه عقد صلح بين الدائنين والشركة . وقامت على أثر ذلك إدارة جديدة اتبعت في ادارتها روح الاقتصاد والطرق الحديثة في الانتاج .

ولما نشبت الحرب العظمى ، وترتب عليها وقف صناعة السكر في أوروبا ، نظراً لتخريب بعض الأقاليم التى تزرع البنجر ، نشطت تلك الصناعة وزاد الانتاج المصرى وبلغ مقدار ما تصدره الى الخارج نحو ٢٠.٠٠٠ طن وقد زادت أرباح الشركة في ذلك الوقت ، نظراً لارتفاع أثمان السكر ووقف حركة التجارة النمساوية في البحر الأبيض . ففترة الرخاء الحقيقية للشركة هي مدة الحرب .

ولما تأثرت شركة السكر بالأزمة الحالية ، عقدت معها الحكومة اتفاقاً في شهر فبراير

(١) راجع عبد الحكيم الرفاعى ، حماية صناعة السكر في مصر ، مجلة القانون والاقتصاد ، السنة الاولى صفحة ٦١١ - ٦٤٨ .

سنة ١٩٣١ ، على أن تنتج ما يكفى حاجة القطر على أن تفرض الحكومة رسوماً جمركية مرتفعة ، تمنع مزاحمة السكر الأجنبي للسكر المصرى . وتمكن الشركة من توزيع حصة عادلة من الأرباح على أسهم رأس المال وحصل التأسيس . ونظير ذلك تشتت الحكومة فى الأرباح اذا زادت عن حد معين ويكون لها الرقابة على الشركة .

٢٥ - ٢ : صناعة الغزل والنسيج - كانت هذه الصناعة فى عهد محمد على . ولكنها اندثرت من بعده . وفى سنة ١٨٩٩ أنشئت الشركة الانجليزية المصرية للغزل والنسيج باسكندرية ففرضت الحكومة على منتجاتها رسماً مساوياً للرسم الجمرى ، عاق هذا الرسم الشركة فصفيت . وحل محلها شركة الغزل الأهلية بالاسكندرية . ومن وقت تأسيس الشركة فى سنة ١٩٠٢ الى الآن ، أخذت تستعمل الأساليب الحديثة فى الصناعة وقد أعففتها الحكومة من رسم الاتاج .

وقد انشأت حديثاً شركة مصر لغزل ونسيج القطن مصنعا مزوداً بأحدث الآلات . وأتخذت الاجراءات لجعله مستوفياً للشروط الصحية . وبدأ المصنع عمله الا أنه لا بد أن تمضى فترة من الزمن ، حتى ينتج كل المقدار الذى يستطيع اتاجه إذ أن تدريب عدد كاف من العمال يستغرق وقتاً طويلاً .

وتحت اشراف بنك مصر انشئت أيضاً شركة مصر لنسيج الحرير . وقد أتى لها بأحدث طراز من الآلات . ولم تجد شركة مصر لنسيج الحرير صعوبة كبيرة فى اختيار العمال ، لأن عدداً من أهالى دمياط تدرب على هذه الصناعة منذ زمن طويل .

وانا نرجو أن يكون لصناعة غزل ونسيج القطن نجاح كبير فى مصر . ولذلك لتوافر المادة الأولية . فغزل القطن ونسجه يعود بربح اكبر مما لو استوردنا الأقمشة أو الخيوط المغزولة من الخارج أذ توفر مصاريف النقل والجمارك وارباح الوسطاء . ولأن أجر العامل المصرى أرخص من اجور العمال فى الممالك الاخرى وذلك لكثرة الايدى العاملة فى مصر .

على أنه قد يعترض على هذه الصناعة ، بان جو القطر المصرى جاف . ولكن يلاحظ أن متوسط درجة الرطوبة فى بعض الجهات يكفى للقيام بتلك الصناعة . ومن المتيسر استعمال وسائل الترطيب الصناعى .

وقد عملت الحكومة على تشجيع الشركتين القائمتين بهذه الصناعة (صناعة غزل القطن ونسجه) وذلك بمنحها اعانة قدرها ٣٠ قرشاً عن كل قنطار من القطن يستعمل في صناعة الغزل والنسيج مهما كانت رتبته ووضعت لمنح الاعانة شروطاً أهمها : (١) ان تكون الاعانة على سبيل التجربة لمدة سنة قد تجدد أو لا تجدد أو تعدل (٢) الا تدفع الاعانة الا بعد تحقق وزارة المالية من المقدار المستهلك من القطن (٣) أن تقطع دفع هذه الاعانة متى بلغت الأرباح الممكن توزيعها على رأس المال المدفوع ٥٪ (١).

وقد اتفق أخيراً على تخفيض الاعانة الى ١٠ قروش تدفع الى أن تصل أرباح الشركة الصافية الى ٥ ٪ كذلك منحها الحكومة تسهيلات خاصة في شراء القطن . ويشغل في صناعة غزل المنسوجات القطنية نحو ٨٠٠٠ عامل وفي نسج الحرير نحو ٢٠٠٠ عامل .

٢٦ - ٣ : صناعة المباني : صناعة الأدوات اللازمة للبناء على جانب كبير من الأهمية . وأهم المصانع القائمة بذلك مصنع سورناجا . ويعمل به نحو ١٥٠٠ عامل ويقوم بصنع الطوب ، والبلاط ، والجبس ، والأسمنت .

٢٧ - ٤ : صناعة التعدين والتعجير : وأهم المعادن التي تشتغل بمصر هي البترول والفسفات والمنجنيز والمغرة واكسيد الجير وفي الجدول الآتي بيان مقدار المستخرج منها بالطن .

السنة	البترول	الفسفات	المنجنيز	المغرة واكسيد الجير
١٩٢٩	٢٧٢ و ١١٤	٢١٥ و ٣١١	١٩١ و ٤٧٧	١٠١٧
١٩٣٠	٢٨٥ و ٠٨٨	٣١٢ و ٠٨٢	١٢١ و ٢١١	١١٨٤
١٩٣١	٢٩٠ و ٠٠٠	٢٤٢ و ٢٠٥	١٠٠ و ١٩٥	٨٥٠

٢٨ - ٥ : صناعة السجائر : تنتج مصر أكثر السجائر في العالم ، ومعظم المصانع تابع لشركات أجنبية . وقد بلغ المصدر منها في سنة ١٩٢٩ ما قيمته ٣٥٢٠٠٠ جنيه وفي سنة ١٩٣٠

مبلغ ٣١٢ ألف جنيه ، وفي سنة ١٩٣١ يقدر الصادر بـ ٢٤٨ ألف جنيه ويلاحظ أن الدول الاجنبية تفرض رسوماً عالية على السجائر المصرية وهذا ما يقلل استهلاكها في الخارج .

٢٩ — ٦ : **صناعات الاطعمة** : من هذه الصناعات صناعة استخراج الزيت . ويوجد بمصر عدة معاصر ، فهو يستخرج من بذور الخس وبذور القطن والسمسم والقرطم . ومنها صناعة المكرونة وقد تقدمت اخيراً في مصر وبعض مصانعها مملوكة للمصريين . ومنها صناعة البيرة . وتقوم بها شركة « بوموتى والاهرام » ومركزها بالاسكندرية ولها فرع في الجيزة .

٣٠ — **صناعات أخرى** : ولا يتسع المقام هنا لدراسة جميع الصناعات الباقية فنكتفى بالإشارة الى أهمها وهي : صناعة السجاد — وقد أنشأت مصلحة التجارة والصناعة مصنعاً نموذجياً لتعليم وتدريب الفتيات حتى تصبح من الصناعات المنزلية . والصباغة وهي من الصناعات الملحققة بصناعة النسيج . وصناعة المواشير . وصناعة الأحذية وقد تقدمت في المدن الكبرى ولا سيما في دمياط . وصناعة دبغ الجلود وصناعة الاثاث وقد أنشأت مصلحة التجارة والصناعة معرضاً للاثاث يسترشد به الصناع في أعمالهم . والطبع ، والروائح والاسمنت ، والصابون والشمع وضرب الأرز ، والورق إذ يوجد في الاسكندرية مصنع لورق اللف يشغل به نحو ٥٠٠ عامل منهم ٤٥٠ من المصريين . وصناعة الكحول . وصناعة العاج . وصناعة البضائع الجلدية . وصناعة صيد الأسماك . وقد أنشأ بنك مصر شركة لمصايد الأسماك لاستغلال مصايد الأسماك وتحويلها الى منتجات صناعية . هذه النبذة الموجزة تدل على أن في مصر حركة صناعية وانها قد تقدمت تقدماً محسوساً وان كان معظم المصانع لا يتبع الطرق الحديثة في الانتاج .

٣١ — **مستقبل الصناعة في مصر** : ان الزراعة عاجزة كما بينا عن الوفاء بمطالب شعب يزداد سكانه ازدياداً مضطرباً ، ويحتاج الى ترقية مستوى المعيشة لافرادهم . فلا بد اذن من الاهتمام بالصناعة لا سيما وعناصر الانتاج الصناعى متوافرة لدينا فالأيدى العاملة موجودة بكثرة وهي أرخص منها في الممالك الأخرى . وقد ورث العامل المصرى شيئاً ه — حضارة مصر

من نشاط اسلافه الأقدمين ، فلا ينقصه الا التعليم الفنى والقرين وهو ما نرجو أن تزداد عناية الحكومة به . كذلك الخامات النباتية متوفرة . فمصر تنتج اغنى الحاصلات النباتية . كما أن الطبقات الأرضية فيها كميات وافرة من البترول والمالجنيز والفوسفات الخ . ويمكننا أن نستخدم القوى المائية المدخرة فى خزان أسوان لتوليد الكهرباء . فلم يبق الا أن يقبل المصريون على استخدام رؤوس اموالهم فى المشروعات الصناعية .

أما القول بأن عدم وجود الفحم فى مصر يمنعها من أن تكون قطراً صناعياً ، فما لا شك فيه أن بعض الآلات الحديثة تدار بالبترول ، ووجود آبار البترول فى بلادنا يحل مشكلة الوقود الى حد ما ، كذلك امكان توليد الكهرباء من خزان اسوان يخفف كثيراً من مضار عدم وجود الفحم فى بلادنا .

والأزمة العالمية الحاضرة تبين لنا بكل جلاء خطر الاعتداد على محصول واحد . فواجب الأمة اذن هو السعى فى أن نكون أمة صناعية وأن نعمل على تشجيع مصنوعات بلادنا . أليس من المحزن أن نرى المصرى يحتقر صناعات بلده ولا يهتم الا بكل ما هو أجنبى ؟ لاحظت ذلك لجنة التجارة والصناعة فقالت فى تقريرها بعبارة بليغة : « واذا اعتبرنا الأمر ، من حيث شرف الأمة ومجدها فهل يليق بأولئك الذين يطمحون الى اعلام شأن بلادهم ألا يحركوا ساكناً وهم يشاهدون مع زوال الصناعة الوطنية زوال تلك الروح الفنية وذلك الذوق البليغ الذى طالما بالغ أسلافهم فى تهذيبه وارهافه ؟ كان للصناعة المصرية طابع مخصوص تمتاز بها طوائفها وتقدر به فى جميع الآفاق ما أثرها . وقد كانت أخلاق المصريين مؤتلفة مع أساليب الصناع وأذواقهم موافقة لمنازع أرباب الفنون . فلما تدفقت على البلاد واردات البضائع الأجنبية فقد القطر مميزاتة الذاتية وعدم استقلاله من الوجهة الفنية والاجتماعية . ففى أى مظهر من مظاهر الحياة نظرنا سواء فى الأثاث أو فى الملابس أو فى المباني وجدنا الذوق الأجنبى سائداً متسيطراً وألفيناه متمثلاً فى أوضاع مختلفة كل الاختلاف ومتنافرة أشد التنافر . كل ذلك والذوق المصرى مطرح فى زاوية الإهمال ، مقضى عليه بالانكار . وان فى قيام هذه الحال لاعتداء صريحاً على قومية الأمة وتحيفاً مبيئاً لاستقلالها الأدبى وما أخلاق الأمة وثروتها الفنية الاجزاء من المصالح العامة التى نحن حراس لها وأمناء عليها .

٣٢ - فالحركة الصناعية فى مصر جديرة بالتشجيع والمساعدة من جانب الحكومة وذلك بواسطة تدبير المال للصناعات . ويتحقق هذا بانشاء بنك للقيام بعمليات الائتمان

الصناعي ، واعفاء المشاريع الصناعية من الضرائب بما فيها ضريبة المباني في السنين الأولى من انشائها ، وتخفيض أجور نقل المصنوعات الوطنية ، واعطاء منح للإنتاج ، وفرض رسوم جمركية مرتفعة على الواردات الى الوقت الذي يتسنى فيه للصناعة أن تسير بدون معونة الدولة وانشاء مصانع نموذجية ومعارض ترشد الصناع في أعمالهم ، وتفضيل المصنوعات الوطنية في مناقصات المصالح الحكومية .

٣٣ . — وقد عمدت الحكومة الى اتباع سياسة تعضيد الحركة الصناعية . وذلك أنها أبدلت النظام الجرمي الموروث عن تركيا بنظام جعلت فيه الرسوم نوعية وراعت في تحديدها حماية الانتاج الزراعي والصناعي بفرض رسوم مرتفعة على الأصناف التي ينتج مثلها في مصر . كذلك عدلت في أجور النقل لمصلحة المنتجات الوطنية ، وقررت تفضيل العروض الوطنية في المناقصات الحكومية ، وقامت لمصلحة التجارة والصناعة بانشاء مصنع نموذجي للسجاد ومصبعة نموذجية وهي على وشك أن تنشئ مصنعا لبديع الجلود وآخر للزجاج . ولم تهمل الحكومة الجانب الاجتماعي في الحركة الصناعية فانشأت مكتباً للعمال يبحث في طرق معالجة البطالة .

٣٤ . — واذا فكرنا في الصناعات التي يجب أن نبدأ بها في مصر فأرى أن نختار الصناعات التي تتوافر فيها الشروط الآتية (١) أن تكون مادتها الخام موجودة في مصر (٢) ألا تحتاج الى وقود كثير (٣) وأن تكون لهذه المصنوعات سوق في مصر أى يمكن تصريفها داخل البلد . ومتى تقدمنا في تلك الصناعات أمكن أن نخطو خطوات أخرى . وهذه الشروط متحققة في الصناعات الآتية : الزجاج ، الورق ، غزل ونسيج الصوف ، الأطعمة المحفوظة ، الطرايش ، العلب الصفيح ومخلفات الحيوانات .

٣٥ . — والخلاصة أن بلداً كمصر تتوافر فيه الأيدي العاملة النشيطة الصابرة ، والمواد الأولية التي تقدمها له الزراعة ، وفي طبقاتها الأرضية كثير من الثروات الكامنة ، ويمكنها موقعها الجغرافي من استيراد المواد التي تحتاج اليها بسهولة لجديرة بأن يكون لها قسط كبير في الحركة الصناعية .

وربما كان الوقت الحاضر مناسباً لتشجيع الصناعات الوطنية ، نظراً لانخفاض قيمة الجنيه المصرى تبعاً للجنيه الانجليزي ، إذ يؤدي هذا الانخفاض الى ارتفاع السلع

المستوردة من الممالك التي تتبع قاعدة الذهب فيجد المصريون من مصلحتهم أن يحصلوا على السلع التي تفسر الحاجة اليها داخل القطر اذا كان ذلك متيسراً .
واذا كانت البيئة الطبيعية جعلت مصر قطراً زراعياً لخصوبة أرضها ، وانتظام مياهها ، واعتدال مناخها ، فإن تضافر سكانها وبذل جهودهم في سبيل رفها سيوجههم الى الناحية الصناعية ، فيقدمون على توظيف رؤوس أموالهم في المشروعات الصناعية ويقبلون على التعليم الصناعي ، ويجعلون من بلادهم قطراً زراعياً وصناعياً حتى تستطيع أن تتبوأ مكانها اللائق بأقدم مدنية في التاريخ .





الاستاذ سلاه موسى

الفروع والصانع

حضرة الاستاذ سلام موسى

لم يكن العامل المصرى يختلف فى بداية القرن الماضى من العامل الاوربى فى نهاية القرون الوسطى . كما لم تكن الهيئة الاجتماعية المصرية تختلف من الهيئة الاجتماعية الاوربية . فقد كان هناك نظام للصناعات يدعى نظام الجايلد . وكان يقابله فى مصر نظام الطوائف .

والطائفة هى هيئة ينتظم فيها العامل أى الصانع يدخل صيماً ثم يرتقى الى صانع ثم يرتقى بعد ذلك الى معلم . وللطائفة شيخ له حق معاينة العامل وتحصيل الضرائب منها . والوساطة بينها وبين الحكومة .

وهذا النظام عاش فى اوربا ومصر فى القرون الوسطى وهذه القرون قد امتدت إلى بداية القرن الماضى فى مصر . وهو نظام يوافق الصناعات اليدوية . وقد مات فى اوربا عقب ظهور الآلات . وكذلك مات فى مصر لهذا السبب نفسه . فقد تزعر أيام محمد على الذى أسس مئات المصانع التى افلست فى حياته . فلما جاء سعيد باشا حرم على شيوخ الطوائف معاينة العمال . ثم لما كانت أيام اسماعيل عين موظفون حكوميون لجباية الضرائب من العمال فزال شيخ الطائفة بازالة حقوقه وواجباته .

هذا هو حال الصانع فى المدن . ولا يمكن أن نصفه بأنه كان حالاً سيئاً بل ارجح الظن انه كان الفرد الوحيد الذى يتمتع فى مصر بحقوق يسهر عليها شيخ الطائفة . اما حال العامل فى الريف أى الفلاح فكانت سيئة بل غاية فى السوء لأنه كان يعمل وكأنه يسخر . وكان الفرار من الزراعة مألوفاً . ويجب الا يبرح من أذهاننا أن العلة التى تعلل بها محمد على لشن الحرب على تركيا هى ايواء الجزار لبعض الفلاحين الذين فروا الى عكا . وحالة الفلاح فى ذلك العهد يكفى فى بيانها هذه الكلمة التى نقلها عن تاريخ مصر للاسكندرى وسفدج . وكانت حالة الفلاح المصرى فى هذه الفترة غاية فى الشقاء والبؤس . اذ أنقل عاتقة محمد على بالضرائب وبتسخيره فى حفر الترع وتجنيدته تجنيداً اجبارياً . وقد أثرت فيه هذه

العوامل تأثيراً شديداً فكان يهلك من المصريين الآلاف في حفر الترع ونحت تعذيب محصلي الضرائب . ولما ضاقت الحال واشتد الكرب بالناس هاجر خلق كثير من سكان الوجه البحرى إلى بلاد الشام .

ولم يكن الفلاح على هذه الحال من البؤس أيام المماليك ولكنه كان في حالة قريبة منها . ومنذ أيام محمد على إلى الآن نجد تطوراً جديداً أخذ يعكس الحال القديمة . فان الفلاح كان مدة المماليك ومدة محمد على في أسوأ حال ليس له أى حق معترف به . يفر من الريف ويهجر مصر إلى الشام ، بينما كان للصانع حقوق يسهر عليها شيخ الطائفة .

ولكن هذه الحال أخذت تتطور لمصلحة الفلاح وخاصة بعد الاحتلال الانجليزى . بينما حالة الصانع أخذت تسوء لأن الصناعات الوطنية صارت تموت لغارة المصنوعات الأجنبية عليها . فقد كانت صناعة الغزل والنسيج منتشرة في انحاء البلاد يعيش منها ألوف الصانع . كل منهم صانع ومالك في آن واحد ، له مهارة الصانع وكرامة المالك . ولكن عندما اخترعت آلات الغزل والنسيج في أوربا ركدت هذه الصناعة عندنا واضطر كثير من النساكين أن يبحثوا عن عمل آخر . وهكذا الحال في صناعات أخرى يدوية . فانها ماتت اوركدت لأن المصانع الاوربية قتلتها بما أوردته وما زالت تورده إلينا من مصنوعاتنا .

ان ظهور الآلات هو عامل كبير جداً في تطور العمل سواء للصانع او الفلاح . فقد أحالت الآلات صانعنا القديم إلى عامل أجير . وقد بدأت منذ نحو عشرين سنة تنتشر بين الفلاحين وخاصة في التفاتيش أى الضياع الكبيرة التى يملكها كبار الأغنياء . فان هذه التفاتيش تستعمل الآلات البخارية والكهربائية والموتورية للرى والحراث والحصاد والنقل . وأصبح كثيرون من المتوسطين يستعملون المحراث الموتورية للحراث والرى .

ونشأ من هذه الحالة الجديدة أن تفشت البطالة بين الفلاحين حتى لقد اكتسبت الصناعات في المدن في السنوات العشر التى تقع بين سنتي ١٩١٧ و ١٩٢٧ : ٥٨ : ١٢٧ عامل معظمهم من الريف . والدليل على ذلك أن الزيادة في هذه الصناعات بلغت ٣٠ ٪ . بينما هى لم تبلغ في سكان القطر سوى ١٢ ٪ . فكان الفرق وهو ١٨ ٪ . قد جاء من الريف . ولماذا جاء هؤلاء من الريف ؟

جاءوا لأن التفاتيش الكبيرة استعملت الآلات فاستغنت عن الايدى العاملة . فهجر العمال قراهم إلى حيث يجدون عملاً في المدن . وقد وجدوه في هذه الصناعات

ان عالم العمال في مصر الآن بما فيه من بيئة القرية وبيئة المدينة يجابه مسألتين —
الأولى هي تفشى البطالة .
والثانية هي الفاقة البالغة .

فاما تفشى البطالة فيرجع في الريف والمدن الى استعمال الآلات التي تغني عن الأيدي العاملة . ولو كان عندنا صناعات يدوية أو حتى آليّة في المدن تبلغ من الكثرة والتقدم حداً تستطيع فيه أن تستوعب العمال العاطلين في الريف لحفت ضائقة البطالة بعض الشيء . ولكن الواقع أن صناعتنا ما تزال قليلة ومتأخرة .

ويجب أن ننبه هنا الى ان البطالة الآن في الريف اشد وأخطر بين الفلاحين مما هي بين الصناع والعمال في المدن . فإينا يوجد تفتيش يبلغ زمامه الفأ أو الفين من الأفدنة نجد الى جنبه مئات من الأهالي الفقراء الذين ترى على اجسامهم اعراض الامراض التي تنشأ من القحط . وذلك لانهم لا يعملون في العام كله سوى سبعين أو ثمانين يوماً ، وسائر أيامهم يقضونها في بطالة وجوع .

ولو كان هناك احصاء يجري مع تبادل الثقة بين العمال والقائمين بالاحصاء لبلغ العاطلون على اقل تقدير نحو مليون نفس بين الفلاحين وحدهم . ونحن لا يمكن أن نسمى انفسنا امة متمدة ما لم تنتظم لنا ادارة تحسن احصاء العاطلين وتعالجهم .

.....

أما الفاقة فهي المسألة الثانية التي يجب علينا جميعاً أن نجابهها . فان العامل العاطل نكبة واضحة وكارثة يعترف بها الجميع . أما العامل الذي يعمل ثم هو مع عمله لا يحصل الا على اسوأ المطعم والمسكن لان أجره قليل فان نكبته غير واضحة . وهي تحتاج الى تعليل وشرح .

واعظم اسباب الفاقة في مصر اننا نقتصر على الزراعة ثم نحاول أن نعيش ونقتني ادوات الحضارة التي لا يطبق التفقة عليها سوى الامم الصناعية . ولذلك نرهق الفلاح بضرائب باهظة لكي تنفق على ادارة حكومية تعمد حتى في الامم الصناعية غالبية غلاء فاحشاً . فان مراتب الوزراء وماهيات كبار الموظفين ثم وفرة هؤلاء الموظفين قد أصبحت عبئاً كبيراً على الأمة . ونحن الى الآن امة زراعية فقيرة لا تطبق هذه التكاليف وسبب آخر للفاقة انه يملك نصف الأرض الزراعية اقل من ١٣٠٠٠ نفس .

وسبب ثالث أن الضرائب والرسوم المفروضة على الأرض كبيرة جداً .
وسبب رابع أن معظم الأرض الزراعية مرهونة للبنوك تؤدي لها أقساط كبيرة
كل عام

فهذه الأسباب مجتمعة تجعل الفلاح يعيش في حال أسوأ الحال من الفاقة . ولنا
نستطيع زيادة أجره إلا إذا خفضنا الضرائب والرسوم والاقساط المفروضة على الأرض
أو إذا عمدنا الى نوع من التعاون ينقص التكاليف . ولكن نقص التكاليف يزيد البطالة
بين الفلاحين .

وربما يكون الحل الوحيد لمعالجة الفاقة في بلادنا هو زيادة الحركة الصناعية قوة

.....

ولكن علينا مع تشجيع الحركة الصناعية أن نعاون العمال على أن ينهضوا وينظموا
انفسهم في نقابات تدافع عن حقوقهم وتكسبهم روح الجماعة وتساند العصبة . كما انه علينا
ايضاً أن نقدم لهم معظم الاصلاحات التي ننجح زملاؤهم في اوربا في تحقيقها .
وكثيراً ما نسمع كلما ذكرت الاصلاحات الاجتماعية التي يتمتع بها العمال في اوربا
انها لا تلائم عمالنا أو هي كما قيل منذ اسبوع بمثابة الثوب الكبير للطفل الصغير .
والغريب أن هذا الكلام لا يقال عن مرتب ضخيم يتناوله موظف كبير يرى نفسه أن له
الحق في أن ينزل على قدم المساواة مع اكبر الموظفين في العالم المتمدن بل يزيد عليهم
احياناً كما هو الواقع الآن اذ أن مرتب رئيس الوزارة عندنا اكبر من مرتب رئيس
الوزارة البريطانية أو أى وزارة اخرى في العالم

.....

أن كل من يقرأ تاريخ نهضة العمال في اوربا لا يسعه إلا أن يرى أن النقابة كانت
اساس هذه النهضة . ولهذا يجب أن نحزن طويلاً للمقاومة العنيفة التي يجدها تأليف
النقابات عندنا من الحكومة .

وقد مضى على الحركة النقابية في مصر مدة كانت يجب أن تكفى لنرى هذه الحركة
الآن قوية منظمة . وكان يكون لنا في نظامها كل خير . فانه لا شيء ادعى الى الاستتباب
والبعد عن التزعزع من توجيه نظر العامل الى النظام في العمل وتحقيق المطامع المشروعة
عن سبيل النقابة . وليست النقابات في زماننا سوى البديل الذي تقتضيه حاجة العصر

الجديد من تلك الطوائف التي كانت حية نشيطة أيام الصناعات اليدوية . وهى الطوائف التي قلنا انها ماتت فى القرن الماضى .

والواقع أن النقابة ألزم اليوم للعامل أو الصانع من الطائفة فى القرون الماضية . لأن العامل كان فى القرون الماضية مالكا أى يملك مصنعه أما الآن فهو أجير فى مصنع كبير يمكن لصاحبه أن يستبد به فينقص أجره أو يزيد ساعات عمله أو يطرده .

.....

وفى مصر حركة نقابية اذا وجدت تشجيعاً ورعاية من الحكومة سارت فى ضوء النهار . أما اذا وجدت عداً ومقاومة اضطرت بطبيعة الحال أن تستحيل الى حركة عصائية تسير فى الظلام . وليذكر ولاية الأمور عندنا انه ليس فى العالم دولة متمدنة لا يكون بين وزاراتها ووزارة للعمال . بل فى ايطاليا ووزارة للنقابات .

ويرجع تاريخ الحركة النقابية فى مصر الى سنة ١٨٩٩ حين أنشئت نقابة عمال السجائر المختلطة ، أى المؤلفة من عمال مصريين وأجانب . ثم ظهرت سنة ١٩٠٨ نقابة عمال الترام المختلطة . وفى سنة ١٩٠٩ ألف عمر لطفى بك « نقابة عمال الصناعات اليدوية » ثم سمدت الحركة وبقيت فى خمودها الى سنة ١٩١٩ . وأخذت الحكومة تكافح هذه الحركة الى أن أوشكت أن تقتلها سنة ١٩٢٣ .

وقد ظهر أول اتحاد للنقابات سنة ١٩٢٣ على أيدي الشيوعيين فى الاسكندرية . ثم ظهر اتحاد آخر برئاسة عبد الرحمن فهمى بك سنة ١٩٢٤ والآن ينضوى العمال الى الاتحاد الذى يرأسه عباس حليم . وهذا الاتحاد لا يجد للأسف أى عطف من الحكومة

.....

ليس للعامل المصرى مشاكل تختلف من المشاكل التى يواجهها العمال فى العالم كله . فهو انسان مثلهم يؤذيه قلة الأجر وكثرة الجهد ويؤذيه المرض ويتألم فى الشيخوخة ، ويجوع ويتألم من الجوع عند البطالة . وله زوجة قد تصير أرملة أو أمأ وفى كلتا الحالتين تحتاج الى معاونة . والعمال فى الأمم المتمدنة يجدون هذه المعاونة ولكن العامل المصرى لا يجدها من حكومته هنا .

١ - ففى بريطانيا قانون خاص بالمسنين اذا بلغ العامل سن السبعين حق له أن ينال معاشاً يبلغ نصف جنيه فى الاسبوع . واذا كان أعمر صار له هذا الحق وهو فى سن الخمسين

- ٢ - وفي بريطانيا قانون للأرامل يحق به للأرملة من أى سن أن تنال عشرة شلنات كل أسبوع وتأخذ عن ابنها الا كبر ستة شلنات وعن كل ابن آخر ثلاثة شلنات كل اسبوع .
- ٣ - وفيها أيضاً قانون خاص بالمرضى يمكن العامل أو العاملة من التعالج مجاناً .
- ٤ - وفيها أيضاً قانون للبطالة يحق به للعامل العاطل أن ينال مساعدة معينة مدة عطله الى أن يجد عملاً .
- ٥ - وفيها أيضاً مكاتب العمال . وهى ليست للرقابة على العمال بل لمساعدتهم والبحث عن أعمال لهم .
- ٦ - وفيها أيضاً حزب ونقابات منظمة قد اعترفت بها الحكومة لا لأنها حق للعامل بل لأن لها قيمة تهذيبية للامة كلها .
- وكل هذه الاصلاحات يجب أن تكون حقاً للعامل المصرى اذا أردنا أن نتوق الغلو الذى يؤدى اليه حرمانه مما يتمتع به اخوانه وزملاؤه فى اوربا .
- اذا أردنا أن نتقى الشيوعية وجب علينا أن نتسامح فى الاشتراكية . واذا أردنا أن نتقى العصابة وجب علينا أن نتسامح فى النقابة . واذا أردنا أن نتقى نتائج الحقد الذى يشعر به العامل عندما يعرف أن نصف أرض مصر يملكها أقل من ١٣٠٠٠ نفس وجب علينا أن نرفه عنه باصلاحات اجتماعية مختلفة ولا نتركه هو وأولاده يجوعون وقد نعطله بينما يتمتع رجل واحد بنحو ألف أو الفين من الأفدنة .





الاستاذ اسماعيل محمود القباني
استاذ بمعهد التربية

التعليم وارتصال الفكرى

محاضرة الأستاذ اسماعيل محمود القباني

لعل كثيرين منكم تولاهم شيء من العجب عندما قرأوا العنوان الذى نشر فى أول الأمر لهذه المحاضرة ، وتساءلوا ما العلاقة التى تجمع بين التعليم والمواصلات فتجعل منهما موضوعاً لمحاضرة واحدة ؟ * ولكن الصلة بينهما ليست فى الواقع بعيدة كما يبدو أول وهلة . ومع أن العنوان الحالى للمحاضرة ، وهو « التعليم والاتصال الفكرى » أوفى فى التعبير عن الغرض المقصود منها ، لأنه لا يصرف الذهن إلى المواصلات المادية وحدها ، لا يجوز أن ننسى أن المواصلات المادية وسيلة هامة من وسائل الاتصال الفكرى ، فتكون بذلك وسيلة من وسائل التعليم . وقد عرف الفيلسوف الانجليزى جون ستيوارت ميل التعليم بأنه « الثقافة التى يعطيها كل جيل متعمداً للجيل الذى يخلفه كي يؤهله للاحتفاظ بمستوى الرقى الذى وصل هو اليه على الأقل ، ولرفع ذلك المستوى ان أمكن » . فالتعليم ، إذن ، ليس محصوراً بين جدران المدارس ، بل يشمل كل ما من شأنه أن يؤثر فى عقول الأفراد ونفوسهم ، فيوسع مدى أفكارهم وتجاربهم ، ويزيد فهمهم للحياة وغاياتها ، ويسمو بمشاعرهم ووجداناتهم ، ويرسم لهم الامثال العليا لئكى يعملوا على الوصول اليها . فالمطابع والمنابر ، ودور التمثيل والسينما ، والمتاحف والمعارض ، ووسائل المواصلات التى تسهل انتقال الأفكار هذه كلها عوامل للتربية والتعليم لا تقل قيمتها عن قيمة المدارس . بل انى أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان التعليم المدرسى ليس إلا إعداداً للتعليم الحقيقى الذى نحصل عليه من هذه العوامل الأخرى . فالكلام عن التعليم لا يكون كاملاً إلا إذا شمل جميع هذه النواحي .

* أعلنت هذه المحاضرة فى أول الأمر بعنوان : « التعليم والمواصلات » .

على أنه يتعذر على في محاضرة واحدة أن أتوسع في الكلام عن كل عامل من هذه العوامل وكل ما أطمع فيه هو أن أرسم لكم صورة اجمالية تبين مقدار تقدم التعليم وحالة النهضة الفكرية في مصر في الوقت الحاضر .

ومع أن مصر كانت في تاريخها الأول مهد الحضارة والمدنية ، وفي القرون الوسطى مناراً للعلم والعرفان ، فإن النهضة التي نشاهدها الآن حديثة العهد جداً ، ولا تسكاد متصل بذلك التاريخ الماضي . فانه لما جاء نابليون بحملته الى مصر في آخر القرن الثامن عشر ، كان أهلها غارقين في ظلمات عميقة من الجهل وضيق الفكر . كان التعليم فيها مقصوراً على الجامع الأزهر وعدد من الكتاتيب المنشأة من أموال الأوقاف الخيرية . ولم تكن هذه الكتاتيب كثيرة إلا في القاهرة ، كما أنها لم تكن تعلم غير القراءة والكتابة وشيء من القرآن . وأما الأزهر فكان منذ القرن السادس عشر في حالة تأخر وعزلة فكرية . وكان الطلبة الذين يأتون اليه قليلي العدد ، والتعليم فيه لا يخرج عن دراسة ما ألف في القرون الوسطى في علوم اللغة والدين . أما العلوم المدنية الحديثة فلم يكن لها أثر في مصر . ولم تكن فيها صحيفة أو مجلة تقرأ ، ولا مطبعة تطبع فيها الكتب . ولم يعرف فيها كاتب نابه ، ولو وجد كاتب كهذا لم يوجد من يقرأ له ، لأن الأهالي كانوا في شغل شاغل عن العلم وأمور الفكر .

واستمر الحال هكذا الى أن استتب الأمر لمحمد علي . فلما شرع هذا الرجل العظيم في تنظيم شؤون البلاد واصلاح ادارتها ، شعر بالحاجة الى رجال متعلمين ، يمكنهم الاضطلاع بالأعمال الفنية في الجيش والمصالح الادارية . فارسل البعث الى أوروبا لدراسة مختلف العلوم والفنون ، وفتح مدارس كثيرة للتعليم على النظام الغربي ، منها خمسون مدرسة ابتدائية وثانوية انشئت في آخر حكمه على نمط مدارس الليسيه بفرنسا . ثم انه عهد الى رجال البعثات بعد عودتهم بترجمة الكتب الدراسية في جميع العلوم ، وطبعت هذه الكتب في المطبعة التي انشأها بيولاك .

وتقلبت حال التعليم الجديد في عهد الولاة الذين خلفوا محمد علي تبعا لنزعات كل وال وللحالة المالية في عهده . ففهم من كان يغلق المدارس ويضيق نطاق التعليم . ومنهم من عني به وأففق عليه بسخاء . ومع أن هذا التعليم كان له أثر محمود في توير الازدهان ، وبدأت بوادر النهضة الفكرية تظهر في عهد الخديوى اسماعيل ، فالدافع الحقيقي لفتح

المدارس لم يكن ، الى وقت قريب ، يختلف عن الغرض الذى قصده محمد علي منها ، وهو اعداد موظفين للآلة الحكومية .

ومما يجدر بالذكر ان لجنة الفت سنة ١٨٨٠ للنظر فى حالة المدارس وضعت تقريراً عظيم القيمة ، يشتمل على اصلاحات جمّة وعلى برنامج قومى لنشر التعليم ، اقترحت فيه انشاء مكتب من الدرجة الثالثة بكل قرية يبلغ عدد سكانها من الفين الى خمسة آلاف نفس ، يعلم فيه القرآن والديانة والقراءة والكتابة والحساب ؛ ومكتب من الدرجة الثانية فى كل مدينة يبلغ عدد سكانها من خمسة آلاف الى عشرة آلاف نفس ، يعلم فيه ، علاوة على المواد السابقة ، التاريخ ومبادئ التاريخ الطبيعى والهندسة العملية والرسم ؛ ومدرسة ابتدائية على النظام الغربى لكل ١٠٠٠٠ نفس من سكان المحافظات وعواصم المديريات والمدن المهمة . وقد عاقت الحوادث السياسية التى حدثت عقب ذلك تنفيذ هذا البرنامج لسوء الحظ . ولكن لما استقر الامر اخذت الحكومة ، ابتداء من سنة ١٨٨٥ تعمل على تنظيم التعليم ونشره ، مسترشدة بما فى تقرير اللجنة السالفة الذكر من الآراء والمقترحات . ولما شعر المصريون بمزايا التعليم ، عظم اقبالهم عليه ، بعد ان كان التلاميذ فى ايام محمد علي يجندون للدارس كما يجند الشبان للخدمة العسكرية . وتمشت الحكومة مع هذا الاقبال بقدر ما سمحت به مواردها المالية . فحوت عدداً كبيراً من الكتاتيب القديمة الى مكاتب من النوع الذى سمته اللجنة مكاتب الدرجة الثالثة ، وفتحت عدة مدارس ابتدائية جديدة ، ووسعت نطاق التعليم الثانوى وأصلحت مناهجه ، وأصلحت نظم المدارس العليا والفنية التى انشئت فى عهد محمد علي واسماعيل ، وفتحت غيرها تدريجاً بحسب حاجة البلاد ، واستمرت على ارسال البعث العلمية الى اوربا ، وزادت العناية بتعليم البنات الذى بدأ فى عهد اسماعيل ، ولم تكن له تحت اشراف الحكومة حينئذ الا مكاتب معدودة ومدرستان ابتدائيتان ، فزيد عدد هذه المكاتب والمدارس تدريجاً .

وفى أول القرن الحالى اشتد الشعور الوطنى فى الأمة المصرية ، وأخذت الطبقة المتعلبة فيها تشعر بالكرامة القومية ، واحتاجت نفوسها بأمانى الحرية والرقى . وقد أدركت أن عظمت أية أمة لا يمكن أن تبنى الا على أساس متين من العلم والثقافة ، ورأت أن جهود الحكومة لا تروى عطش الأمة الى التعليم ، فهبّ الأهالى لتكميل النقص ، وفتحت مئات من المدارس الأهلية تحت اشراف الأفراد أو الجمعيات الخيرية . وتوج

هذا المجهود بإنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨ بأموال اكتتب بها الاهالى وبإشراف نفر من كبار المفكرين فى مصر . وبقيت هذه الجامعة مستقلة فى ادارتها الى سنة ١٩٢٣ ، وكانت فى خلال هذه المدة منبعاً للثقافة الحرة ، ومركزاً علمياً أمه الكثيرون ممن كانوا يطلبون العلم للعلم لا للوظيفة .

ولما رأت الحكومة هذا النشاط العلمى من جانب الأمة ، عملت على مسيرته ، فمُنحت مجالس المديرية فى سنة ١٩٠٩ سلطة فرض ضرائب محلية وصرفها فى نشر التعليم . وقد أنشأت هذه المجالس مدارس ابتدائية فى كثير من المراكز ، واكثرت من فتح المكاتب فى القرى ، وتولت اعانة الصالح من المدارس والمكاتب الاهلية ، كما أنشأت بعضها مدارس صناعية وزراعية . فكان لعملها اكبر أثر فى نشر التعليم بين طبقات الشعب .

وهناك صنف من المدارس لا ينبغى أن ننسى فضله ، وهو يشمل المدارس التى أنشأتها الجاليات الاوربية والبعثات الدينية الاجنبية فى مصر . وقد فتحت المدارس الاولى منها فى عهد محمد على ، وزاد عددها بإطراد الى الوقت الحاضر . وكان الغرض الاصلى منها تعليم أبناء الجاليات الاجنبية التى تنتمى اليها . ولكنها لم تلبث أن اجتذبت اليها عدداً من المصريين قدروا التعليم فيها حق قدره ، لاسيما تعليم البنات الذى لم يكن له مكان يذكر فى المدارس الحكومية الى وقت قريب . وبعض تلك المدارس أنشئت للمصريين خاصة ، كالمعهد الذى نحن فيه الآن ، والذى أدى ، على رغم حادثته ، خدمات جليلة للتعليم والتقدم الاجتماعى فى مصر .

هذا مجمل نشأة التعليم على النظم الغربية . وقد بقى التعليم الدينى القديم الى جانبه ، محتفظاً بنظمه وتقاليده . نعم ان بعض الكتابيب حولت الى مكاتب حديثة كما سبق الذكر ، ولكن الكثير منها بقى على حاله ، مكتفياً بتحفيظ القرآن مع تعليم القراءة والكتابة . ومن أتم ذلك كان له أن يلتحق بالازهر أو بغيره من المعاهد الدينية . وقد تقلب الازهر طول القرن التاسع عشر فى أدوار شدة ورخاء ، وتأخر وازدهار ، ولكن التعليم فيه بقى على فطرته . فكان الطالب يدخله « مختاراً بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى فيه ما شاء أن يقيم . واذا آانس من نفسه علماً كافياً ومملكة يتمكن بها من إفادة غيره ، جلس الى التدريس حيث يجد مكاناً خالياً ، وعرض نفسه

على الراغبين من الطلبة . فكانوا اذا وجدوه على علم التفوا حوله وقبلوا يده ، واذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه . وتلك هى شهادة العالمية التى كان يعطاها العلماء ، (١) .

وفى سنة ١٨٧٢ تفرعت عن الازهر مدرسة دار العلوم ، التى قصد منها اعداد المعلمين للمدارس الحديثة ، وأدخلت فيها نظم ودراسات لم يكن للازهر بها عهد ، فكان لها أثر بارز فى النهضة الأدبية فى ذلك الزمن . وفى الوقت نفسه بدأت يد التنظيم تمتد الى الازهر فى شئ من التردد . فوضعت له عدة قوانين على التوالى ، حتى كانت سنة ١٩١١ فأدخلت عليه تغييرات جوهرية إذ قسمت الدراسة فيه الى ثلاث مراحل ، مدة الدراسة بكل منها خمس سنوات ، وأدخلت العلوم الحديثة فى كل مرحلة منها ، ووضع نظام لتعيين المدرسين وقبول الطلبة ، وسنت للانتقال السنوى وللتخرج امتحانات مثل امتحانات المدارس . وقد طبقت هذه القواعد على المعاهد الدينية الأخرى التى كانت موجودة والتى أنشئت بعد ذلك . وبالجمله طلى التعليم الدينى بطلاء النظم المدرسية الحديثة ، ولكن روحه لم تكد تختلف فى الواقع عن الروح القديمة ، الا اذا كان ذلك فى السنين الأخيرة ، إذ أعيد تنظيمه على شكل جديد .

من هذه النظرة السريعة تبين لنا حالة التعليم فى مصر الى سنة ١٩٢٢ ، عندما تسلمته الادارة الوطنية . وهو تعليم مزدوج : فمن ناحية مدارس أولية (مكاتب) يستطيع التليذ بعدها أن يتم دراسته فى المعاهد الدينية ، أو المدارس الشبيهة بالدينية كمدارس المعلمين الأولية ، وكان الى وقت قريب يستطيع أن ينتقل منها الى الورش الصناعية أيضاً . ومن الناحية الأخرى حلقة التعليم الغربى ، وهى تتكون من المدارس الابتدائية ، فالثانوية ، فالعليا ، وتتفرع عنها مدارس التعليم الزراعى والصناعى والتجارى المتوسطة .

فلما آل أمر التعليم الى الأيدى المصرية ، تضاعفت العناية بنشره ، واتسع نطاقه مع الرغبة المتزايدة فيه من الأمة . وقد اتخذ فى تحوله اتجاهات معينة ، أهمها الاربعة الآتية :
الاتجاه الأول : محاربة الأمية :

نص الدستور المصرى على جعل التعليم الأولى الزامياً . فتتفيذاً لذلك وضعت وزارة المعارف برنامجاً لتعميم هذا التعليم للبنين والبنات ، بالاشتراك مع مجالس المديرىات ، فى

(١) نقلا عن تقرير لجنة اصلاح الازهر المشكبة سنة ١٩١٠ تحت رئاسة المرحوم احمد فتحى زغلول باشا .

مدارس تسمى المدارس الالزامية . والتعليم بهذه المدارس مجاني ، ومدة الدراسة بها ست سنوات ، من السابعة الى الثالثة عشرة . وهي تختلف عن المدارس الالوية (المكاتب) في ان التعليم بها نصف يومى ، فيتعلم البنات فى الصباح ، والبنون بعد الظهر . والغرض من ذلك الاقتصاد فى النفقات ، وتمرين التلاميذ فى النصف الثانى من النهار على الاعمال الزراعية أو الصناعية التى يرغبون فى اعداد أنفسهم لها ، حتى لا يؤدى نشر التعليم الى هجر الفتيات للحقول والمصانع ، وسعيهم وراء الوظائف الكتابية . ويعنى فى هذه المدارس بتعليم القراءة والكتابة والديانة والحساب ، مع مبادئ بسيطة فى العلوم الاخرى التى تعلم بالمدارس الابتدائية ما عدا اللغة الاجنبية .

والمقرر الآن أن يتم انشاء المدارس اللازمة لجميع أطفال القطر فى سنة ١٩٤٧ . وكان عدد الموجود منها طبقاً لاحصاء التعليم فى سنة ١٩٢٩ ، ١٥٥٧ مدرسة تحت ادارة وزارة المعارف ومجالس المديرىات والمجالس المحلية ، يتعلم فيها نحو ٢٠٠٠٠٠ تلميذ وتلميذة . وهذا عدا المكاتب (المدارس الالوية) التى تديرها ، أو تشرف عليها ، الهيئات الرسمية ، وكان عددها يتجاوز ٣١٠٠ مكتب يتعلم بها نحو ٣٢٠٠٠٠ تلميذ وتلميذة ، وعدا المكاتب التى يديرها أفراد أو جمعيات مستقلة .

ورغبة فى سرعة القضاء على الأمية ، أنشأت وزارة المعارف ، بالاشتراك مع مجالس المديرىات كذلك ، أقساماً ليلية لتعليم العمال ، مدة الدراسة بها سنتان . وقد بلغ عدد طلابها فى سنة ١٩٢٩ نحو ٣٠٠٠٠ .

الاتجاه الثانى : ترقية التعليم العالى :

زيد عدد المدارس الثانوية زيادة مطردة منذ سنة ١٩٢٢ ، وكثر عدد المتخرجين فيها ، ووجهتهم الطبيعية هى الاستمرار فى الدراسة العالية . وكان بمصر فى تلك السنة سبع مدارس عالية تعد الطلبة للهن الراقية . ولم يكن بها معهد لنشر الثقافة الحرة ، التى لا يقصد منها الاعداد لمهنة خاصة ، الا الجامعة المصرية . ولكن فتور الهمم ونشوب الحرب العالمية وما جرت به من ضيق أضغفا مواردها المالية ، فلم تعد قادرة على القيام بعملها على وجه مرضى . فرأى القائمون بشئونها فى سنة ١٩٢٣ تسليمها الى الحكومة . وكانت دراستها محصورة فى المواد الأدبية ، فأنشأت الحكومة فيها كلية للعلوم ، وضمت اليها مدرستى الطب والحقوق ، وفتحتها للدراسة على نظامها الجديد فى سنة ١٩٢٥ . وقد استقدمت لها

كبار الاساتذة من اوربا ، وعملت على ترقية مستوى التعليم بها ، حتى أصبحت ، على رغم حداثتها ، مركزاً منتجاً للبحث العلمى ، وبدأت تنشر روحها فى الأوساط العلمية المصرية .

وأما المدارس العليا التى لم تلحق بالجامعة فقد عنت وزارة المعارف بإصلاحها وترقيتها حتى تكفى لاعداد الشبان المصريين للحلول محل القئين من الاجانب الذين أخذوا يخرجون من خدمة الحكومة المصرية منذ سنة ١٩٢٣ .

ورغبة فى سد الحاجة العاجلة الى مصريين متعلمين تعليماً راقياً ، توسعت الادارة المصرية فى ارسال البعثات العلمية الى بلاد الغرب . ولكنها بدأت تعدل عن هذه السياسة الآن ، اكتفاء بالتعليم الراقى فى الجامعة المصرية والمدارس العليا بعد اصلاحها .

الاتجاه الثالث : العناية بالتعليم الفنى :

كان من نتائج التعليم النظرى ، بنظمه المألوفة عندنا ، اخراج فئة من الشبان يترفعون عن العمل اليدوى ، ويتهيئون الكفاح فى ميدان الاشغال الحرة ، ويعلقون كل آمالهم على وظائف الحكومة . وليست هذه الحال مقصورة على مصر ، ولكن خطب مصر بها اكبر من خطب غيرها . وقد ساعدت على ذلك طبيعة النفس المصرية والاحوال التى بدأ فيها التعليم الحديث ، إذ كان الغرض منه ، كما يبتته ، مجرد إعداد الموظفين . وكان من السهل الى وقت قريب إيجاد الوظائف لكل من يحصل على قسط مناسب من العلم . ولكن الاقبال الشديد عليه أخل بالتوازن ، وزاد المتعلمون زيادة كبيرة على حاجة الوظائف . وهذه حال اذا استمرت فانها تهدد كيان الامة . فللخروج منها رأت وزارة المعارف أن تحول تيار المتعلمين الى التعليم الفنى ، من زراعى وصناعى وتجارى ، لأنه يؤهل الطلبة لأعمال الحياة والكفاح فى سبيل الرزق ، لاسيما وان البلاد قادمة على نهضة صناعية محسوسة . فأنشأت مدارس جديدة لهذه الأنواع من التعليم ، ووسعت المدارس الموجودة منها ، وعدلت من نظمها بما يرفع مستوى التعليم فيها . فأصبح يشترط لدخول الورش الصناعية الحصول على شهادة الدراسة الابتدائية ، وصار التعليم فيها هو التكملة الطبيعية لتعليم التليذ الذى ليس لديه الاستعداد للاستمرار فى الدراسة النظرية العالية . وهو تعليم عملى ونظرى معاً . ويستطيع الطالب بعدها أن ينتقل الى الاقسام الصناعية الثانوية ، أو مدارس الفنون والصنائع ، وهى تعدده للاعمال

الصناعية الراقية . واذ كان من الناجين فيها ، وحصل على شهادة الدراسة الثانوية قسم أول ، أمكنه دخول مدرسة الهندسة العالية .

ويقابلها في التعليم التجارى مدارس التجارة المتوسطة . وسيكون دخولها بعد أن يتم الطالب القسم الأول من الدراسة الثانوية . ومثلها مدارس الزراعة المتوسطة في التعليم الزراعى . فهذه المدارس الصناعية والتجارية والزراعية يمكن فى الواقع اعتبارها أنواعاً خاصة من التعليم الثانوى ، تعد للحياة العملية ، لا للدراسة النظرية العالية . والمبدأ الذى تقوم عليه صحيح ما دام يراعى فى انشائها حاجة البلاد الاقتصادية .

الاتجاه الرابع : العناية بتعليم البنات :

ان نسبة المتعلبات من الإناث فى مصر كانت فى سنة ١٩١٧ أقل من ٢ ٪ . وفى احصاء سنة ١٩٢٧ لم تتجاوز النسبة ٤ ٪ . بينما قد بلغت للذكور نحو ٢٠ ٪ . وهذا كاف للدلالة على تأخر تعليم البنات بالنسبة الى البنين . ومهما تكن الاسباب التى ادت الى هذا التأخر فى الماضى ، فإن رأى العام أخذ يشعر منذ زمن أن المرأة هى حجر الزاوية فى التقدم الاجتماعى ، وانه لا رقى لامة اذا بقيت نساؤها جاهلات . وقد تمشت وزارة المعارف مع هذا الروح فى السنين الأخيرة ، فصاعفت الجهود فى سبيل تعليم البنات . فجميع مدارس التعليم الإلزامى ، كما سبق الذكر ، تعلم البنين والبنات على السواء . وقد زيد عدد مدارس البنات الابتدائية ، وأنشئت لهن ثلاث مدارس ثانوية أميرية فى مصر والاسكندرية ، كما أنشئت مدرسة خاصة لبنات الأعيان فى الجيزة . ويوجد الآن عدد قليل من الطالبات يتعلمن فى كليات الجامعة المصرية ، جنباً الى جنب مع زملائهن من الطلبة .

ولم يقتصر هذا النشاط على وزارة المعارف ، بل كانت لجهود مجالس المديريات والجمعيات الأهلية اكبر نصيب فى نشر تعليم البنات ، مما يدل على تيقظ روح البلاد الى اهمية هذا التعليم . ومن الانصاف ان نذكر أن مجالس المديريات انشأت بضع عشرة مدرسة ابتدائية للبنات فى الاقاليم ، فى الوقت الذى لم يكن فيه لوزارة المعارف سوى مدارس قليلة فى مصر والاسكندرية .

هذه أهم الاتجاهات فى سياسة التعليم التى نسير عليها فى الوقت الحاضر . ولنقف الآن قليلاً للنظر فيما نجنه منها .

كثيراً ما يخطر للانسان ، وهو يشاهد هذا التوسع في التعليم ، أن يسأل : هل التقدم في نوعه كالتقدم الحاصل في كميته ؟ وهل هذه الجهود الكبيرة التي تبذل لتحقيق الغرض المقصود منها ؟ إن قيمة التعليم تتوقف على أثره في الحياة القومية . ونحن أمة ناهضة ، تريد أن تشق طريقها الى مستقبل زاهر يليق بها وبعظمتها الماضية . وهى خارجة من فترة خمول وضعة ، خلفت في حياتها من وجوه النقص والضعف الشيء الكثير . فهل ساعد التعليم على علاج هذه العيوب ؟ هل رفع مستوى ثقافتنا ، وهذب نفوسنا ، وجعل حياتنا أقرب الى الكمال مما كانت ؟

ان الناظر الى المجتمع المصرى الآن يرى نهضة فكرية ، قد تكون محصورة في فئات خاصة ، ولكنها نهضة حقيقية بارزة . فتعليم اللغات الأجنبية قد أوصل شباب مصر الى آداب تلك اللغات وعلومها ، وبدأ يطلعهم على أخلاق الأمم المختلفة ، وطرق تفكيرها ، ونظم حياتها ، والمقاييس التي تقيس بها القيم العقلية والأدبية . وتبع من هذا تنوير الأذهان ، وتوسيع الآفاق العقلية ، وتغيير نظرة الطبقات المتعلمة الى الحياة . وقد ساعدت على ذلك في السنين الأخيرة سهولة المواصلات وكثرة الأسفار . فالخطوط البحرية والجوية قربت المسافات بين مصر والخارج ، والتلغراف السلكى واللاسلكى هدموا الحواجز بين الأمم . فأصبحنا نقرأ في المساء أخبار ما يحدث في أقصى انحاء العالم في الصباح ، ونستطيع ، ونحن جلوس في بيوتنا ، أن نصغى الى محاضرة تلقى في لندن أو باريس ، ونسمع موسيقى الأوبرا في فينا أو نابولى . ولا يكاد يصدر كتاب ذو قيمة في أى قطر من الأقطار ، الا ويكون بين يدى القارىء المصرى فى بضعة أيام ، أو اسابيع قليلة . ولا تكاد تظهر قطعة تمثيلية أو أدبية رائعة ، الا ونقرأ عنها في صحفنا ، وقد نستطيع مشاهدتها على مسارحنا ، ودور السينما عندنا . كل هذه المؤثرات تعمل دائبة على إيقاظنا ، وتغيير عقليتنا .

ثم ان نشر القراءة والكتابة بين طبقات الشعب سهل توصيل الروح الجديد اليهم عن طريق الصحف والمجلات الكثيرة . فاخرجهم الى حردما من عزلتهم ، وصرت الآن تجد بين العمال المصريين من يحدثك عن الأفكار الاجتماعية الجديدة ، ويشعر بما له من حقوق ، وما عليه من واجبات ، ويدرك من الحياة شيئاً آخر غير اللقمة يسد بها رمقه ، والمعيشة الفطرية التي درج عليها من قديم الزمان .

كل هذا خير . ولكن المتأمل لا يستطيع أن يكتم شعوره بان المدارس لم تعمل كل

ما يمكنها عمله لمساعدة التطور الاجتماعى عندنا . ان الذى نشعر بنقصه فينا اكثر من كل شىء آخر ليس هو العلم ، وانما هو الوجدان الحى ، والمثل العليا الخلقية . ان كثيرين من شبانا الذين طلبوا العلم فى الجامعات الأجنبية بزوا زملائهم الأجانب فى التحصيل ، ولكنهم لما عادوا إلينا لم يستطيعوا النهوض بالأعمال التى كان يقوم بها هؤلاء . وكثير من النظم التى اخذناها عن الغربيين تحطمت فى أيدينا ، مع أنها ناجحة عندهم توتى أحسن الثمرات . فلماذا كل هذا ؟ ألنقص فى معلوماتنا ؟ كلا أيها السادة ! ليس هذا هو السبب الحقيقى . لنكن صريحين ، فليس من مصلحتنا أن ندارى عيوبنا . أن الذى يميز الأجنبى على المصرى ليس علمه فقط ، بل شعوره بالواجب والمسؤولية ، وغيرته على عمله ، و إخلاصه للمصلحة العامة ، وتغلبه على شهوات النفس ، وشجاعته الأدبية ، وصلابته فيما يعتقد أنه الحق ، وامثال ذلك من الصفات التى تبنى عليها عظمة الأمم . فإذا فعلت مدارسنا لغرس هذه الصفات فى نفوسنا ؟ لا أقول انها لم تعمل شيئاً ، لانه لا يمكنها الا تعمل شيئاً فهي اما أن تساعد على تنمية هذه الصفات فى نفوس تلاميذها ، واما أن تعوق نموها . وانى لأخشى شديد الخشية أن مدارسنا بنظمها الحالية تعوق هذا النمو .

وأهم سبب لذلك فى اعتقادى هو أننا اندفعنا فى نشر التعليم من غير أن نفكر التفكير الكافى فى الغاية التى نقصدها منه . فكل من له أدنى اتصال بمدارسنا اليوم يشعر أنه ليس لها من غاية الا حشو أذهان التلاميذ بمختلف أصناف المعلومات . تشهد بذلك مناهج الدراسة المثقلة بالمواد والموضوعات ، والتى تذبل عقول التلاميذ قبل أن تتمكن من استيعابها ، وتشهد بذلك العناية الخارقة للعادة بالامتحانات من كل صوب ، وتسابق المدارس تسابقاً هستيرياً للحصول على النتائج فيها بكل وسيلة مهما تكن هادمة لأغراض التربية الصحيحة . فإذا بعد ؟ ما الذى يكسبه التلاميذ من تكديس المعلومات فى عقولهم المسكينة ؟ ما أثر ذلك فى أخلاقهم ، وفى مستقبل حياتهم ؟

قد يقال ان تعلم العلم هو وظيفة المدرسة الأساسية ، وأنها لا تستطيع العناية بالأخلاق إلا عرضاً . ويلاحظ فى الجواب عن ذلك أن تعلم العلم شىء غير تكديس المعلومات ، وسأبين بعد حين أن تعلم العلم لا يمكن فصله عن تربية الخلق والوجدان . على أن القول بأن وظيفة المدرسة هى تعلم العلم قول عتيق ، انحدر إلينا من القرون الوسطى ، حينما كان التعلم مقصوراً على فئة صغيرة تريد الانقطاع للعلم . أما وقد أخذت الأمم بمبدل تعميم

التعليم ، فأن وظيفة المدرسة قد تغيرت ، لأننا لا نريد أن نحول الأمة كلها الى علماء . قد ذكرت لكم انه كان من نتائج التعليم في مصر تخريج طلاب وظائف ، لا يصلحون للعمل المنتج ، أو لا يرغبون فيه ، وذكرت أن هذه من أهم مشاكل التعليم عندنا ولا نزال نتلصس لها الحل . وعندى أن الحل الصحيح يجب أن يقوم على مبدأ أن الغرض من المدارس ليس تعليم العلم ، بل تعليم الفرد كيف يحيا حياة سامية نافعة . وإن من أهم ما كشفه علم النفس الحديث ان القوة الدافعة في حياة الانسان ليست هي الأفكار المجردة ، بل النزعات الوجدانية . فالفكرة لا تتحول إلى قوة في حياة المرء ، إلا اذا أحاطت بها عاطفة . لذلك فأن المدارس الحديثة لا تجعل غايتها تلقين العلم ، بل تربية الشخصية . وليس معنى هذا أن المدارس لا تعلم العلوم ، وإنما معناه أنها لا تجعل العلوم غايتها . الغاية التي يجب أن ترمى اليها هي بناء الخلق ، وتربية الوجدان . والعلوم التي تعلمها إنما هي وسيلة من الوسائل التي تستعملها لتحقيق هذه الغاية . فمن المهم أن يكون تعليمها محققاً للغاية التي تنشد لها ، لا هادماً لها . والعيب الذي يؤخذ على مدارسنا هو أنها توجه كل عنايتها للوسيلة ، وتضحى في سبيلها بالغاية .

قلت منذ قليل ان المدارس إذا لم تعمل على غرس الصفات الخلقية الطيبة في النفوس ، فإنها تغرس ضدها لا محالة ، لأن هذه المسألة ليس فيها موقف حياد . فالخلق ، كما يعرفه الكثيرون ، هو عادة الارادة . واردة التليذ تعمل في كل لحظة من لحظات حياته ، وفي كل حركة يأتيها في المدرسة . تعمل وقت اصغائه للدرس ، وتعمل وقت لعبه في ساحة المدرسة ، وتتأثر بسلوك أساتذته وزملائه نحوه . وبكل ما يقع تحت نظره . وكل أثر من هذه الآثار هو حجر يوضع في بناء خلقه سواء الى الخير أم الى الشر . تصوروا التليذ يتلقى درساً اياً كان ، لا يهمن ان كان في الجغرافيا . أو الرياضة . أو التجارة . أو امساك الدفاتر . قد يخيل لنا ان كل ما يعيننا هو تحصيله لموضوع الدرس . ولكن الحقيقة ان التليذ في أثناء التحصيل تنغرس في نفسه ، أردنا أو لم نرد ، اتجاهات كثيرة ، لها أبعد الأثر في حياته . فهو قد يحصل موضوع الدرس وفي الوقت نفسه يتعود البحث والتفكير والنقد والابتكار ، وقد يحصل موضوع الدرس وهو مجرد آلة مستقبلية لاتفكر لنفسها ، ولا تهتم بعمل ، بل تبقى منتظرة ان توجه وتقاد . قد يحصل موضوع الدرس على شكل يحبه اليه ويولد في نفسه الغيرة عليه ، وقد يحصل على شكل يبغضه اليه ويجعله يفر من العمل . قد

يحصل موضوع الدرس ، ويكون موقف معلمه منه بما يشعره بأن المدرسة إنما تعمل لنفعه ، وأن النظام والقانون إنما وجدا لمصلحة الجميع ، فتتربى في نفسه الغيرة على النظام والقانون والولاء للمجموعة التي ينتمى إليها ، وقد يكون الأمر على عكس ذلك ، فيشعر أن المعلم حاكم مستبد يرغبه على القيام بما لا يريده ، وأن المدرسة خصم له يعمل على معارضة ميوله ، وأن القانون والنظام ليسا إلا أداة للظلم والاستبداد ، فيثور على كل هذا ، وتنمو في نفسه الأنانية والفردية المعقوتة ، التي لا تعرف قانوناً إلا مصلحتها ولذتها . وعلى هذا النمط قد يكون سلوك المعلم بوجه عام مما يوحى إلى التلميذ بالمبادئ الخلقية الراقية ، ويثبت في نفسه المثل العليا السامية ، وقد يكون على النقيض من ذلك مما يربي فيه الاستهتار ، والنفاق ، ودناءة النفس . والذي يجب أن نذكره دائماً هو أن موضوع الدرس : من جغرافية ، أو رياضة ، أو طبيعة ، أو غير ذلك ، وإن يكن هو كل شيء بالنسبة إلى الامتحان ، شيء تافه في الواقع بالنسبة إلى حياة التلميذ . وأما المعلم ، الذي يجعل من التلميذ عضواً نافعا في المجتمع أو عالة عليه ، فهو هذه النزعات النفسية ، التي تتربى فيه عرضاً في أثناء الدرس ، والتي لا يعنى أحد بامتحانها والبحث عنها . فقيمة التعليم إذن ، ليست في كثرة المعلومات التي نقلها للتلميذ ، بل في استجابة نفس التلميذ لهذه المعلومات . والتعليم الحديث ليس تعليم معارف تحصل ، بل تعليم تجارب تكتسب . وهذه التجارب ، كما تكتسب في تحصيل العلوم المعروفة ، تكتسب في كثير من وجوه النشاط الأخرى . فلنخلع عنا إذاً رداء الأكاديمية الجامدة ونير الامتحانات الثقيل ، ولنعدل عن النظم الآلية التي تغلب على التعليم عندنا ، ولنساير التربية الحديثة فندخل في مدارسنا جو النشاط والحرية المنظمة ، التي تسمح للتلميذ بأن يريد ويعمل ، ويكتسب من تجارب الحياة ما يبنى به شخصيته . ولنذكر أن كل معلومات الأولين والآخرين لا يمكن أن تخطو بالمجتمع المصري خطوة واحدة في طريق الرقي ، إذا كانت تخرج لنا شخصيات محطمة ذابلة .

ويجب ألا نقصر هذا النوع الحيوي من التعليم على أبناء الخاصة الذين تمكنهم مواردهم من دخول المدارس الابتدائية والثانوية ، بل علينا أن نوسع دائرته حتى يشمل أبناء الشعب ، وهم الغالبية الكبرى من الأطفال . إن كل ما أعدناه لأبناء العامة هو التعليم اللازم . ومهما نقل عن المواد التي تعلم فيه ، فإن عمله في الحقيقة لا يخرج عن محور الأمة . وهذا غرض جليل في حد ذاته ، ولكن واجب الدولة لا يقف عنده إذ أن أول مبادئ

الديمقراطية التي نشدها هو ضرورة تربية كل فرد من أفراد الأمة تربية اجتماعية تعدد لأن يكون مواطناً صالحاً - وهذا هو واجب الدولة نحو نفسها - ثم إتاحة الفرصة لمن يؤهله استعداداً للوصول إلى أرقى درجات التعليم ، بصرف النظر عن ثروة أهله ومركزهم الاجتماعي - وهذا هو واجبها نحو أفراد شعبها . فأين كل ذلك في نظامنا ؟ أين التربية الاجتماعية في مدارسنا الإلزامية ؟ وماذا أعددتنا لمن يتمم التعليم بها ، اذا ظهرت فيه علامات النبوغ ؟ ان الطريق الوحيد المفتوح أمامه هو طريق التعليم الديني أو شبه الديني . وهذا باب واحد من أبواب التعليم العالي . فلماذا تقفل في وجه أبناء الشعب بقية الأبواب ؟ هبوا تليداً في المدارس الإلزامية ، تجلت فيه ، وهو في الحادية أو الثانية عشرة من عمره ، النباهة وحسن الاستعداد . ولكن ميله واستعداده لا يتجهان به نحو التعليم الديني ، فكيف يمكنه متابعة الدراسة الراقية ، والمدارس الابتدائية والثانوية مغلقة في وجهه ، بعد الشقة بين مناهجها ومناهج التعليم الإلزامي ؟ حتى الورش الصناعية ، التي كانت المنفذ الطبيعي لخريجي المدارس الأولية ، أقفلناها في وجوههم ، وأصبحنا نشترط لدخولها الشهادة الابتدائية ! فإذا لم تمكن أبناء العامة من التعليم الذي يعدهم لان يكونوا صناعاً حاذقين ، فما الذي نمكنهم منه ؟

إن في وزارة المعارف الآن لجنة تنظر في تنظيم التعليم الإلزامي وربطه بأنواع التعليم الأخرى . ونحن نتقدم اليها بالرجاء ألا تقتصر على ربطه بالتعليم الديني ، بل تنظر في تسهيل انتقال التلاميذ من المدارس الإلزامية إلى المدارس الابتدائية والثانوية في سن الحادية أو الثانية عشرة ، اذا وجد عندهم الاستعداد الذي يؤهلهم للدراسة الراقية .

وقد يتطلب هذا ترقية التعليم الإلزامي عن حالته الحاضرة . وهذه الترقية تتطلب المال ، ومن الصعب أن يتكلم الانسان عن مشروع يتطلب المال في إبان الأزمة الحاضرة . ولكن مما يجدر ذكره أن مكتب التربية الدولي بجنيف عمل في العام الماضي إحصاء بما تنفقه كل دولة على التعليم فكانت مصر من البلاد القليلة الصرف عليه بالنسبة الى ميزانيتها . إذ لو أخذنا البلاد القريبة منا في الميزانية ، نجد أن ايرلندا تخصص ١٥ ٪ من ميزانيتها للتعليم ، وهولاندة ٢٣ ٪ ، والمجر ١٦ ٪ ، ورومانيا ١٢ ٪ ، والسويد ١٩ ٪ ، وشيلي ١٨ ٪ ، والمكسيك ١١ ٪ ، بينما مصر لا تنفق على التعليم إلا ٨٥ ٪ ، من ميزانيتها . وفوق هذا فإن التعليم الإلزامي لا يصيب من هذه النسبة النصيب الذي يستحقه بالقياس

على أنواع التعليم الأخرى . وقد دلت التجارب على انه من الخطر على رقي الأمة الاجتماعية أن نباعد بين خاصتها وعامتها في التعليم الى الحد الذي نراه الآن . اذ تصيح كالمارد ، رأسه في السماء ، ورجلاه في التراب ، فتضعف الصلة بين الرأس المدبر والأطراف المنفذة .

على انه مهما تبلغ حال المدارس الالزامية أو غير الالزامية من الرقي ، فان التعليم لا ينبغي أن ينقطع عند مغادرة التلميذ للبدرة . بل إن قيمته لتتوقف على مقدار انتفاع التلميذ بوسائل التعليم الأخرى التي يعدها له المجتمع . ذلك أن المدارس ، كما ذكرت في أول المحاضرة ، لا تعلم وإنما تعد للتعلم . هي تزود التلميذ بأداة التعلم ، فإذا لم يستعمل هذه الاداة في مستقبل حياته ، لم تلبث أن يعلوها الصدأ ، ويذهب بها البلى ، ويضيع كل جهد بذل معه عبثاً . فما الذي أعده المجتمع المصري لتغذية روح الفتى والفتاة بعد تركهما المدرسة ؟ إن أقوى عدة لنشر الافكار يعرفها العالم الى الآن هي المطابع . ولكن قوة المطابع في مصر يحدها أمران : الأول عجزها عن الوصول الى السواد الأعظم من الأمة لجهله القراءة ، والثاني أن التأليف في مصر لا يزال في مهده ، ويندر فيه الجيد الذي يجمع بين الفائدة واللذة . ولست أرمى بهذا الى الكتب العلمية الفنية ، فقد ظهرت في هذه الناحية مؤلفات كبيرة الفائدة . ولكن الدائرة التي تؤثر فيها هذه المؤلفات دائرة ضيقة . أما الذي يستطيع النفاذ الى روح الصانع في مصنعه ، والفلاح في قريته ، والفتاة الساذجة في بيتها ، فيوحد بين هذه الأرواح ، ويساعد على تكوين شخصية قومية وعقلية مصرية ، تشترك في نظرتها الى الحياة ، فهو الأدب القومي . ولا أظنني مخطئاً إذا قلت أن هذا الأدب القومي ، الذي يستمد وحيه من الحياة المصرية وتجاربها ، والذي يعبر عن النفس المصرية ومشاعرها ، لم يتكون بعد ، وإن كنا نلمح شرارة منه من آن الى آخر في وسط الظلام ، مما يبشر بأننا على أبواب عصر جديد .

وهناك نوع آخر من المؤلفات أخذ ينتشر في البلاد الغربية ، وهو سلاسل الكتب الشعبية المبسطة في الموضوعات العلمية والاجتماعية . وقد ساعدت كثيراً على ترقية الحياة الفكرية في تلك البلاد ، وأساعت منتجات الفكر الحديث لأذهان الجماهير ، فقربت بذلك البعد بين رأس المارد ورجليه . ونحن في مصر أشد ما نكون حاجة الى هذا الصنف من المؤلفات . فلعل المؤلفين وهيئات النشر توليه القدر الكافي من عنايتها ، فتؤدي للجيش الناشئ أجل الخدمات .

واخراج الكتب لا يؤتى الثمرة المرجوة منه إلا إذا كان من السهل وصولها الى سواد القراء . ولا يتأتى هذا إلا بالكثارة من دور الكتب العامة . وقد عرفت الأمم الراقية لهذه الدور فضلها ، فلم تبخل عليها بالمال والجهد . وأضرب لكم مثلاً بانجلترا ، فان سلطاتها المحلية تعمل ، وفقاً لقانون صدر في سنة ١٩١٩ ، على إيجاد مكتبة في كل قرية مهما صغرت ، وجعلها مركزاً للبطالة والمحاضرات والأبحاث ، قائماً بذاته أو متصلاً بالمدرسة الأولية المحلية . ونحن بعيدون عن هذا في مصر ، ولا يمكننا أن نصل اليه في يوم وليلة . ولكنه لا يليق بأمة تنشده الرقي والثقافة ألا يكون بها من المكتبات العامة إلا ما يعد على الأصابع في القاهرة والاسكندرية والقليل من عواصم المديريات ، واكثرها خامل لا ينتفع به . ويستعملون في كثير من البلدان مكتبات متنقلة ، تمر في بلاد الريف في مواعيد معينة لاعارة الكتب . وهذه طريقة جديرة بالتجربة في مراكزنا الصغرى .

على أن المطابع في مصر ، اذا كان أحد جناحيها ، وهو الكتب ، مقصوداً ، فان جناحها الآخر ، وهو الصحافة ، قد نما وصار قوة يعتد بها . إذ إن نشر التعليم الأولى ، وقيام الحركة الوطنية التي نبض لها قلب كل مصري ، أديا الى زيادة انتشار الصحف والمجلات ، حتى أصبحت صحفنا اليومية الكبرى تعد قراءها بعشرات الألوف . وقد قال عنا اللورد كرومر يوماً من الأيام ، أننا أمة تستهويها الكلمة المطبوعة . وهو قول حق ، وليس فيه ما يمسنا ، لأنه يصدق على الجماهير في سائر الأمم . إذ من المعروف عن بلاد اللورد كرومر نفسها أن الرجل العادى فيها ليس له رأى خاص به في المسائل العامة ، بل رأيه هو رأى الصحيفة التي يقرأها . وان دل هذا على شيء ، فهو يدل على ما للصحافة من قوة في تكوين الرأى العام ، ونشر الأفكار والمعتقدات . وهذه القوة أداة فعالة للنهوض الاجتماعى إذا أحسن استعمالها . وبما يوجب الاسف أن الاحوال السياسية التي عملت على انتشار الصحف ، أضعفت أثرها من ناحية أخرى . إذ جعلت الصحافة اليومية توجه جل عنايتها الى المباحث السياسية والتطاحن الحزبى . ولكن مهمة الصحافة الحديثة لا تقتصر على ذلك ، بل يجب أن تكون مثقفاً عاماً للقارىء ، يجد فيه ما يشبع كل ميوله الروحية . وسيزيد أثر الصحافة المصرية في المستقبل بقدر عنايتها بالنواحي الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، واستخدامها للكتاب المتمكنين من هذه النواحي .

إن المقام لا يتسع للاطالة في الكلام عن القيمة التعليمية للتمثيل ، والسينما ، والراديو

وغير ذلك من وسائل الاتصال الحديثة . ويكفى أن أقول إن أثرها بعيد المدى ، وإن مصر لا تزال في أول عهدها بها ، وامامها مجال واسع لترقيتها والاستفادة منها في تنبيه طبقات الشعب .

ولكنى لا يسعنى أن أحتكم قبل أن أشير إلى وسيلة من أهم وسائل نشر الافكار وبث المثل العليا في بلاد كبلادنا لا تزال تغلب عليها الأمية : وهذه الوسيلة هي الاجتماعات المنظمة . وهى تتخذ أشكالا كثيرة ، من محاضرات عامة ، وحلقات للبحث والدراسة ، وهيئات للعمل الاجتماعى ، وجماعات تتعاون على صرف أوقات الفراغ في وجوه تسمو بالنفس ، وغير ذلك مما لا حصر له . وقد بدأت مثل هذه الاجتماعات تظهر في حياتنا ، ولكنها لا تزال محصورة في العواصم الكبرى ، وفي الطبقات المفكرة . والمهم أن تمتد هذه الجهود الى طبقات الشعب ، فهم عماد الأمة . والقيام بهذه الجهود فرض على كل من كانت لديه القدرة عليها . فالتا لانجد في بلاد العالم التى سبقتنا في المدنية أمة تعتمد في التعليم والنهوض الاجتماعى على جهود الهيئات الرسمية وحدها ، بل ان الناس في تلك البلاد يشعرون أن خدمة المجتمع امر واجب على كل فرد . وأى خدمة أجل من العمل على تحسين حال الذين لم تسعدهم احوال الحياة بما أسعدتنا به من نعم التعليم والثقافة ؟

ويسرنى أن أذكر انه أتيح لى في الأسبوع الماضى أن ارى مثل هذا العمل في مصر يقوم به جماعة متواضعة من الشبان تألفت تحت اسم « الرواد » ، وفتحت محلة للفتيان من العمال والطبقات الفقيرة بحى السيدة زينب ، يأوون اليها في كل مساء ، فيتعلمون شيئا من العلوم ، وتلقى عليهم محاضرات بسيطة في موضوعات صحية واجتماعية تفيدهم ، وتهيا لهم بعض وسائل الحياة الاجتماعية والرياضية التى تهذب نفوسهم .

ان مثل هذا العمل يجب أن يعم كل ناحية بالقطر المصرى . ولو تهيأت الأسباب للمدارس الأولية لسكانت أصلح نواة له في القرى . فالرابطة التى تربط التلاميذ بمدارسهم يجب أن تبقى بعد مغادرتهم لها . ومثل هذه المدارس في البلاد الأخرى ترسل نورها حتى يعم حياة القرية التى تقوم فيها . أما واحوال مدارسنا الأولية كما نعرفها ، فاني أوجه النداء الى شباب مصر ، الذى يهيمه بناء مستقبلها ، بأن خير ما تعمله لمصر هو أن تضحي بشئ من وقتك وجهدك ومالك في العمل على سد النقص في حياة فلاح مصر !

وفي هذا فليتمساق المتسابقون !



حضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا
وكيل وزارة الداخلية للشؤون الصحية

حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر

لحضرة صاحب السعادة الدكتور محمد شاهين باشا

من أراد البحث في حالة مصر الصحية في الوقت الحاضر وجب عليه أن يستعرض الحالة التي كانت عليها البلاد في العصور الغابرة حتى يمكنه أن يزن الحالة الحاضرة بالمقابلة بين العهدين ويقدر النشاط الصحي الحالي التقدير الصحيح مع مراعاة العوائد القومية والأمراض المحلية ودرجة المدنية في العصور المختلفة كما لا يغيب عن البال أن تقدم الصحة العامة لا يقاس بالنتائج التي أدى إليها هذا التقدم فحسب بل بمقدار الأعمال التي كان من شأنها الوصول إلى هذا القدر من التقدم.

إن تقدم الصحة العامة يمشى جنباً إلى جنب مع تقدم الطب ومع انتشار التعليم بين أفراد الأمة ورفقها في نواحي حياتها المختلفة لأن ارتفاع مستوى العناية بالحالة الصحية العامة لم يأت في الواقع إلا من طريق تطبيق ما بلغته فروع الطب من النماء في الأزمنة المختلفة ولهذا السبب استنسب رجال الصحة أن يطلقوا على فرع الطب الذي يعنى بالصحة العامة اسم « علم الطب الوقائي » لأنه لا يقتصر على العناية بالملايسات التي تحيط بالإنسان فقط كما يتبادر إلى الفهم من تعريف مداه بعبارة (الصحة العامة) ولا بالمظاهر الاكلينيكية للمرض ووسائل الوقاية منه بل يشمل سبر غور التطورات التي تحدثها الإصابة بالمرض في جسم الإنسان ومعرفة مدى قوة الدفاع الكامنة في خلايا وسوائل الجسم لمقاومة الأمراض أي معرفة القوة الحقيقية للجيش المدافع عن الإنسان. فهذا الفرع يجمع كل جهود فروع الطب التي عرفت منذ خلق الإنسان حتى الآن ويوجهها إلى غاية واحدة في دائرة مداه الواسعة.

أما الغايات التي يرمى إليها دائماً مهما اختلفت الوسائل وتنوعت الطرائق فهي :
١ — تقوية بنية الفرد وبذلك تزداد قوة مقاومته للأمراض وتعلو تبعاً لها كفايته لتأدية العمل المنتج وهي بيت القصيد.

٢ - الوقاية من الأمراض باستئصال شأفة أسبابها أو قمعها ومنع انتشارها بامتلاك ناصيتها .

٣ - إطالة العمر وتقليل الوفيات .

وكل من تتبع تاريخ الطب الوقائي أو تاريخ الطب بصفة عامة رأى أن كل الابحاث والمشاهدات لا تتجه الى غير هذه الغايات سواء أكان السير اليها بطيئاً كما حصل في العصور السالفة أم سريعاً كما شاهدنا في القرنين الأخيرين وسواء انحصرت الابحاث في الوصول الى غاية واحدة من هذه الغايات الثلاث أم الى اثنتين منها أم شملتها كلها كما هو الحال في عصرنا الحاضر . ولقد قامت كل أمة من الأمم القديمة والحديثة بنصيب في تقدم الصحة العامة وكان كل نصر جديد في تفهم طبيعة الأمراض يمهّد السبيل الى نصر آخر يليه بل الى فتح جديد حتى بلغنا التقدم الحالى وستستمر الفتوح بعون الله فترداد المعرفة لأسرار الكون بالكشف عن حقائقها وفتح مغاليقها حتى اننى لا أغالى إذا قلت أنه لو بعث أحداً بعد جيل أو اثنين لأدهشه ما ستكون عليه الحالة الصحية العامة من التقدم وإذا أعاد الى مخيلته صورة ما كان يظنه المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه هذه الحالة فى عصرنا الحاضر لرآها - لدى المقابلة بما سيكون عليه العالم - رسماً فجاً من البساطة بمكان . ولكن أحفادنا لا يستطيعون على أى حال أن ينكروا أنه لولا ما جادت به قرائح أجدادهم فى عهدنا الحاضر وفى عصور أجدادنا لما تقدم العالم قيد خطوة بل لفنيت الدنيا ومن عليها بما اتابها من الشهور الاجتماعية وجوائح الأمراض القتالة لأنه لم يخل عصر من العصور من وباء فتاك أو غصبة تكشر فيها الطبيعة عن ناهها ويبدو أثرها بأحد مظاهر التدمير والتخريب كفيضان الأنهار وثوران البراكين أو زلزلة الأرض ولا عاصم يومئذ للناس إلا بمقاومة طغيان الطبيعة بيد العلم والعرفان .

ومصر كانت أولى الأمم التى عملت على رفع مستوى الطب والصحة العامة فهى أقدم أم الأرض حضارة وعلماً ومنبت أول انتصار ناله الانسان على الأمراض ومن حيث الصحة العامة كان قدماء المصريين يباهون بأنهم أصبح بنى آدم وكان دأبهم الأخذ بكل حيلة ليتمتعوا بالصحة الجيدة ولذلك كانوا أمة تعنى بأسباب البأس والألعاب الرياضية وشعارها « درهم وقاية خير من قنطار علاج » وكانوا يدرسون الطب فى جامعات عين شمس ومنف وطيه والاسكندرية التى كانت مهبط العلم وقبلة طلابه وقد كرع موسى

عليه السلام كؤوس العلم مترعة في جامعة عين شمس وتهذب بكل حكمة المصريين —
ونقل اليونان علوم مصر الى بلادهم وقت أن كان المصريون يعرفون الكثير عن القبالة
وعملية الختان وعلم الصحة والجذام والأمراض الجلدية ويكفهم نغراً أن أبقراط الملقب
بأبي الطب وفد على بلادهم للاعتراف من بحر حكمتهم وهو صاحب القول الحكيم « على
الطبيب اذا أراد أن لا يخدع نفسه أو يخدع غيره أن يلم بما كان يعرفه من سبقوه » لأن
خير وساطة للتجديد في مختلف العلوم هي البناء على الأسس الصالحة من القديم .

ان المقياس الأول لتقدم الصحة العامة هو النظافة العامة وقد كان قدماء المصريين
كثيري الرعاية لذلك خصوصاً في أشخاصهم وهذا مما أدى الى ترقية عاداتهم — قال
هيرودوت في كتابه الثاني إبان زيارته لمصر في القرن الخامس قبل الميلاد « لا نزاع
في أن المصريين هم أكثر تديناً من أية أمة أخرى ومن عاداتهم أنهم يشربون في كؤوس
من البرونز ويغسلونها يومياً وهذا لا يقوم به بعضهم فقط بل كلهم على السواء وهم جد
حريصين على ارتداء الملابس البيضاء المغسولة حديثاً وهم يختنون مراعاة للنظافة التي هي
شعارهم وهم يفضلونها على الظهور بالمظهر الحسن وكهنتهم يخلقون جسمهم كله مرة كل
ثلاثة أيام حتى لا يعلق بأجسامهم القمل أو غير ذلك من الحشرات النجسة في اثناء قيامهم
بخدمة الآلهة وكذلك يغتسلون بالماء البارد مرتين في النهار ومرتين في الليل . »

ولاحظ هيرودوت أيضاً كثرة وجود البعوض وكان المصريون يتقون شره
بالصعود الى الأبراج التي تعلو المناقع ليناموا بعيدين عن متناول البعوض الذي كانت
الرياح تحول دون وصوله إليهم . وأما الذين كانوا يعيشون بقرب المناقع فانهم كانوا
ينصبون اثناء الليل شبكات صيد الأسماك على فرشهم وكانوا يزحفون من تحتها للوصول
الى الفرش منعاً لتسرب البعوض بداخلها .

فالمصريون والحالة هذه هم أول من تنبه لمضار البعوض ولاتقاء ضرره بأبسط الوسائل
ومن الذين درسوا الطب بمصر وكان لهم القدر المعلى في وضع أساس الطب الوقائي
جالينوس الذائع الصيت الذي كان تلميذاً للمصريين اذ رضع لبان العلم بجامعة الاسكندرية
في القرن الثاني قبل الميلاد واحاط بكل ما عرف عن الطب في وقته . وما هو جدير بالذكر
في هذا الموطن انه وإن كان الفضل يرجع الى ابقراط في تقسيم اسباب الأمراض الى انواعها
تبعاً للفصول أو المناخ أو العوامل الخارجية أو العوامل الشخصية كنوع الغذاء أو

العادات أو ممارسة التمارين الرياضية وهو صاحب المبدأ القائل بأن فعل المرض يكون بالهجوم من جانبه ويقابله الدفاع من جانب الجسم أى انه الكاشف الأول لقدرة الطبيعة على الشفاء وان الطبيب الماهر هو الذى يدرس وسائل مقدرتها هذه ثم يقلدها - وان كان ما تقدم كله ينسب فضله الى ابقراط فجالينوس كان أول من أعلن ملاء الاطباء ان علم وظائف الاعضاء هو دعامة الطب وقد جعله علماً قائماً بذاته وجمع كل ما عرف عن الطب في زمنه وصنفه أسرة بابقراط واستمرت مؤلفاته المرجع الأعلى للعلوم الطبيعية غرباً وشرقاً زهاء اربعة عشر قرناً وكان ينصح تلاميذه بزيارة جامعة الاسكندرية التى انشأها بطليموس الثانى اذ هى موطن الدراسة الصحيحة لجسم الانسان وقد ظلت هذه الجامعة شمس العالم التى يستضيء الاطباء بنورها ومنبع العلم والعرفان الذى يرتوى فيه كل طالب للحقيقة الى سنة ٢٠٠ بعد الميلاد ثم بدأت فى الانحطاط الى أن ذهبت ريحها واندثرت فى سنة ٦٤٠ ميلادية عندما فتح العرب مدينة الاسكندرية وكانت العلوم الطبية قد اضمحلت فى مصر قبل انتقالها الى اليونان وكان التشريح قد منع من سنة ٥٠٠ ميلادية فتفرق رجال العلم ايدي سبا وهاجروا الى بلاد الشام وفارس وليس من شك فى أن الحالة الصحية قد اضمحلت فى البلاد كذلك تبعاً لاضمحلال معاهد الطب الذى عدت على علومه فنون الشعوذة والدجل واصبح اثرأ مشوها بعد ان كان جنة قطوفها دانية وفيها من كل فاكهة زوجان .

ثم سطع على مصر نور الطب العربى فى زمن ازدهاره فى الفترة من سنة ٧٥٠ الى ١٢٥٠ ميلادية وظهر بمصر فى اوائل هذا العهد كتاب فى الطب القبطى جمع بين دفتيه مائتى « وصفة ، لامراض العيون والمعدة والرحم والبواسير والجرب وامراض جلدية اخرى . وقد استنادت مصر كثيراً من الطب العربى وآوى الى ظلها الظليل واشتغل بالتأليف والتصنيف فى اثناء هذه الفترة من تاريخها كثيرون من مشاهير الاطباء العرب كسيمون الموسوى وابن العيني وابن الفارس والنباتى الشهير بابن البيطار الذى شغل بمصر وظيفة الصيدلى الاول التى تعادل الآن وظيفة مدير قسم الصيدليات وانشأ ابن طيلون فى سنة ٨٧٥ ميلادية أول مستشفى فى ذلك العصر وعززه الملك كافور الاخشيدي بمستشفى آخر فى سنة ٩٥٧ م وكانت هناك دار اخرى للعلاج فى مصر القديمة وفى سنة ١٠٠٥ م أسس الحاكم دار الحكمة بالقاهرة وهى اشبه بجامعة منها بدار طب وكان الفاطميون قد

بدأوا في تأسيس جامعة بالاسكندرية احياء لجامعتها القديمة كما أسس صلاح الدين مستشفى الناصري والنوري واشتغل ابو صبيعة في المستشفى الاخير وكان الطب يدرس في هذه المستشفيات ثم انشئ عبد اللطيف البغدادى دروساً في الطب بالازهر سنة ١١٩٢ م

ولا يمكن انكار ما قام به الطب العربى في خدمة الصحة العامة في مصر بل في العالم اجمع فالعرب وان كان أغلب طبهم منقولاً عن طب جالينوس غير انهم ابتكروا الكثير ايضاً مما يخرج تعداده عن موضوع هذا البحث ومن ابرز ابتكاراتهم تفريق الرازى بين الحصبة والجدرى وتأسيسهم المستشفيات وابتداعهم الامتحانات والاجازات الطبية وتنظيمهم فن الصيدلة والكيمياء ومحافظةهم على ما ورثوه من العلوم الطبية من اليونان وخلاصة القول ان العرب هم واسطة الاتصال بين مدينة الأغريق ومدينة اوربا الحديثة وفضلهم على عصرنا الحاضر لا ينكر .

ولقد كان من الطبيعى أن يرث المصريون عن العرب علومهم الطبية ولكن ارادت العناية الالهية ان يفتح العرب الاندلس وينتشر العلم العربى من هناك الى اوربا فيزدهر وينمو حتى يصل الى أوجه - كما اتى على مصر حين من الدهر لم تكن فيه شيئاً مذكوراً أظلمت فيه شمس العلم وأفل نجم الطب وسادت الفوضى الا وهو عصر المماليك ولقد شذ عنهم أحدهم وهو السلطان قلاوون الذى أنشأ البيمارستان الكبير فى سنة ١٢٨٦ م وحبس وقفاً للاتفاق عليه وهو باقى حتى الآن وان كان قد خصص للعيون بعد أن كانت تعالج به فى أول انشائه كل الامراض ثم خصص لمرضى العقل واستمر هكذا حتى سنة ١٨٥٦ ميلادية ولا ننس مستشفى المؤيد الذى كان حوالى ١٤٢٠ ميلادية . ولما استولى العثمانيون على مصر فى سنة ١٥١٧ م لم تكن حالة الطب أو الصحة العامة باحسن منها فى عهد المماليك وقد اجتاحت البلاد فى العهدين جائحات من الاوبئة لا يتسع المجال لوصفها وكانت تترك لتأكل فى العباد كما تأكل النار المشيم وقد وصف المؤرخ الشهير الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ما شاهده فى اثناء انتشار وباء الطاعون الذى ابتدأ فى أواخر شهر جمادى الاولى سنة ١٢٠٥ هجرية وذكر أهواله التى تشيب ناصية الوليد وقال ما يدل على أنه لم يتحرك أحد من أولى الأمر لمكافحته وقد مات به ما لا يحصى من الاطفال والشبان والجوارى والعبيد والمماليك والاجناد والكشاف والامراء وامراء الالوف وتوفى من السناجق نحو اثني عشر سنجقاً . وكان يخرج من بيت الأمير فى

المشهد الواحد الخمسة والستة والعشرة ولم يبق للناس شغل الا الموت وأسبابه فلا تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة جنازة او دفن ميت أو مشغولاً في تجهيز متوفى أو باكياً على نفسه وهى تكاد تطير شعاعاً فرقا من الموت ونذر جداً من يشكو المرض ولا يموت ونذر ايضاً ظهور الطعن بجسام المرضى ولم يكن يشعر المريض بالحمى بل يكون جالساً فتأخذه رعدة من البرد فيتدثر ولا يفريق الا مخطئاً أو يموت من نهاره أو ثانى يوم أو ربما زادت فترة مرضه أو نقصت عن ذلك وقد استمر فعل الطاعون الى اوائل رمضان ثم اضمحل شأنه ولم يقع بعد ذلك الا قليلاً نادراً ومات الاغا والوالى فى اثناء ذلك فولوا خلافيهما فماتا بعد ثلاثة ايام فولوا خلافيهما فماتا ايضاً واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى اسبوع واحد .

ثم أتى بعد ذلك عصر الفرنسيين بقيام نابليون الاول فى سنة ١٧٩٨ م بحملته على مصر . ويمكن اعتبار هذا الفتح مبدأ لتاريخ الصحة العامة بالبلاد كما يعتبر مبدأ تاريخها الحديث وقد اصطحب نابليون مائة من أعظم علماء فرنسا المجهزين بالكتب والآلات العلمية كما استحضر معه مطبعة عربية وأدخل الكثير من الإصلاحات الصحية العامة كسكنس الشوارع ورشها فى أوقات معينة ووضع مصباح على كل منزل وقام علماءه ببحوث علمية مفيدة وآثار جمعهم العلمى لا تزال تذكر لهم بالفخر العظيم . وليس من شك فى أن هذه الحملة كانت من الحوافز الهامة لادخال أسباب المدنية الغربية الى مصر وكانت الخطوة الاولى فى حكم المصريين لانفسهم وذلك بما أنشأه نابليون بالبلاد من مجالس ولجان أسوة بما عمله فى غيرها من الممالك مما كان السبب فى غرس بذور الشعور بالكرامة الوطنية والاهلية وقد مهد عمله هذا السيل لبزوغ نجم محمد على الكبير منشىء مصر الحديثة الذى رفعت مصر فرفعها واحبته فاحبها .

وقام أطباء الجيش الفرنسيون بأبحاث مفيدة حيث أصدر ديجيت الطيب الاول للجيش أمراً الى أطبائه أن يقوموا بأبحاث طبية وطوبوغرافية لجميع الجهات التى يحلون بها . وأنشأ نابليون ادارة تقوم بتنفيذ الاجراءات الصحية المتبعة فى موانئ كثيرة بالبحر الأبيض المتوسط .

ووجه الأطباء عنايتهم الى الصحة العامة محافظة على جيشهم وقد داهمهم وباء طاعون شديد الوطأة علاوة على التهاب العيون الذى أصاب كثيرين من رجال الجيش

واتخذ الأطباء احتياطات شديدة لقمع الوباء كحرق الأمتعة وغيرها وكانت بالبلاد في طول مدة وجود الحملة تقريباً إدارة صحية وهى وإن كان جل همها العناية بصحة الجيش فأنها أنشأت عدة مستشفيات عسكرية بالأزبكية والجيزة والقصر العيني ودمياط ورشيد وغيرها كما قامت تلك الإدارة بنشر الدعوة الصحية خصوصاً ضد الجدري حيث طبعت نشرة عنه باللغة العربية ووزعت بواسطة الديوان الكبير على كبار الأعيان وعلى السيدات بواسطة السيدة نفيسة هانم زوجة مراد بك الكبير

ومات من رجال الحملة من يوم خروجها من فرنسا حتى نهاية السنة الثامنة (بالتوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) ٨٩١٥ توفى منهم بالطاعون ١٦٨٩

ومن المذكرات الطبية ذات الشأن التى دونها الأطباء مذكرة للدكتور بروانت عن الرمد وأخرى عن الدوسنتاريا ومذكرة عن الرمد لسفارسى وعدة مذكرات عن الطاعون .

وقد جاء فى هذه المذكرات أن الأمراض التى كانت منتشرة بمصر وقتئذ — علاوة على الطاعون والدوسنتاريا والحجى المنقطعة وأمراض العيون والكساح والعمى والفتق — الحصيات البولية والقيلة المائية والصرع والحجى المعوية والجدري والاستسقاء .

وقام رجال الحملة بعمل جداول عن الحالة الجوية بالقاهرة والاسكندرية .

وقد يكون أول احصاء منظم للتوفين فى القاهرة هو الذى عمل تحت اشراف ديجنيت حيث أجرى هذا الاحصاء من ٢٩ برومير من السنة السابعة حتى فندميير من السنة الثامنة بالتوقيت الفرنسى الجديد — واستنتج منه ما يأتى :

ان عدد النساء اكثر من عدد الرجال

ان وفيات الأطفال تحدث فى ستة الأسابيع الأولى من حياتهم وعلى العموم تكثر وفياتهم قبل بلوغهم سن تسعة أشهر .

ان الجدري هو اكثر الأمراض حصداً للأطفال .

ويستخلص من احصاءات الطبيب المشار اليه التى عملها عن السنة الكاملة وهى السنة الثامنة (بحسب التوقيت الفرنسى الجديد المتبع وقتئذ) أن عدد الوفيات بلغ فى اثناءها بالقاهرة ٥٨٩٥ منهم ٣٥١٦ طفلاً و ١٣٧٦ امرأة و ١٠٠٣ رجال .

وحول قصر العيني الى مستشفى كما أن نابليون أمر بافتتاح مستشفى مدني بالازبكية يسع ٣٠٠ مريض .

وجلا الفرنسيون عن مصر في سنة ١٨٠١ وقدر جومار عدد سكان القطر في سنة ١٨٠٠ بـ ٢٤٦٠٢٠٠ نسمة ولكن حسب تقدير كلوت بك لا يتجاوز السكان المليونين وبجلاء الفرنسيين وعودة حكم العثمانيين لمصر وتسلط المماليك ثانية سنحت الفرصة لجلوس محمد علي على عرش مصر وتم بذلك خلاص البلاد على يديه من عصور الفوضى والمظالم وسار بها في سبيل الرقي الى أبعد شوط ونهض ضمن ما نهض به بالشؤون الطبية والصحية .

تولى محمد علي باشا الحكم وممارسة مهنة الطب في أيدي قوم جهلة يتناقل بعضهم عن بعض المعلومات الطبية المشوهة وكان بعضهم يلقبون بالحكماء وهم يقومون بمعالجة الأمراض الباطنية وبعضهم يمارسون الجراحة ويلقبون بالجراحين وكان على رأسهم جراحا شام - كما يوجد بجانب هؤلاء المجربون والدايات وكان جل اعتمادهم على بقايا الطب العربي وقال كلوت بك انه لما حضر الى مصر كان يرأس المستشفيات حلاقون وقد أبعدها بصعوبة حتى يحل مكانهم كلوت بك وزملاؤه .

فلما أوجد محمد علي جيشاً نظامياً بمصر استدعى كلوت بك في سنة ١٨٢٥ م ليكون طبيباً أول لهذا الجيش ويرجع اليه الفضل في إعادة تأليف مجلس الصحة وقد شكل من خمسة أعضاء من أطباء وجراحين وصيادلة برئاسة كلوت بك وكان هذا المجلس يشير على وزير الحربية في كل المسائل ذات العلاقة بالصحة وغيرها حيث لم تكن توجد وقتئذ إدارة صحية . ثم انشئت فيما بعد إدارة طبية يرأسها مفتش عام وهذه الإدارة كانت تدير شؤون مستشفيات الجيش وصيدلياته حيث ألحق بهذه الإدارة قسم للأدوية وتسيلا لصرف الدواء وضعت فارما كوتيا بها بعض « الوصفات » وأقرها مجلس الصحة وأسست صيدلية مركزية بالقاهرة ومستودعات للأدوية بالاسكندرية للقطر المصري وبحلب وعكة للشام وبجدة لبلاد العرب وبالخرطوم لسنار وبكندية لسكريت .

وأنشئ للبحرية المصرية مجلس صحة بالاسكندرية .

ونشأ عن اتخاذ الوسائط المتقدمة انخفاض نسبة الوفيات بين رجال الجيش

والبحرية وكان مستشفى أبى زعبل هو المثال الذى تحتذىه كل المستشفيات وقد أسست به فى سنة ١٨٢٧م مدرسة الطب وفرع للصيدلة فدرس علم الصحة للمرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث . ثم أنشئت مدرسة للولادة بهذا المستشفى أيضاً وتخرج فى مدرسة الطب بعد خمس سنوات أربعون طبيباً أرسل منهم لباريس اثنا عشر طالباً حيث حصلوا على شهادة الدكتوراه من كلية باريس .

ثم انتقلت مدرسة الطب والمستشفى الملحق بها الى سراى ابراهيم بك (وهو قصر العيني الحالى) حيث هما الآن وأصبح المستشفى يسع من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ مريض وبالمدرسة ثلاثمائة تلميذ - ورخص ولى النعم فى قبول مرضى من غير العسكريين كما أن مستشفى أبى زعبل خصص للنساء ومستشفى الأزبكية لكل الأمراض وكان ملحقاتاً بكل المدارس بالأقاليم جراحون مرخص لهم فى معالجة الأهالى ثم انشئت مدرسة للولادة بمستشفى قصر العيني .

وقبل زمن محمد على باشا كان الذين يقومون بمعالجة الحيوانات هم البيطرة فأنشأ المسيو هامو بناء على رغبة محمد على باشا مدرسة للطب البيطرى برشيد ثم نقلت الى أبى زعبل حيث الحق بها مائة طالب وبعدئذ وجد أنها بعيدة عن الحرس بشبرا فنقلت الى هناك لتكون على مقربة من فرسان الجيش وأصبح فيها مائة وعشرون طالباً .

ومما يجب ذكره أن كلوت بك هو الذى أشار باستعمال التطعيم ضد الجدري لمقاومة انتشار هذا المرض بالقطر المصرى بعد أن كان يودى بحياة ستين ألفاً من الأطفال كل سنة أو ثلث المواليد على رأى كلوت بك وقام هو وتلاميذه بمكافحة الكوليرا التى وفدت على مصر سنة ١٨٣٠م وبذلوا جهوداً فائقة فى مقاومة طاعون سنة ١٨٣٥ .

فما تقدم نرى أن مصر الحديثة عرفت ما هى الصحة بعد أن وضع دعائمها محمد على باشا وان كان الفرنسيون قد مارسوها قبله محافظة على جيوشهم ومن عهده استمرت فى تقدم حتى عصرنا الحاضر .

وبلغ عدد سكان مصر فى نهاية عهد محمد على باشا نحو ثلاثة ملايين ونصف مليون وتعداد سكان القاهرة نحو ثلاثمائة ألف نسمة .

وسار أبناء وأحفاد محمد على الذين تولوا الحكم بعده على منواله وقطع كل منهم فى

هذا السبيل شوطاً يختلف عن الآخر تبعاً للبوارد التي كانت لديه ووفقاً لمشورة الرجال الذين كانوا يعملون معه حتى أتى الخديوى اسماعيل باشا الذى امتاز عصره بالتجديد فى كل النواحي الاجتماعية والمادية وقد تقدمت الشؤون الصحية وفقاً لخططه الاصلاحية تقدماً عظيماً لا سيما وان علم الصحة كان قد خطا خطوات واسعة فى عصره مما كان خير معوان له على هذا التقدم .

وما حل القرن العشرون حتى أصبح علم الصحة غير مقصور على مكافحة الوبئة ومراقبة زيادة الوفيات وقيد المواليد بل تعدى ذلك الى الناحية الوقائية وابتدأت النهضة الصحية فى مصر بالازدهار على ضوء التقدم الحديث للعلم والفنون الطبيعية الذى انبثق فخره فى اواخر القرن التاسع عشر حيث اكتشفت جراثيم الأمراض فى الانسجة وأن نفس لا ننسى ما قام به باستور من العمل الخالد فى اكتشافه أسباب التخمر فى سنة ١٨٥٧ م وأبحاثه عن الجراثيم فى سنة ١٨٧٧ م وعن الطعوم فى سنة ١٨٨٠ و ١٨٨٢ التى هى أساس الطب الحديث هذا مع ما استنبطه كوخ من المزارع الصلبة والطرق المتقنة لتمييز الجراثيم وقد كان ذلك فتحاً عظيماً فى الطب وتتابعت الاكتشافات الباهرة التى امتاز بها عصرنا من سنة ١٨٧٠ حتى سنة ١٩٠٥ وفيها اكتشاف هتسن لباشلس الجذام ونيسر لميكروب السيلان وأبرت وجانكى لباشلس الحى التيفودية واجستن لبذور التقيح وكوخ لباشلس التدرن وباشلس الكوليرا بالقطر المصرى وكلبس ولوفار لباشلس الدفتيريا وكستاتو وبرسن لباشلس الطاعون ونيكولاير لباشلس التيتانوس واكتشف لافرن سنة ١٨٨٠ طفيلي المالاريا وهلم جرا حتى اتت سنة ١٩٠٥ فاكتشف شودن ميكروب الزهري ثم اكتشف ان لهذه الجراثيم سموماً تفعل فى الجسم واعقب ذلك تحضير بهرنج وكستانو مصلاً مضاداً للدفتريا . وهذه الاكتشافات الموفقة وصانها الى معرفة حقيقة هامة وهى ان الجسم السليم اذا هاجمه ميكروب قد يتأثر بفعل سمومه غير انه يمكن خلاياه وسوائله ان تقوم بالدفاع عن الجسم باتلاف الميكروب وهضمه وهذا الدفاع يحصل بواسطة مواد مضادة بفعلها لفعل سم الميكروب وقد سبق ذلك بستين كشف متشكوف لفعل الكريات البيضاء فى اتلاف الجراثيم وتلا ذلك عدة اكتشافات كالتهلبد وغيره ثم فى سنة ١٩١٠ أعلن اهلرغ اكتشافه لمركب ٦٠٦ الذى يقضى على طفيلي الزهري فى جسم الانسان فما تقدم بيانه نرى أن أول عمل باهر رفع من شأن

علوم الطب وأقامها على أقوى الدعائم يرجع الفضل فيه الى باسٲور الكيمائى وذلك سنة ١٨٥٧ م وكان الفضل فى إتمام هذا العمل الباهر لكيمائى آخر وهو اهٲرخ ولن تنسى الانسانية مهما كرت الدهور وتعاقبت العصور فضل هذين النابغين عليها .

وأخذت مصر نصيبها فى تطبيق نتائج هذه المكشفات لتحسين الحالة الصحية العامة بها لانه متى اكتشفت الجرثومة المسببة للبرص أمكن مكافحته بالنقاب عليها . وكان الدافع الى هذا التطبيق بمصر آتياً عن طريقين الاول رغبة أولى الأمر فى تمدين مصر والأخذ بالاساليب الاوربية النافعة والثانى تكرر حدوث الاوبئة فيها بسبب وقوعها على حافة البركان كما يقول المثل الاوربى نظراً لموقعها الجغرافى الذى جعلها على الدوام نقطة الاتصال بين ممالك العالم ومما يذكر فى هذا المقام مع الاغتباط انه فى اثناء نهضة مصر الصحية الحالية توفق بلهارس لاكتشاف ديدان البلهارسيا وليبر لطريق العدوى بها وبديدان الانكستوما وانتهى الأمر بالبحث فى جميع الواحى الصحية والعمل على تحسينها وبالتالي لرفع مستوى الحياة الصحية لكل فرد من الافراد وللمجتمع المصرى كله على اختلاف طبقاته بما كان له اكبر الاثر فى تمدين مصر ولو كانت موارد البلاد المالية سمحت بتمشى مستوى الثقافة العامة مع رقى الصحة العامة خطوة خطوة لبلغت مصر من المدنية شأوا عظيماً ولاستفادات البلاد من الأعمال الصحية أضعاف ما تستفيد الان اذ من البديهى أنه لا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

فالحالة الصحية بالقطر المصرى الآن مرضية فقد كانت نسبة الوفيات فى سنة ١٨٨٨ : ٢٠ فى الالف وفى سنة ١٨٨٩ : ١٦ فى الالف وكان عدد السكان ٦٨٢١٦٠٠ بيننا انخفضت نسبة الوفيات بالقطر فى سنة ١٩٣٠ الى ٢٤ فى الالف وهى أقل نسبة فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة وعدد سكان القطر الآن نحو خمسة عشر مليوناً ثم أن زيادة نسبة المواليد عن نسبة الوفيات كانت قليلة بيننا هى الآن عالية جداً ففى سنة ١٨٨٩ كانت نسبة المواليد فى القاهرة مثلاً ٥٨ر٨ ونسبة الوفيات ٥١ر٦ لكل الف ساكن بيننا فى سنة ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد فى القطر المصرى ٤٤ر٤ ولم تتعد نسبة الوفيات ٢٥ر٨ والبون شاسع بين النسبتين وهذا دليل من أهم الأدلة على تقدم الصحة العامة بلا نزاع واذا لوحظ وجود قلة فى نسبة المواليد فهذه القلة احدى مظاهر المدنية التى

تدعو الى الاقلال من تعدد الزوجات ومن الزواج المبكر لكثرة تكاليف الحياة الآن وللرغبة في التقليل من النسل لتوفير العناية بالقليل منه ليشب الابناء اصحاء ويصيروا اعضاء نافعين في الهيئة الاجتماعية ومع ذلك يقابل قلة النسل قلة الوفيات بين المواليد فبعد ان كان يتوفى في السنوات من ١٩٠١ الى ١٩٠٥ : ٢٨٢ في كل الف مولود انخفض هذا العدد في سنة ١٩٣٠ الى ١٥١ وفاة لكل الف مولود — واذا نظرنا الى هذه النسبة نجدها عالية لو قورنت بما يقابلها ببعض الممالك الأخرى كإنجلترا أو فرنسا ولكن يخفف وطأتها ان نسبة المواليد بمصر اعلى جداً مما هي في هذه الممالك حتى أن عدد سكان مصر دائماً في ازدياد وهو الآن خمسة امثاله في أول عهد نهضتها الحديثة أى أول عصر محمد على باشا .

ومع ذلك فمسألة زيادة وفيات الاطفال بالقطر المصرى هي من المسائل التى بحثت بحثاً مستفيضاً وقد بدى بالعمل على مكافحتها بأفعل الوسائل العملية إذ أنشئ في كل عاصمة مديرية مركز لرعاية الطفل وحماية الأمومة كما أنشئت عدة مراكز بالقاهرة والاسكندرية وأنشئت فروع بالمستشفيات العامة لمعالجة الاطفال ومراكز ومستشفيات متنقلة كما ألحقت دور الولادة بهذه المراكز ونظمت زيارات صحية بواسطة زائرات معينات لارشاد الحوامل والأمهات الى طرق العناية وتربية الطفل وغير ذلك من الوسائل الفعالة لمعالجة الأمراض الوراثية وتحسين النسل وقد ألمعنا الى أثر هذه الجهود في نقص نسبة الوفيات ولا شك أن انتشار التعليم الإلزامى بين طبقات الشعب سيكون خير معوان على الوصول الى تقليل وفيات الاطفال الى الحد الأدنى .

ولم يكن أثر الاهتمام بالطفل مقصوراً على تقليل نسبة الوفيات بين الاطفال بل المقصود به أيضاً انشاء جيل قوى البنية ذى كفاية للعمل المنتج يعيش الى أقصى مدى مستطاع . ولقد ظهرت طلائع هذا الجيل وشواهد ذلك جلية في فتيان وفتيات اليوم فأين شباب اليوم من شباب خمسين سنة مضت خصوصاً شابات ذاك العهد حيث كن صفراوات هزيلات أو سمينات مترهلات . وأما شبان اليوم وشاباتهم فتمثلون صحة وعافية إذ يعنى بصحتهم من يوم ولادتهم حتى يخرجوا الى معترك الحياة — واذا ازدادت عناية المصريين بممارسة الألعاب الرياضية رجوعاً منهم الى سنة أجدادهم من قبل أصبح بجىء هذا الجيل قريباً ولا شك فيه .

ولا أزيدك بياناً عما اتخذ ويتخذ الآن في مقاومة الأوبئة ومنعها فقد أصبحت بعض الأمراض أثراً بعد عين كالحى الراجعة كما أصبح البعض الآخر يتقى بالحقن كالدفتريا والحيات المعوية أو يقاوم بسهولة كالطاعون الذى كان الشبح المخيف بمصر كما سبق لنا بيانه في هذا المقال .

هذا وقد انتشرت معاهد العلاج في كل ناحية من نواحي القطر فلا يخلو الآن مركز من مستشفى ولا عاصمة مديرية من مستشفى عام كبير ولا قرية كبيرة من عيادة خارجية مع تيسير وسائل التشخيص بإنشاء المعامل بكل أنواعها وتزويدها بالأجهزة المختلفة وتوفير كل طرق المعالجة الحديثة بمعاهد العلاج حتى أصبح بالقطر المصرى الآن ١٢٠ مستشفى عاماً ومركزياً وقروياً علاوة على المستشفيات والعيادات الخاصة ببعض الأمراض كالرمد الطفيليات المشار إليها فيما يلى

ولما كانت مصر منذ القدم موطناً لأمراض كالبلهارسيا والانكلستوما وبعض أمراض العيون كالرمد الحبيبي وهذه الأمراض — علاوة على الملاريا التى فشلت في بعض جهات القطر بسبب وجود المستنقعات التى نشأت على الأخص عن أحداث حفر لأخذ التراب منها لعمل الآجر لبناء المنازل بالقرى وعدا الزهري والأمراض الدرنية — وهذه تقلل من كفاية السكان وتضعف قوة إنتاجهم وتهدي كيان الأمة بصفة عامة. فقد وجهت إليها العناية بنوع خاص وأنشئت المستشفيات والمستوصفات لمعالجتها وكذلك لمعالجة الجذام، كما بذلت الجهود في عمل الأبحاث الخاصة بمنشئها وطرق معالجتها المعالجة الناجعة خصوصاً الانكلستوما والبلهارسيا اللذين أنشئ معهد خاص لعمل التجارب المتعلقة بمقاومتها فضلاً عن نشر الدعوة ضد هذه الأمراض بصفة مستمرة بكل طرق الأذاعة المعروفة الآن .

ولا يوجد برهان على تقدم المدينة وزيادة الرفاهية في بلد من البلاد أقطع من توفير المياه النقية الكافية للشرب وللاستعمال المنزلى ومنع تلوث المياه وتصريف الفضلات والعناية بالشوارع والطرق وصحة المساكن وتفتيش المأكولات وتنظيم الأسواق والأضاعة والنظافة العامة .

وقد قطعت مصر شوطاً كبيراً في هذه السبل إذ أن عدد المدن التى فيها أجهزة لترشيح المياه أصبح أربعين وعدد البلاد التى فيها آبار ارتوازية بلغ حتى الآن

ثلاثين وعدد سكان المدن الذين ينتفعون الآن بالمياه النقية يزيد قليلا عن ربع سكان القطر المصرى . أما أمهات المدن الموجود بها بحار عامة فهي حتى الآن تسعاً . وإدارة هذه الأجهزة علاوة على العناية بالنظافة العامة موكولة الى المجالس البلدية والمحلية والقروية التى توجد الآن فى معظم المدن والبلاد والقرى الكبيرة وليس من شك فى أن المساكن الآن أحسن حالا من التى وصفها المؤرخون وزائرو القطر المصرى فى القرنين الأخيرين وقد مهدت شوارع المدن الكبيرة وعبدت طرق كثيرة وعمت الاضاءة بالكهرباء المدن والكثير من البلاد ونظمت أسواق كثيرة للبا كولات وعنى الآن بغذاء الانسان بما يلحق للآثم وهى حامل وهى والده وبما يلحق للتلميذ بالمدارس عن التغذية الصحية وبما ينشر على الجمهور وما اتجهت اليه عناية ولاية الامور من المحافظة على نقاوة الطعام بالتشريع الخاص بذلك وبفتيش أما كن تخزينه وبيعه وتحضيره فلا يمكن الآن فتح محل لبيع الماء كولات الا بترخيص بعد تنفيذ مواصفات صحية خاصة وبعد منح الترخيص يفتش الأطباء ومعاونوهم المتخرجون فى معهد خالص هذه الاماكن بحالة دورية لضمان سيرها على النظم الصحية .

وبسبب نشوء عدة صناعات بالقطر المصرى نبتت فكرة العناية بصحة العمال فابتدى بسن تشريع لذلك وان كانت المصانع خاضعة للفتيش الصحى منذ عهد النهضة الحديثة بالشؤون الصحية العامة وقد ابتدى أيضاً فى اقامة مساكن صحية للعمال بالاسكندرية والقاهرة ولا شك فى أن البلاد سائرة فى سبيل نهضة موفقة فى الشؤون الصناعية تستدعى عناية خاصة بالشؤون الصحية للعمال والمصانع .

نتائج الجهود الصحية والطبية

ان التقدم المطرد للطب والتقدم الاجتماعى للجنس البشرى مهذا السبيل لعدد جم من بنى الانسان لأن يحيا حياة طيبة ومثمرة وكانت نتيجة المساعى السابق ايضاحها أن ازداد متوسط العمر وأن كثيراً من الأمراض زالت تقريباً من القطر المصرى والبعض قل كالعمى والملاريا ومضاعفات بعض الأمراض كالبهارسيا قلت لدرجة كبيرة فالبهارسيا الجراحية صارت الآن أقل ثمانى مرات مما كانت عليه فى

سنة ١٩٢٤ والحصيات البولية ثلاث مرات ونصف مرة والبواسير البولية انخفضت إلى ثلث ما كانت عليه في سنة ١٩٢٥

و بالاختصار قد تيسر بوضع أسس الحياة الصحية رفع مستوى صحة الأفراد بدرجة ملحوظة وهبطت نسبة الوفيات إلى عدد السكان نحو أربعين في المائة عما كانت عليه من خمسين سنة مضت وأصبح في متناول كل إنسان من وقت طفولته التحصن ضد كثير من الأمراض كالجدري والدفتيريا كما أبعد عنه خطر العدوى من عدة أمراض أخرى . ولكن على رغم هذه الجهود بقيت معضلات صحية مصرية في حاجة إلى الحل حتى يمكن مع التقدم الاجتماعي والصناعي المنتظر وتعميم التعليم الإجماعي أن تصل المدينة إلى أرقى مستواها في القطر المصري . وهذه المسائل هي موضع العناية الآن وبعضها قد درس فعلا والبعض الآخر لا يزال في طريق الدرس والمنتظر أن تحل جميع هذه المعضلات وقد أتينا على أهمها في ما يأتي :—

١ — معالجة نقص التغذية في بعض جهات القطر

٢ — معالجة مسألة إدمان المخدرات

٣ — العناية بالنسل باستئصال شأفة السموم وغيرها من العوامل التي تؤثر فيه بالوراثة وبذلك يقل عدد الأشخاص الذين لا فائدة منهم للبلد كضعاف العقول وغيرهم .

٤ — العمل على تقليص عدد ذوى العاهات وعلى توفير وسائل التعليم ووسائل كسب العيش للوجودين منهم

٥ — توفير المياه النقية لكل سكان القطر على السواء من حضر وريف .

٦ — تحسين حالة المساكن في المدن والقرى — وبحل هذه المعضلة يرتفع مستوى الصحة العامة إلى درجة عالية جداً لأن المسكن الغير الصحي يدعو إلى ضعف بنية السكان واضعاف قوة مقاومتهم للأمراض فيكثر المرضى وذو العاهات وترتفع نسبة الوفيات . والمسكن الرديء يدعو بطبيعته إلى قذارة الساكن وقذارة ما يحيط به وما يتبع ذلك من مرض ونقص في الكفاية .

٧ — مقاومة البلهارسيا والانكلستوما لا بالمعالجة والوسائل الصحية العامة فقط

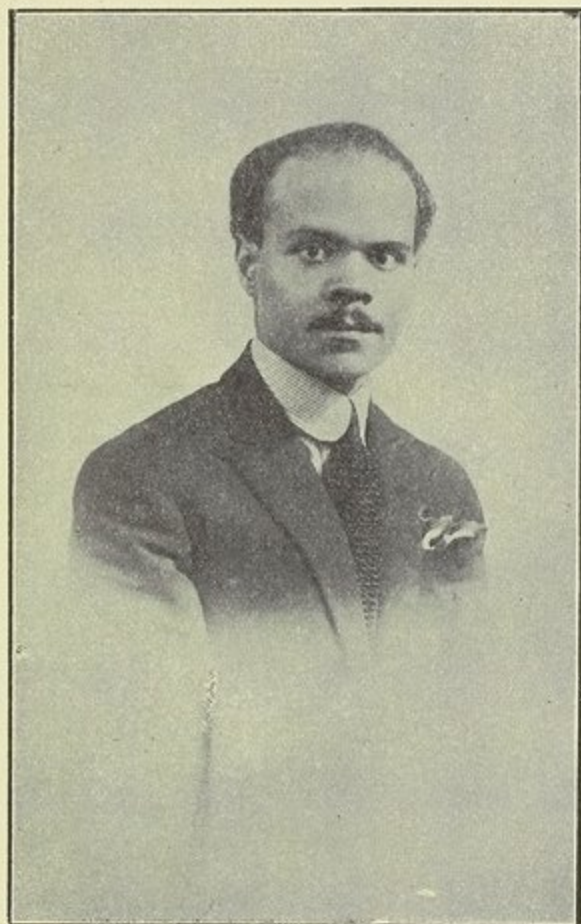
بل بابادة الديدان المسيية لها فى مواطنها . والهمة مبذولة الى أقصى حد للوصول الى هذا الغرض الهام .

٨ - القضاء على الرمد الحبيبي باكتشاف جرثومته . والبحث قائم بكل هممة ونشاط لحل هذه المعضلة التى استعصت على الحل منذ آلاف السنين

٩ - التصرف فى الفضلات بتعميم المجارى فى المدن وحل هذه المعضلة الهامة بالنسبة للقرى .

ومتى وفقنا الى حل هذه المعضلات الصحية وقطعت البلاد شوطاً بعيداً فى مضمار التقدم فى مختلف نواحي المدنية تزدهر المدنية فى مصر وتبلغ مثلها الأعلى فتعود الى البلاد سيرتها الأولى وليس من شك فى أن رفع مستوى الثقافة العامة بين الأهلىن يساعد كثيراً على الوصول الى هذا الغرض .





حضرة الدكتور بنيامين بهمان

M. R. C. S. (Engl.) L R. C. P.

طبيب مستشفى الامراض العقلية بالعباسية

اوقات الفراغ والحياة المنزلية

للمحاضرة الدكتور ب. بياصين برعاعه

هذا الموضوع عظيم الخطر لتناوله البحث في حياتنا الخائفة والاجتماعية وما تأثرت به هذه الحياة في مصر منذ فجر التاريخ

وان تاريخ مصر الحديث ان ينسى ابد الدهر ما للامريكان من عظيم الأثر في نهضتنا العلمية والاجتماعية . وانها لفرصة سعيدة تلك التي أتاحها لي قسم الخدمة العامة لأتحدث اليكم عن بعض هذه الشؤون . وأخص منها بالذكر البحث في عيشتنا المنزلية وتحليل عاداتنا وتقاليدها وفحص أخلاقنا فحسأ يوضح بعض ما فينا من عيوب وتقائص قد يرى فيها البعض ما يؤلمه أو ما يمس عزتنا القومية ولكن ما سأذكره ليس مقصوداً علينا دون سوانا من سائر الأمم . وان أغفلت الكلام عما لنا من حسنات فليس لقلتها ولكن لأنها خارجة عن موضوع بحثي لأنني أبحث في تقويم المعوج واصلاح الفاسد

المصري كما تعلمون وقاد الذهن يشهد له بذلك سبقه لمنافسيه من زملائه الغربيين في جامعاتهم ومع ذلك ترى الغربي متفوقاً على المصري في مواجهة الحياة وأسبق منه في ميدان العمل

وهنا نسائل أنفسنا التي تطمح الى النهوض والكمال ما الذي قعد بها عن ادراك شأو الآخرين من الغربيين في مضمار الحياة ما دمننا نساوهم في قوة العقل والبدن ؟

فالجواب عن هذا السؤال هو بيان أدواتنا الاجتماعية والخلقية وتشخيصها تشخيصاً دقيقاً يكفل لنا خير وسيلة منتجة لوصف العلاج وهذا ما أحاول القيام به الليلة

ولا أريد في مقالى هذا أن أسلك سبيل الذين يبالغون باللوم ويسرفون في النقد المر بما يفضى الى تثبيط الهمم واضعاف العزائم ويؤدى الى عكس الغاية المرجوة

وللبرهان على صحة قولى هذا أضرب لكم مثل مريض بالنورستانيا استشار طبيبه فأخبره بأن مرضه وهمى وأن أعضاء جسمه كلها سليمة فليس اذن ما يسوغ شكواه . فترى

الفحص في هذه الحالة لم يتناول ما سبب عنده الوهم فيأخذ في علاجه الى أن يتم شفاؤه وانما تناول الأسباب الظاهرة فاكتفى بقوله له انه غير مريض وينصحه ان يترك أفكاره السوداء فإذا كان هذا كل عمل الطبيب فلا ينتفع منه المريض شيئاً . لأن المريض في أغلب الأحيان يعرف أن داءه هذه الوسوس والأوهام ولكن ليس لديه من الوسائل ما يحرر نفسه من سلطانها والتخلص منها وما يزيد في ألم هذا المريض كثرة لوم اخوانه ومريديه على استسلامه الى أوهامه وهو ما يعادل قسوة أعدائه في تقدم اياه لضعف ارادته وهذا وذلك يدفع نفسه الباطنية للاستسلام الى أمراضه والتأدي في أوهامه كي يبرر موقفه المرضى حفظاً لكرامته في عيون الآخرين

وبمثل هذا النظام العقلي تتأثر نفسية كل فرد لو قسونا في نقده . وانا بهذا لا نساعده على اصلاح شأنه بل ندفعه الى طريق العناد والتثبت بفكرته ومغالطة نفسه لكي يصونها من الاحساس بفكرة تحقير الغير له عن طريق اللوم والنقد . ومن هذا ترون أن اللوم والنقد التهمي ليسا طريقاً للإصلاح بل هما مجلبة للضرر الجسم وبالأسف الشديد نراهما شائعين عندنا وكثيرا ما نرى الأب يتبعها مع ابنه والاستاذ مع تلميذه والرئيس مع مرؤوسيه وهذه عيوب فظيعة لיתهم يقلعون عنها لأنها ناشئة عن نقص في التربية وضعف في الأخلاق .

الشاب المصري ناهض وفيه روح حية ورغبة قوية تدفعه الى السير في طريق الرقي ولكنه يشعر بأن رجله أضعف من أن تحمله الى هذه الغاية بالسرعة التي يريد بها وهو لضعفه يتعثر في طريقه ويكون في حاجة لمن يأخذ بيده ويقيله من عثراته برفق وتؤدة حتى يصل الى الغاية التي تتوق إليها نفسه المتقدمة حماسة للوصول الى الرقي والكمال . . . فهذه الرغبة الشريفة فيه تحتاج الى حسن الهداية واسداء النصح والمعونة الصادقة . لا الى اللوم والنقد لضعفه الذي لم يكن هو نفسه سبباً فيه حتى نقسو عليه وهو في هذا أحوج ما يكون الى علاج هذا الضعف باللطف وطول الاناة

أما أطفال اليوم — شباب الغد — ورجال المستقبل فالرقابة لهم خير من العلاج ولكي نقههم من الضعف الذي نشعر به والنقص الذي نلوم أنفسنا عليه يجب علينا أولاً أن نحدد نوع هذا النقص ومنشأه

مؤهلات أخرى غير الذكاء ، للنجاح في الحياة . مثل الاعتداد بالذات والاعتماد

على النفس والصبر على العمل ، والمقدرة على التوفيق بين الرغبات وحقائق الكون الى غير ذلك من الصفات . وهذه نسميها الأخلاق وبمقدار مانتها في الشخص يتوقف نجاحه ، ونسبة وجودها في الشعوب والأمم تكون عظمتها وهي ليست معدومة عندنا ولا هي كاملة عند غيرنا . على ان الغربيين يتمتعون منها بنصيب أوفر من نصيبنا . وضعفنا هو « نقص هذه المؤهلات فينا » . لكي نعرف أين وكيف تنمو الاخلاق فلندرس المنزل

المنزل هو المعهد الوحيد الذي يقوم بتربية الفرد في السنوات الاولى من حياته وأهم سنى التربية هي الخمس سنوات الاولى من حياة الطفل وعليها يتوقف مستقبله فقها تكون نفسيته وأخلاقه التي تكون شخصيته كفرد عامل — وفي مقدور علماء النفس اليوم أن يبرهنوا للعالم أن معظم نقائص الفرد الخلقية ترجع الى سوء التصرف في تربيته كطفل ، وأن معظم ما في الانسان من قوة أو ضعف خلقى يرجع السبب فيه الى نوع تربيته المنزلية والى تأثير الوسط الذي كان يحيط به وهو طفل

فالبت اذن له المنزلة الأولى في تربية الاخلاق والاخلاق تغرس في الطفولة — وهذه الفكرة على ما أظن جديدة لقراء اللغة العربية — وهي تخالف تماماً الفكرة السائدة عندنا فاننا كثير التساهل والتساعح في غلطات الطفل ولا نعلق أهمية كبيرة على ما يبدو منه من شذوذ في الأخلاق أو التصرفات باعتبار انه صغير لا يدرك وعند ما يكبر يفهم ويحسن بي في هذا المقام أن أذكر لكم بايجاز متحاشياً ذكر اصطلاحات فنية — بعض الحقائق المقررة في كيفية تكوين نفسية الطفل — الاساس الذي عليه يقوم ببناء أخلاقه

يولد الطفل وأول درس تلقى عليه الطبيعة هو مواجهة حقائق العالم الذي يحيط به فترغمه على أن يوفق بين غرائزه وملذاته وبين الظروف القهرية التي تواجهه

فمما يولد ويصطدم بالعالم الجديد بما فيه من غوغاء وتغيرات جوية يتنبه لأن حياة الهدوء والسكينة التي عاشها كجنين قد انتهت ويبتدىء يشعر بحاجات كان في غنى عنها وهو في رحم أمه كضرورة التنفس وحاجته الى الأكل والتدفئة ويعود نفسه احتمال الغوغاء والأنوار الساطعة التي ترعبه . ثم يدرك بأنه في مواعيد أكله ونومه تحت رحمة النظام الذي ترتبه له والدته لا على حسب ارادته هو ، وان رغباته مع قلتها وسعى أهله في قضائها لا يستطيع نيلها كلها

وكما تقدمت به سنه كلما كثرت حاجاته وتقيدت حريته . فما كان يباح له في السنة الاولى من حياته يحظر عليه فيما بعد ، ومن سنة الى سنة تزداد المحظورات التي مهما يقاومها فلا بد له في النهاية من الرضوخ لمعظمها

محور العالم كما يراه الطفل هو « أنا » أى نفسه وذاته . ونفسيته الوحيدة هو أن يشبع نفسه من ملاذها ويقبها من الآلام والأوجاع . ففي نظره لا قيمة لقوانين الهيئة التي تحيط به ، و ينتظر أن تتكيف لكي توافق مزاجه . ولكن أوامر والديه ومريه وسلطتهم عليه تمرنه تدريجياً على ملاحظة الحقيقة التي تخالف ذلك وهى أن سنة الكون تتطلب منه مراراً أن ينكر ذاته ويكبح بعض ملاذه ويتعود احتمال بعض الآلام .

هذا أمر لا يرغب فيه الطفل ولذلك تراه باستمرار يقاوم السلطة التي ترغمه على عمل يكرهه . وإنما في مقاومته يرى انه بازاء الذين حوله أصغر حجماً وأضعف قوة فيدرك حقيقة أخرى وهى عجزه — عجزه حتى عن الكلام الذى به يعبر عن نفسه

وهذا الشعور ، الشعور بالقلّة والعجز (inferiority) يؤلم نفسية الطفل . ومن طبعه الغريزى أن يسعى وراء القوة التي تمكنه من غلبة من هم أكبر وأقوى منه . ولا يمضى عليه وقت طويل حتى يلاحظ أن البكاء والعويل وسيلة تمكنه من التعبير عن بعض حاجاته ، ويجوز أن يستعمله سلاحاً يرغم به أهله على العمل بموجب ارادته . ومن ثم يتبادى في بكائه وعويله لينفذ رغباته ويقاوم أوامر والديه ، وأولئك الذين ينزلون على ارادة الطفل اسكاناً لبكائه يفعلون ذلك لمجرد شفقتهم عليه لكثرة بكائه

وإذا لم يوفق الطفل في تجربته الى أرغام أهله للنزول على ارادته اسكاناً لبكائه وأتبع في تربيته طريقة نظامية حازمة فانه بسهولة يتمكن من — تكيف رغباته وطبائعه لكي تتناسب والظروف التي تحيط به . وإذا استمرت هذه الخطة متبعة معه طول مدة طفولته فانها تربي فيه من صغره ملكة تكيف نفسه لتتناسب مع كل الظروف . ومن هذا تتولد الشجاعة وعدم تيبب المسؤولية والثقة بالنفس والاعتداد بالذات

أما اذا كان الطفل سيئ الحظ واستطاع التسلط على والديه بيكائه فيتهاونون في أخذه بالحرم لطفوليته . وإذا كان الوالدان ممن يتصورون أن استعمال الحزم والشدة في تنظيم حياة الطفل وتربيته ارهاق وتعذيب له ، ويعتقدون أن الطفل صغير لا يدرك

فلا يجدون داعياً للاهتمام بتربيته في مثل هذا السن المبكر فانه ينشأ على فطرته ولا هم له إلا إشباع نفسه بما لاذها وابعادها عن الآلام . فتنمو هذه الخصال معه ونرى آثارها السيئة في شبابه ورجولته إذ تقف حجر عثرة في سبيل نجاحه . ويحرم بذلك فرصة التمرين على تكيف نفسيته وملاذه لكي تناسب حالة الجو الذي يعيش فيه فينشأ قليل الثقة بنفسه وتنقصه قوة المثابرة على العمل

أما إذا أجبر الطفل على النضال ضد نفسيته الخاملة ووفق في جعلها مناسبة للحقائق التي تواجهه فإن النضال والمثابرة يصيران جزءاً من طباعه ، وتتولد فيه عقيدة راسخة في قدرته . وهذه هي بذرة الثقة بالنفس وهذا هو ميعاد زرعها

قد أشرت الى شعور الطفل بعجزه وقلته (inferiority) عند مقارنته نفسه بمن حوله وتألم من ذلك وسعيه للتخلص من تحكم والديه فيه ونجاحه أحياناً في تسلطه عليهما بسلاح البكاء . وعند ما يكبر هذا الطفل يصبح قادراً على القيام بأعمال لا تغضب والديه فقط بل تكون مؤذية ومضرة مثل اتلاف أشياء ثمينة أو تعريض نفسه وغيره للاخطار . ويرى والديه أنه لا بد من منعه مراعين في ذلك عدم اغضابه فيلجأون الى احدى وسيلتين ، إما اغراؤه بالوعود الخلابه أو اجباره بطريقه التخويف ليتصاع لنصائحهم . فالاولى تكون بوعده بمكافأة حسنة اذا أطاع الامر وهذه وخيمة العاقبة لأنه كثيراً ما يكون الوالد غير جاد في وعده بل للاغراء فقط وليس عنده نية الوفاء بما وعد . فهذه علاوة على انها تعلم الطفل أنه ليس مرغماً في حياته على تأدية أى عمل الا اذا رغب فيه أو كوفى عليه فانها أيضاً تنبهه الى أن والديه لا يبران بوعدهما له وبهذا يلاحظ فهما الكذب فيخسران ما لهما عنده من كرامة وهيبة واحترام . والوسيلة الثانية وهي تخويفه بتسليط قوة جبارة لتعذيبه اذا هولم يطع الامر ولزيادة اربابه كثيراً ما تستعمل اسماء قوات خفية لا وجود لها كالبعع والعفريت . والخوف هو سلاح ينصاع له الطفل مرغماً لشعوره بقلته وعجزه عن صد الأذى عن نفسه

ولكى نرى في الفرد الشجاعة والثقة بالنفس التي تهيئه لمعاركة الحياة بنجاح علينا أن نخلصه في طفولته من شعور القلة والعجز الذي يستولى عليه . أما التهادى في تخويف الطفل لاختضاعه فهذا مما يولد فيه الرهبة ويثبت في نفسيته الشعور بالعجز وهذا الشعور يلزمه طول حياته ويحمله دائماً على التراجع والتهيب والهرب من كل جديد ، ومن

كان هذا شأنه فهو لا يرى في نفسه الكفاءة لمواجهة الحياة ولا المقدرة على حمل أعبائها. أرجو المَعذرة إذا أطلت عليكم الكلام في شرح نظام تكوين أخلاق الفرد فأهميته لكشف الستار عن موطن الضعف الخلقى ومعرفة سبب وكيفية تكوينه التي بدونها لا نصل إلى علاج مجد، وعلاقته بموضوعي الليلة يضطراني لذلك. ولتمة هذا الشرح بقيت لي كلمة أقولها عن الشعور بالقلة والعجز في الطفل وآثارها في الرجولة.

الطفل في بداية حياته يعتمد اعتماداً كلياً على والديه ويخرج من هذه الحالة تدريجياً إلى أن يكمل خلاصه منها ويتم له في رجولته استقلاله وقوة اعتماده الكلي على نفسه إذا أحسن التصرف في تربيته طفلاً وحدثاً. والحالة بالعكس إذا كان الوالدان من ضعاف القلوب الذين يبالغون في حماية طفلهم ويحوظونه بسياج من شدة الحرص فيمنعونه من محاولاته الكثيرة التي تتمثل في نشاطه وحرركته المستمرة ليختبر قوته. فتراها يمنعانه منها خوفاً عليه من أن يصاب ببعض رضوض جسمية ثم في حادثته يزylan من طريقه أو يذلان له الصعاب التي تعترضه بدلاً من أن يتركاه يواجهها ويعالج التغلب عليها ولو ببعض المساعدة. والآن في معظم الأحيان هي التي تعمل هذا مدفوعة بشدة حنانها وكثرة محبتها غير عالمة بأن هذا النوع من المحبة والحنان هو ألد عدو له واكبر سبب في إيدائه وعجزه في رجولته، إذ ينمي فيه الشعور بالقلة والعجز. وبذلك تحرمه فرصة التخلص منه في صغره. وهذا الشعور وإن كان لا يضعف الذكاء لكن تظهر آثاره السيئة في ضعف الأخلاق

ليس ما يعيننا به الاجنبى اتهامه المصرى بالخمول والكسل ونقص الشجاعة الادبية وقلة الصراحة؟ ضعف الارادة والخوف والهرب من المسؤولية وعدم المثابرة على العمل والرغبة في الانتقام؟ فكريس يقال عنه انه محاب غير عادل - مراتش ومحب لذاته - تغلب عليه أنانيته فيضحي بمصلحة الغير والمصاحبة العامة في سبيل مصلحته الشخصية. وإذا كان حازماً يكون شديد القسوة على مرؤوسيه بغير داع. وكمرووس يتهمون بالقلق والكذب والحسد ويرمون به بكل النقائص.

وبعض هذه الصفات الممقوتة - كما اجتهدت أن أوضح الليلة - من آثار ونتائج اِهْمَال تعويد نفسية الفرد على تسكيف ذاتها لملاءمة حقائق الكون أو ارغامها على ذلك بطريقة التخويف. والبعض الآخر هو رد فعل للشعور بالقلة والعجز الذي إذا لم يستأصل في الصغر يبقى مستولياً على النفس طول حياتها فيؤلم كبير يائها

لا أقول أن هذه الصفات ليست فينا وإنما أقرر حقيقة ثابتة إذا قلت أنها توجد في كل أمة مهما كانت عظمتها ورقها وهي تفاوت نسبي بين الأمم. فاني وإن كنت لا أنكر أن نسبة وجودها فينا هي أكثر مما في الأمم الغربية إلا أنني أعتقد أن تفشيها عندنا ليس بالدرجة التي يبالغ بها بعض الأجانب المغرضين أو الذين يجهلوننا أو بعض المصريين الذين يقارنون أخلاقنا بأخلاق بعض الأمم العريقة في المدنية التي كثيراً ما يجهلون حقيقتها. ثم يحكمون علينا حكماً قاسياً — هؤلاء اكتفى بأن أقول لهم أنه ليس من الانصاف أن تحكموا على الأحداث إذ ليست لهم حكمة الشيوخ وليس من العدل أن تقارنوا من تعرفونه جيداً بمن لا تعرفون منه الا ظاهره

وحيث أن للبيت الذي يربي الطفولة المنزل الأولى في تربية الأخلاق وهي المؤهلات التي نحتاجها ونشدها فدعنا الآن نبحث المنزل

لا أبالغ في القول إذا قررت أنه لا توجد عندنا وحدة تقليدية يصح أن نطلق عليها « المنزل المصري » ليؤدي لنا المعنى الذي نعنيه بقولنا « المنزل الانجليزي أو المنزل الفرنسي » بل حياتنا المنزلية والاجتماعية خليط غريب لا قياس له ولا وحدة فيه. فإذا أردت مثلاً تعريف « المنزل المصري » أراي مضطراً لتعريف أنواع شتى تختلف تبعاً لرب البيت سواء كان فلاحاً أو متعلماً قروياً أو متحضراً. خرج جامعات انجلترا أو فرنسا أو خريج مدارسنا الأولية. فكل من هؤلاء له مزاج يختلف تمام الاختلاف عما عداه من مواطنيه وكذلك يختلف نظره إلى ماهية المنزل وطريقة تنظيمه له اختلافاً قلما تجد له مثيلاً في أمة أخرى. فوجود شكل محدود يدعى « المنزل المصري » معدوم وإن لانعدامه أسباباً طبيعية وتاريخية كما أن له اثاره السيئة

ما هو المنزل ؟ — المنزل هو بناء تسكنه العائلة جمع كثيراً من وسائل الراحة والتسلية وحوى الترتيبات التي تجذب أفرادها اليه فيقضون فيه أطول مدة ممكنة راغبين لا مرغبين ولطول عشتهم بعضهم لبعض تتوطد بينهم أواصر المحبة والاحترام المتبادلة والناشئة عن فهمهم بعضهم البعض فهماً حقيقياً فتنشأ بينهم رابطة متينة تجعلهم أبداً يخشون إلى ذلك المنزل لما يحويه من ذكريات جميلة

هذه هي الفكرة الأساسية للمنزل والغرض الذي يبنى عليه وإن هو اختلف في شكله وفي تقاليده وكيفية العيش فيه باختلاف الأمم تبعاً لجو البلاد وذوق أهلها وطباع شعوبها

واختلاف دياناتها . ولطبيعة أى بلاد تأثير كبير فى تكوين منزلها — فلو القينا مثلاً نظرة على الممالك الشمالية التى يشتد فيها البرد والصقيع ويكثر فيها الأمطار والضباب مما يزيد حاجات الفرد ويجعل كسب العيش فيها عسيراً . نرى جلياً كيف أن طبيعتها القاسية تضطر أهلها إلى تحصين أنفسهم فى منازل محكمة تحميهم أذى التغيرات الجوية وترغمهم على المكث فيها معظم أوقات فراغهم ولهذا السبب يهتمون ببناء المنازل وتجميلها وتنظيمها ويبالغون فى أعدادها بكل وسائل الراحة . ويجهد أفراد كل عائلة أن يفهم كل منهم الآخر ليستطيعوا أن يعيشوا معاً فى سلام ووثام

أما بلادنا فتختلف تمام الاختلاف عن ذلك فطبيعتها لم ترغم أهلها على تجمعهم فى مساكنهم حتى ينظموا لأنفسهم عيشة بيتية خاصة بهم يمكن تسميتها « المنزل المصرى » كما حدث فى البلاد الشمالية بل أن طبيعتها شجعتنا على عكس ذلك لأسباب كثيرة أخص منها بالذكر

(١) حرارة الجو فى التى جعلت السكان يفضلون العيشة الخلوية وحملتهم على قضاء معظم أوقات فراغهم خارج مساكنهم وفى الفضاء حيث النسيم العليل والهواء البارد (٢) سهولة أرض مصر ، وكونها بلداً زراعياً يروى بالفيضان الذى يغمر أرضها مدة طويلة من الزمن كل سنة حتم على سكانها بناء مساكنهم فى أراض مرتفعة انقاء غمرها بالفيضان النبلى السنوى . ولقلة الأراضى المرتفعة ارتفاعاً طبيعياً ولصعوبة رفع الأراضى المنخفضة بطريقة ردمها اجبر سكانها على تشييد مساكنهم فى مساحات صغيرة اقتصاداً فى الأرض مكتفين بالحد الأدنى الضرورى وحتى الى ما دون الضرورى فى أحيان كثيرة ومن يلقي نظرة عامة على قرانا يرى النتيجة ظاهرة فى زحامها وتلاصق بيوتها الصغيره وعششها التى تشبه خلايا النحل

(٣) افتقار البلاد الى المواد الأولية للبناء كالخشب والاحجار

فهذه الأسباب الطبيعية وفقير الآهالى كانت فيما مضى حائلاً كبيراً فى سبل بنائهم منازل يمكن أعدادها بوسائل الراحة وصارفا لهم عن اهتمامهم بتنظيمها وتجميلها نخلت من وسائل الراحة وأدوات التسلية الكافية التى تجذب أفراد العائلة اليها وبجانب الأسباب الطبيعية توجد أسباب تاريخية واقتصادية تعاونت معها وشجعت على انعدام المنزل المصرى أذكر منها

(١) العقيدة الدينية — فلسفة قدماء المصريين الدينية قللت جداً من اهتمامهم بالحياة

الدنيا وصرفت عنايتهم الى الحياة الآخرة ووجهت كل قوتهم الى بناء قبورهم ومعابدهم لا إلى التفكير في بناء منازلهم. حتى أننا إذا استثنينا حالة أو اثنتين لا نجد بين آثارهم الكثيرة المدهشة آثاراً لبيوتهم

(٢) الحالة الاقتصادية — المصريون كشعب لم يكونوا في أى زمن من الأزمان أغنياء بل اذا استئثت الملوك والأمراء والكهنة وبعض المقربين اليهم أيام الفراعنة يمكننى القول إنهم كانوا دائماً فقراء على رغم شهرة البلاد في جميع العصور بثروتها العظيمة التي كانت بالأسف قاصرة على الحكام والمستعمرين

(٣) وقد يسألني البعض عن تأثير المستعمرين في بناء المنزل المصري ومنهم من اهتموا بمنازلهم كالرومان مثلاً فأتنا نرى ما كان أقل اختلاطهم بالأهالي ما عدا العرب . والعرب كما تعلمون قوم رحل لا يهتمون كثيراً ببناء المنازل

أيها السادة : هل بعد ملاحظة اجتماع هذه العوامل الطبيعية والتاريخية والاقتصادية تدهشون لعدم وجود منزل مصري . طقس حار يدفع الناس الى العيشة الحلوية — فلة وجود أراض صالحة لبناء المنازل . عدم توفر مواد البناء في البلاد . فقر عظيم حال بينهم وبين استجلابها من الخارج . أليست كل هذه التأثيرات عوامل كافية تسبب انعدامه ؟ . هذا ما كانت عليه حالة منزلنا الى عهد قريب وما زالت الى اليوم على ما كانت عليه عند السواد الأعظم . وانى ارجىء الكلام عن المنزل المصري الجديد ريثما أتحدث اليكم عن تأثيرات هذه الحالة التي دامت آلاف السنين في أخلاقنا .

من الطبيعي للرجل الذى يشتغل طول نهاره في عمله أن يبحث في نهايته عما يسليه ويروض نفسه . كما أنه من الطبيعي أيضاً أن المنزل الذى يحوى أحب الناس إلى نفسه يكون أول ما يتجه اليه فكره لتحقيق هذه الأمنية ولكن للأسباب التي ذكرتها وهي التي جعلت منزله خلواً من أسباب التسلية والراحة التي يندشها أضطر الى البحث عنها خارج المنزل

ولما كانت واجبات المرأة من إعداد الطعام وحياسة الملابس وتربية الأطفال تحتم عليها المكث في المنزل على رغم سوء حالته نشأت عادة مكث المرأة في المنزل وخروج الرجل منه . وألف كل منهم هذه الحالة ونظموا اجتماعهم على هذا الأساس دون أن يلحظ الرجل أن في تصرفه هذا أى شذوذ ولا ترى المرأة فيها غضاضة على نفسها — وعادة كهذه

دامت عشرات القرون ولها مبرراتها ليس من الغريب أن نراها ثابتة في عقول الشعب ومتسلطة عليه وهذا هو الأساس الذي بنيت عليه حياتنا العائلية الآن ابحث مدى تأثيرات هذه العادة السيئة فينا ويتناول بحثي العلاقات الآتية :

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

(٢) علاقة الوالدين بأبنائهم

(١) علاقة الرجل بزوجته وعلاقة زوجته به

لا حاجة لى أنؤكد لكم انى فى كلامى لا أقصد أن كل عائلتنا على النمط الذى اصفه وانما هو الشائع فى معظمها

الرجل الذى يصرف طول يومه فى عمله ومعظم أوقات فراغه يتسلى ويتسامر مع اخوانه خارج المنزل أو داخله بمعزل عن امرأته انما يقصر عيشته البيتية على نومه واكله. وعيشة هذا نظامها لا يتسنى معها للزوجين معايشة بعضهم البعض الوقت الكافى ليفهم كل منهما الآخر فهما يضمن لهما السعادة الزوجية كما يكفل لهما التعاون على المعيشة كشرىكين متساويين فى الحياة

بموجب هذا النظام تقيدت حرية المرأة وحجزت فى المنزل وتكونت فكرة الرجل عنها كزوجة الغرض منها أن تلد له اولاداً يحفظون اسمه وتقوم بخدمتهم وخدمته هو ايضاً ونظرت هى اليه كزوج وانه هو الرئيس المتسلط عليها ومعينها وعائلها

واذا كانت هذه هى نظرة الزوجين بعضهما الى بعض أستغربون اذاً عند ما ترون النفع المادى مقياس الزواج عندنا ، فالرجل يكفيه أن يعرف عن المرأة انها غنية وعلى قسط من الجمال ويكفى اهلها أن يعرفوا عنه انه ينتمى الى عائلة تتناسب مع مركزهم

(٢) علاقة الوالدين بأبنائهم

قلت فى أول موضوعى أن السنوات الأولى من حياة الطفل هى أهم سنى التربية وان المنزل هو المعهد الوحيد الذى يتعهدده والآن أقول أن الام هى التى تقوم بالقسط الأول والأوفر من هذه التربية

والأم المصرية التي يهملها زوجها جرياً على العادة التي أشرت إليها تشعر بأنه ينقصها العطف الزوجي فتستعيض عنه بالعطف على طفلها ولذلك تبالغ في حنانها وحرصها عليه وللدلالة على حبها له تنزل دائماً على إرادته التي كثيراً ما تنافي بمصاحته

جاءتني ذات مرة سيدة متعلمة ومعها طفلها الرضيع وبمعدته التهاب حاد فأشرت عليها بعدم ارضاعه شارحاً لها أن الرضاعة قد تسكن ألم المعدة نوعاً ما لسخونة اللبن ولكن في الوقت نفسه تجهد المعدة المريضة فتزيد مرضها. وبعد يومين جاءتني ثانية وحالة طفلها أسوأ مما كانت قبلاً لاستمرارها على ارضاعه كلما بكى وكان جوابها لي على دهشتي أن قلبها الأموى لا يحتمل سماع صراخ وعويل طفلها المستمر وأن ليس لها غلظة القلب الكافية لتتصاعق لنصيحتي. وبعبارة أخرى فضلت إيذائه على احتمالها عويله وبكائه. وهذا واحد من كثير مما يحدث كل يوم بأشكال مختلفة من إيذاء الأم لطفلها لوقاية نفسها من الألم النفساني متذرة بالحنان الأموى. فالأم المصرية التي تتحمل كل ألم جسماني وكل خسارة مادية في سبيل ابنها كثيراً ما تضحي به عن غير معرفة وبغير عمد تفادياً مما يؤلمها نفسانياً. فصرها على سهر الليالي الطويلة ومقدرتها على حرمانها نفسها كل لذة في سبيل ابنها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نزولها على إرادته التي هي في الغالب ضارة به كي لا تراه يتألم وفي ألمه بالطبع ما يؤلمها إنما يدل كما ترون على أن هذا الحب أو هذا العطف غير مجرد من حب الذات وأثرة الأم لأنها بتصرفها هذا تضحي بمصلحة ابنها لترحم نفسها من الألم النفساني.

معذرة أيها السيدات والسادة لهذا القول الصريح فاني لا أقصد به اهانة الأمهات ولا الخط من كرامتهن. واني أعرف جيداً أنهن لا يتعمدن الأساءة إلى أطفالهن فتصرفهن هذا هو من نظام العقل السامى أو العقل الباطنى الذى لا يدركه العقل الواعى. وقد تعمدت التصريح به على الرغم منى فكما فيه إيلاء للنفس فيه أيضاً صلاحها وذلك للأسباب الآتية :-

(١) اذا أدركت المرأة المصرية التي اعتقد فيها النبل مقدار ما تجنيه على طفلها بهذا النوع من الحنان فانها لا شك تقلع عن هذه العادة وتعود نفسها على احتمال الآلام النفسية أيضاً

(٢) أن هذا النوع من الحنان والعطف يتعارض مع ما يجب من الحزم والنظام لغرس أخلاق قوية متينة في الطفل

ما ذكرته الآن هو علاقة الأم بابنها كطفل وحدث وهي كما رأيت مبنية الى حد ما على استعاضة عطف بعطف ومتأثرة بحب الذات أيضاً - وفيما يلي علاقتها به كشاب ورجل تؤكد لكم صدق هذه النظرية .

ترون دائماً أن الأم بحكم حنانها تحرص كل الحرص على أن يظل ابنها بجوارها حتى في شبابه ورجولته وفي هذا ما يعوق تقدمه ويقلل من اقدامه . وترون كذلك أنها تجتهد ما أمكن في تزويجه بجوارها لتحول دون استقلاله في عيشته الزوجية . وإذا رأت منه كثرة العطف على زوجته تكثر من لومه وتعنيفه بدافع الاثرة والغيرة وهذا كما لا يخفى يكدر صفاء العيشة الزوجية ويحول دون بناء البيت .

والآن أنتقل الى بحث علاقة الأب بابنه ... الأب كما رأينا في علاقه الزوجية اكتسب احترامه باستعمال سلطانه لا بطريق تبادل المحبة والتفاهم . وبنفس الوسيلة تراه يسعى لاكتساب محبة واحترام أولاده أيضاً .

وبهذه المناسبة أذكر لكم قصة قروى سمعته ينصح اخوانه بأن أحسن وسيلة يكتسب بها الأب احترام أولاده هو أن ينشئهم دون أن يكثر من رؤيتهم والأم الحكيمة هي التي تطعمهم مساء وترسلهم الى فراشهم قبل رجوع الأب من عمله وبهذه الطريقة يكبرون متييين ذلك الوالد اذا لم يعاشروه طويلاً .

وهذه القصة تدل على نوع التربية المبني على الارهاب الذي يلبأ اليه الآباء لكسب احترام أبنائهم ولهذا يحجزون على حريتهم ويرغمونهم على الطاعة العمياء دون ابداء آرائهم حرة طليقة في حضرتهم . وبهذا يحرم الآباء من الاحترام الحقيقي الذي ينشأ عن تبادل المحبة والتفاهم والاحترام المبني على الرغبة لا الرهبة .

الحزم غير القسوة وكثيرون من الآباء يخطئون الفرق بينهما فيستعملون القسوة عوضاً عن الحزم ... والحزم مطلوب في التربية لأنه ينشئ أخلاقاً متينة صلبة ويولد هية واحتراماً بخلاف القسوة التي تبث روح الرهبة والخوف .

والحزم والنظام لا يتوفران في منزل فيه الأم تكثر من العطف والحنان والأب يتشدد ويقسو فيه . الأب يحظر أشياء والأم تبيحها . فيه الوالدان كالشريكين المخالفين لكل منهما طريقة في التربية تخالف الآخر مما يخلق في الطفل صفة التردد .

جو كهذا خال من الحزم والنظام فى التربية يحول بلا شك دون تعويد الطفل على التوفيق بين مزاجه وحقائق الكون ويعوق تخلصه من شعور القلة والعجز .
أرأى أسهبت فى وصف المنزل المصرى القديم وما اجتمع فيه من عوامل سيئة لا يزال بعضها قائماً فى المنزل الجديد الذى أتكلم عنه الآن .

المنزل المصرى الجديد

رأى الشعب المصرى فى نهوضه الحديث أن حالة منزله لا تتماشى مع رغباته ولا تصل به الى ما تتوق اليه نفسه الكبيرة فن عهد قريب جداً فكر فى تغييره وتنظيمه على اساس يوافق هذه الروح الجديدة محاولاً أن يتخلص من الموانع الكثيرة التى أسلفت ذكرها وغيرها بما اذ كر بعضها الآن .

سكان المدن وذوو اليسار من أهل القرى بدأوا بتشييد منازلهم هندسياً ومعمارياً فأتموها كما هو ظاهر للعيان على أبجل شكل شائق . ولكن داخلية المنزل الذى يتحتم فى أعداده تعاون المرأة والرجل لا يزال ينقصه الشكل الذى يؤهله لأن يؤدى الغرض المطلوب منه لما بينهما من فوارق وللتأثيرات الموروثة التى ما زالت متسلطة . والآن أحاول أن أبحث مدى تأثير كل منهما على حدة ، مبتدئاً بالمرأة لأن لها القسط الأوفر فى ذلك .

البنات المصرية أهمل تعليمها الى زمن قريب جداً بخلاف الولد الذى سبقها فى ذلك بسنين عديدة . وما يؤسف له جداً أن تعليمها ابتدأ وهو باق فى معظم الحالات على منهج وبروجرام يختلف تمام الاختلاف عن منهج تعليم الولد .

مع اعتقادهى فساد خطة التعليم عندنا . ارى انه ليس لهذا أثر كبير فى تقليل اعتزاز النشء بقوميته ولا تحقيرها فى عينيه بخلاف ما هو متبع فى طريقة تعليم البنات فى مدارس أجنبية مما اصف أثاره فيها الآن .

تبذل الأمم اهتمامها ببيت روح العظمة القومية بتعليم النشء لغة البلاد وآدابها وتاريخها المجيد ليترك فى نفوسهم أحسن الأثر يلازمهم طول حياتهم ويكسب اجتماعهم صبغة قومية . ولكن معظم المدارس الأجنبية التى نأتمن على تربية بناتنا تسمى الينا جداً باهملها تعليمهن هذه المواد . ولست فى هذا منكراً جميلاً ولكننى أقرر الواقع الذى ينبغى أن يصلح

فمعظم هذه المدارس تعلم نباتا لغة وتاريخ دولة أجنبية ، مهمة كل الإهمال لغة وتاريخ بلادنا . وترية كهذه يضاف إليها بعض القشور من العلم يث في البنت روح التعاطف والازدراء لقوميتها ويكون حائلا بينها وبين البيئة التي نشأت فيها . ويترتب على هذا شعورها بأنها من قومية أضعف وأقل شأنًا من قومية المدارس التي تعلت فيها بما يؤلم عزة نفسها . وفي اعتقادي أن هذا من الأسباب المهمة التي تدفعها للبالغة في اهتمامها بالظواهر ... فلنكني تحمي نفسها من هذا الالم العميق الصامت تراها تسرف في لباسها وفي تجميل ما هو ظاهر للغريب من منزلها . كأنها بذلك تقول لمن تخاف أن ينظر إليها نظرة ازدراء انها لا تقل عنه شأنًا .

فترى غرف الاستقبال مثلا ، وغرف الطعام وكل ما هو معد في المنزل للاضافة يجهز بأجمل الأثاث لينال إعجاب الضيف لا لراحة أهل المنزل التي يجب أن تكون الغرض الاساسي والاولى ... وللظهور بهذا المظهر تراه يحرمون أنفسهم وأطفالهم التمتع بها فيزدحمون في أصغر غرف المنزل وأقلها راحة وجمالا كما هو مشاهد في معظم البيوت . فالترية المنزلية كما أبنت لكم تشعر البنت بالقلة والعجز ، والمدارس الاجنبية التي تستطيع تقليل هذا الشعور أو تخليصها منه نرى معظمها يزيده تأكيذاً في نفسها بتلقيها ما يثير إعجابها بما عليه النساء الآخر من التفوق عليها ، وما لهن من تاريخ مجيد يضاف اليه جهلها بتاريخ بلادنا وما فيه من مجد . كل ذلك يجعلها تتصور انها من سلالة حقيرة وجنس ضعيف ... مع أن تعليمها تعليماً عملياً يقنعها بمقدرتها على القيام بأعمال لها قيمتها ، مما يخلق فيها شعور اليقين بالمقدرة ويوطد فيها الثقة بالنفس ويزيل منها الشك في كفايتها وصفة الضعف والتردد التي استولت عليها ... وما أشد لإلام النفس لاحساسها بهذا الشعور ! - شعور القلة والعجز الذي نرى أن حب الظهور هو رد فعل له وأثر من آثاره يحاول به المرء اخفائه حتى عن نفسه لو استطاع .

فالاهتمام بالظواهر هو في الحقيقة نتيجة لما نلاقيه من الفشل لا سبب من أسبابه وهو أيضاً نراه مـثـلاً في اجتماعنا عموماً كما هو في حياتنا المنزلية . والاسراف فيه يحول دون التنبه الى الجوهر .

فهل بعد هذا نعجب لكثرة اختلاف منازلنا ؟ وقد نشأ كما رأيتم عن كثرة تقليدنا للظاهر من منازل الامم المختلفة .

وهل تلوم البنت المصرية على اندفاعها في حب الظهور ؟ وهل ندهش لاسرافها فيه مع ما نعلم من عزة نفسها وكبريائها ؟ .

حقاً انى ألتبس لها العذر . وأقدر فيها تلك الرغبة وذلك الذكاء الذى دفعها الى انشاء منزل اجتهدت ما أمكنها فى تحسينه وتنظيمه وادخال أنواع السرور والتسلية فيه ليكون شائعاً يجذب اليه زوجها ويغريه بطول المكث فيه . وخلقها لنفسها مكانة محترمة أرغمت الرجل على منحها بعض المساواة به اذن يجب على ناقدتها الذين لم يفهموها حق الفهم أن لا يتبادوا فى لومها بل أن يسعوا فى خلاصها من قيودها الثقيلة . وان ما لها من ذكاء وما فيها من رغبة لفيه كل الكفاية للنهوض بها الى مساواتها بخير نساء العالم .

الرجل

يجتهد الرجل مع الأسف الشديد أن يحمل المرأة تبعه انحطاط المنزل . فهو ينظر الى سعادة البيوت الأخرى هنا وفى البلاد الأجنبية فيغبط أصحابها عليها ويتمناها لنفسه ، ولكن حبه لذاته وعدم رغبته فى التضحية ، التى بدونها لا يمكن الوصول الى معيشة منزلية سعيدة ، يمنعانه من التعاون مع زوجته على تحقيق هذه الأمنية وتراه دائماً ينتحل لنفسه المعاذير لتبرير ما يلاقيه من خيبة ، محملاً المرأة نتيجة لتأخرها على ما يزعم . وهو بهذا يريد نتيجة ويهرب من معاوتها على الوصول اليها .

نسمع كثيرين من الشبان ينددون بطريقة الزواج فى مصر قائلين انها غير مبنية على التعارف والتفاهم المتبادلين . ولكن عند ما تعرض لهم هذه الفرصة تراه فى نزاع نفسانى شديد تتقاسمهم إرادة الارتباط بمن يرونها توافقهم فى مزاجهم وتعاونهم على الحياة . وإرادة الحرية فى أن يعيشوا عيشة الاستهتار والملاذ خارج المنزل منغمسين فى لذاتهم . وتراه آخر الامر يفضلون الارادة الثانية لما فيها من حرية وحب المال والذات معاً . ومن هذا يتضح لنا أن الرغبة الحقيقية فى تكوين المنزل غير متأصلة فى نفوسهم ولذلك تراه لا يعملون لها باخلاص حقيقى .

في أوقات الفراغ

لو تحدثت الى المصرى عن أحسن وسيلة يقضى بها أوقات فراغه أجابك أحسن جواب لأنه ذكى ويحيد التفكير ولكنه يعجز عن تنفيذ فكرته إذ تعوزه المؤهلات الخلقية لتحقيقها . ولو استطاع أن يفعل كما يستطيع أن يفكر لأصبح خير رجال العالم .

واذا ذكرتم أن نوع تربيته تركه ينشأ وفيه جزء كبير من نفسية الطفولة الأولى التى تسعى وراء اللذة فقط ، دون تعويده التضحية التى تمكنه من تنظيم حياته وتكييفها بما حولها من حقائق الكون ، وذكرتم أيضاً أن نوع هذه التربية يشعر بالضعف والعجز الذى فى فطرته ويزيد عليه التخويف والارهاب ، فلا تستغربون إذن وجود هذا النقص الذى تنميه فيه طبيعة بلاده الهادئة بجوها الجميل وتربتها الخصبة التى لا تجبره على الكفاح وطريقة تعليمه التى لا تساعد كثيراً على التخلص من هذا الشعور .

ومن كانت هذه نشأته فهل ينتظر منه الاطمئنان الى مقدرته والوثوق بكفايته والاقدام على العمل ؟ . كلا لا ينتظر منه الا الشك والتردد والاحجام ويترتب على ذلك اتكاله على غيره فلا يبذل كبير جهد فى طلب العيش وبالأحرى لا يشغل أوقات فراغه . بل يسعى فى تحصيلها فى لهو ولعب لا يتطلب منه مجهوداً ولا تضحية هذه نقائص يؤلم الشاب المصرى أن تؤثر عنه فيجتهد فى اخفائها حتى عن نفسه ويعمل على التوفيق بين نشأته ورغبته فيحاول أن يهرب ما استطاع مما يذكره بعجزه وضعفه حماية لكبريائه . . . فتراه دائماً يهرب من منزله الى القهوات والملاهى لتنسيه التفكير فى نفسه وأهل بيته منقطعاً عن كل عمل منتج فى أوقات فراغه خشية الهزيمة التى يتهيب منها والتى لم يعود نفسه الشجاعة الكافية لمواجهتها .

هذا ضعف فى خلقه يقضى النظام العقلى إخفاء عما سواه حتى عن نفسه الواعية ابقاء على كرامته وعزة نفسه فتراه لاخفاء هذه الحقيقة المؤلمة يسرف فى كل شىء فى فرحه وحزنه . فى مدحه وذمه . فى غيرته وانتقامه . فى قسوته وضعفه . وتراه يبالغ ما استطاع فى تجميل نفسه . وتنسيق هندامه .

وبما يزيد الاسف أن شغله الشاغل فى أوقات فراغه ينصرف دائماً الى انتقاد والديه ،

وأولى الأمر ، ورجال حكومته لعدم إعدادهم له ما يضمن نجاحه كما يريد ويشتهي . ويلقى الذنب عليهم لما صادفه من فشل . وهذه أيضاً طريقة للهرب من الحقيقة تدل على أنه لا يختلف في رجولته عما كان عليه في طفولته . ففي هذه كان كل اعتماده على والديه وفي تلك تراه معتمداً عليهما أو على من يقوم مقامهما من أولى الأمر .

العلاج

كنت أود أن أعدد حسنات الشاب المصرى التى ساعدته على النهوض بهذه السرعة الغريبة مما يدعو إلى الإعجاب ولكنى اقتصرت على تعداد نقائصه لأننى أريد إصلاحها ما استطعت كما أسلفت القول فى صدر مقالى هذا . وذكرت أيضاً أن هذه النقائص لا تخصنا دون سوانا بل هى عامة فى جميع الشعوب لأنها وليدة فطرة الطفولة . وحيث أن الأمم العريقة فى المدنية تسعى لتخليص شعبها من مثل هذه النقائص بجميع الوسائل فنحن أخرى منها ببذل هذا السعى لأنها عندنا أكثر مما هى عندهم . وحاجتنا إلى إصلاحها أشد من حاجتهم .

والآن يجب أن أقول كلمة عن علاج المشكلة الاجتماعية ذاكراً بإيجاز ما أراه مفيداً وضرورياً :-

(١) درس اخلاق الطفل لمعرفة أحسن طريقة مجدية لتربيته : هذا الموضوع الخطير طويل جداً ومتشعب الأطراف . فحبذا لو أنشئت جمعية تهتم له وتنتشر عنه النصائح العملية للوالدين الذين يجهلون تمام الجهل ليعملوا بموجبها فى تربية أطفالهم

(٢) مساعدة الشباب على التخلص مما نشأ فيهم من عجز ونقص وذلك بأمرين أولاً — إدخال التحسين اللازم فى منهج تعليمهم مما يودى هذا الغرض ثانياً — إنشاء جمعية تبحث مواطن الضعف التى تركتها تربيتهم الأولى فى أنفسهم لتصل الى إيجاد أحسن الوسائل للتغلب عليها ثم تذيب معلوماتها على الوالدين والمعلمين والمربين الذين لا يعرفون عنها شيئاً كثيراً كي يهتدوا بها فى تمكين الشباب من التغلب عليها

(٣) تنظيم قانون للقهوات — وكلنا يعرف كثرة عددها عندنا وكم تغرى الرجال بالاعراض عن أعمالهم ومنازلهم . فلو أن قانوناً يحدد عددها لما رأيت هذه الكثرة من الرجال تلجأ إليها بل تراهم ينصرفون الى أعمالهم ويلجأون إلى منازلهم .

هذا الموضوع — جليل الخطر وهو أطول وأكثر تشعباً مما أطمع في الالمام به والاحاطة بأطرافه وكل ما أطمع فيه أن أكون قد وفقت الى إثارة الاهتمام بهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة .





حضرة الآنسة مى

الفن والادب في حضارة مصر اليوم

لحضرة الأنسة مى

توطئة

ختم المرحوم الأستاذ كلبيان هيار المستشرق الفرنسى ، كتابه فى تاريخ «الأدب العربى» (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التى صدرت خلال القرن التاسع عشر — ونقول عرضاً ان تلك القائمة لا تخلو من الخطأ فى نسبة بعض الصحف الى غير أصحابها وفى التاريخ الذى عينته لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة بمجلة نقد فيها الأدب العربى كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار الى بعض ما ينتظر منه فى المستقبل . فقال فيما قال : « عرضنا فى الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضوجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى الى يومنا هذا . ثم أنسنا فى الجذع القديم تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهاراً — فضلاً عن ذلك الغصن العارض الذى تطعم به ، أغنى الصحافة الدورية . فأى مستقبل يتبأ لهذه الثقافة المتجددة ؟ أتجنى . محض تقليد للصور المدرسية (كلاسيك) أم اللغة ، وقد أرغمت على التحول والتطور لترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من قىّ التعبيرات ما يحرك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟

« يخيل لأول وهلة ان أوساطاً للنشاط الأدبى كالقاهرة وبيروت ، لهى جذيرة باخراج أدباء يتابعون الحركة التى بدأت على يد أسلافهم فى القرن التاسع عشر... وبأى الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحول وتنمو فتصبح أوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلا نفيّاً ، لأننا لا نلح فى

قطر من الأقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فجردتها من يانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلا لأهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامّة لتحديثها بما يهمها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية الى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقارىء المثقف أفكوهة ليس إلا ... « أما ما نود أن تأخذ به اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فإذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد جميل للآداب العربية . . اه

(١)

اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لأنها تقرير لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم يتفرد كاتبها بالنقد بل ساهمه فيه المستعربون من زملائه الأجانب وكان الألباء من أدبائنا أنفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لأنها تعين حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففى ما يوازى الوقت الذى شهد فيه الأستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أى فى ثلاثين عاماً لا غير ، تفلت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلظز والغلو البديعى والابهام الذى كان يشينها فى دور الجمود . وهذا تقدم يذكر فى نظر الباحث المنصف ، نظراً للورثة اللغوية الباهظة التى ترهق أدباء هذه اللغة . فى ثلاثين عاماً تطورت عندنا أقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكان همها جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفى بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتراف أول مراتب النجاح . بيد أن النجاح فى نواح هامة من البيان جاز مرتبة الاعتراف الى دور الانتاج والتحقيق

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنتشر الأخرى فى هذه الأيام — تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعى الانتباه فى النشاط الفكرى الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تجردت اللغة فى كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تخفى به افتقارها الى الفكر

الحى والعاطفة الحية . والسجع الذى كان أفكوهة للقارىء المثقف ، بات كبواقى الاطلاع المنزوية التى يجب أن تجد فى البحث عنها لتهتدى اليها . . .

اول بواعث التطور

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطور . فهى التى نهبت الأدباء الى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المتنوع العظيمة ولحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهى التى لفتتهم الى إمكاناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لاستغلال تلك الممكّنات بغير النشاط والعمل . وهى التى قالت لهم ان الذى يكتفى بما هو فيه قد يكون مومياة نفيسة توحى الى العلماء الرغبة فى البحث والاستقصاء ، ولكنه لا يستطيع أن يزعم أنه العقل المولد والكائن الحى . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب أول أدوات التعديل والاصلاح فى يد المستيقظين . واذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر فى صوته وفى تعبيره ما ينم على يقظته من الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون فى نومهم . . . ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت

اللغة والصحافة

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، فى حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه اليها من الكلمات والاسماء والتعابير المتطابقة وحاجتها . والصحافة التى كان الاستاذ هيار يتوسم فيها خيراً — قامت بنصيب وافر فى إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيا المتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية ، أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكك معاً . فاضطرت إلى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها فى كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تتبكر

وتعرب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة: إذ أن المستحدث من الالفاظ والتعابير صار في متناول القارىء كل يوم، إن هو أخطأه يوماً أو اسبوعاً أو عاماً تغلب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانه من تفكير القارىء ومن تعبيره. وتيسر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الالفاظ والتعابير واستبدالها بخير منها في معناها، إذا استطاعوا. والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية. إلا أن القارىء هنا شأنه في سائر البلدان، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلا إذا كان من الاختصاصيين أو من هواة الثقافة، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الاسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية

والى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البيان يرضى الخاصة — الخاصة غير المتحذقة — ويرفع إدراك العامة إلى أفق أوسع وأرقى. حتى ألف أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب. بل ألفها حتى الجمهور الذى يفك الحرف، يفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء، ويذهب طبعاً فى اللحن والتكسير على هواه، إلا أنه على كل حال يحذق أهم ما تبغى الصحيفة إيصاله اليه من الأنباء والمواحيات.

أثر الحركة القومية فى اللغة

وليس لمؤرخ منصف أن يغضى عن أثر الحركة القومية فى تقريب اللغة إلى أفهام العامة وفى إنالة الاسلوب الجديد بساطة وحياة. فالحركة القومية التى تلت الحرب الكبرى هزت فى مصر جميع النفوس، وحفزت جميع القوى، وجعلت الأمى كالمتعلم يتطلع الى ممشاة الحوادث فى سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بنى وطنه فى إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية. والكتاب كالرعاة الراغبين فى جمع القلوب حولهم، كانوا يشعرون بوجوب التمشى على منهج لا يستعصى على أحد فيسبون أقل ما يمكن من الافكار الجوهرية فى أقل ما يمكن من الالفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر فى الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص. ومن ثم، أى منذ الحركة القومية. نشأت تلك العادة التى ما زالت شائعة فى هذه الأيام، وهى اجتماع برابرة الدار الواحدة فى حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين اليه،

فيتولى أحدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفص جمعهم الا بعد تبادل الآراء في ما يسمعون ويقرؤون .

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطور اللغة . لأن الأدباء والكتاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف أحزابهم منبراً لدعائهم ، وكلُّ يبغي التفوق على مناهضيه في المناظرة اليومية التي لا تهدأ ولا ترحم . ومضوا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لاصابة المرمى . فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال ، بل هو وليد يومه ومستوحى ساعته . وتلك المشاحنات الالمية — على عديد مساوئها — كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستسقاء من النبايع الحية . وفي ذلك دليل آخر على انه في الامكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه

من الجدل السياسي الى البحث الأدبي

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمت الى الأدب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهللات القديمة كانت في حاجة إلى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت بمجاعتها في أعوام قلائل ما قد كان يقتضى لجرفه عمل جيل أو جيلين وبعد ، فمن ذا الذي ينكر أن النفس الفردية أو القومية إذا هي استفزت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسي في بادىء الأمر ، انتبهوا فوراً الى أن موضوعهم الرئيسى يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السلبية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبفس الروح الحية التي كانت تملئ مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الادبية والاجتماعية والفنية والفكرية بما يعلى المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدى لهم وللجمهور الذكى أن الكتابات التي كانت تعد بالأمس « خيالية » و « شعرية » إنما هي في الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لا بدت من الوصول إليها . في حين أن ما كان يحسب « بلاغة » و « فصاحة » صار لا يحسن إلا للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر إلى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عند ما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب — هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنويع موضوعات الصحافة ، لأن الاديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لأذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فإن وجهاً من أهم وجوه تطور اللغة وتطور الافكار بمصر تجده مدوناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الاعوام الاخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة — وإن كان لهذه أهميتها الخطيرة وكان بعضها بمجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف

صحيح، ولكن...

تقرير تطور اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعنى ان كل من حمل قلباً يكتب بالاسلوب الذى وصفت . بل يعنى ان خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وان الوقت ضمين باصلاح العيوب الباقية . إن أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسرون في حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكانوا يندبون حظ اللغة العربية ويصفون لها المراثى شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللبيب الدهرى منكبين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وان ابتكر هو استعارته فهى رجع لأصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون بالسرعة والرشاقة والحماسة والفكر الملى وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومئاته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأعراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلبية التى تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء وأولئك تأتى بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزع أن الاسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو انه خلس من شوائب الجدة نفسها ، ولكن نزعة الكتاب حرية بالاعجاب وعلام لا نقول ان كلا من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأناصار القديم — كأشباههم في كل أمة وكل زمن — يخفرون تراث الماضى

واقفين من أن الأدب المستحدث لن يأتي بخير منه ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لأنه يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها أيضاً . وبخاصة لأنه لا يندر أن يستوحى المحافظون الافكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون إلى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة أطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر به من ثقافة وتتصل به من حضارة . أترى أدب الاندلسيين هو هو أدب الأمويين بعينه ؟ أو لم يختلف أدب هؤلاء أنفسهم حقبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

والى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتاب والصحافيين والأدباء جمعت بين محاسن العهدين وهى فى الغالب تفوز بتحييد هؤلاء وأولئك — الا عندما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر ...

(٢)

الأدب الحديث

ليست هى الألفاظ ولا الأسلوب ما يؤبه له فى مسألة اللغة الأدبية . للأسلوب قيمة فى نفسه من حيث هو صيغة فىة ، وما الألفاظ الا تفاصيل فى تلك الصيغة . ولكن الأهمية العظمى فى العقلية والنفسية التى تترجم عنها الألفاظ ويصورها الأسلوب . والعقلية والنفسية فى مصر الحديثة آخذتان فى التغير ، وما الأدب الجديد الا اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذ عن تعريف ابن خلدون القائل ان « المقصود منه (الادب) عند أهل اللسان ثمرته وهى الاجادة فى فنّ المنظوم والمثور على أساليب العرب ومناحيهم ... » . الاجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريدّه الأدب الحديث لأن مثل هذه الاجادة تخلق الأديب الراوى والاديب المقلد ، لا الاديب المنتج المبدع . وليس هذا الا بآء ليعنى الطعن فى أساليب العرب ومناحيهم . بل بالعكس ترى أن أدباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الادب وبتحليل شخصيات قدماء الادباء والشعراء وبحث التأثيرات التى أحاطت بهم فى بيئتهم فأوحت اليهم . وقد صدرت كتب عدة فى هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج فى المحاضرات العامة

وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية بدراسة وحذق لم نعهدهما من قبل ولكن الأدباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيه ، لتصويرها العصر الذي أوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذي أملاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . أما إذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف في استعدادة للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقى التأثيرات الخاصة المحيطة به لتكوين شخصيته وفقاً لعصره .

وقيمة هؤلاء الأدباء الجدد في كونهم حقاً أبناء العصر الذي ولدوا فيه . وأى عصر مدحش هو ، يصطدم فيه حوله الماضي الذي ما زال حياً في بيئتهم ، بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكيف الأقوام تكيفاً لا يعلم أحد مداه ، مع أن تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . أما في مصر فقد بلغ الاجفال أشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغت فكره ثقافة مليئة زاهرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يحسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنه لا يستطيع أن يأخذ بالسرعة التي يبتغيها لأنه من الناحية الواحدة عليه أن يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الأخرى لا يريد أن يفقد شخصيته في انتحال الحضارة الغربية بحذافيرها . بل يريد أن يقتبس منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ويريد أن يمسر ، ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق المسؤولية اكبر . يشعر بالأجنحة تصطف على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الإدراكات والاحساسات تتكون شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة وأقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتائجها الأدبية تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات

وقد أفلح الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدها مشيراً إلى وسائل التجديد والاصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأدباء يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب ويمدهم في

كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيهم وألمهم فيستلهم حبة قلبه وبمجموعة مطالعته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق متحمس حار غيور . وعندى ان بينا هذا المجهود يكون شخصية الأديب ويمكنه من استغلال قدرته وانماها فهو كذلك يقود القارئ إلى استكشاف نفسه ويعت فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية ، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة . وهكذا بفضل الأدب الجديد تنوع الشخصيات في المجموع ، بدلا من أن تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة . ويخيل الى أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم به الأدب الحديث

(٣)

نظرة عجيلى فى أقسام الأدب

الأدب الحديث فى جوهره أصبح الآن فى مصر منه فى كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الأدبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم بما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات فى التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسهوه الأدب المستور والأدب المكشوف . وفى ما عدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة

الشعر والنثر

الأدب النثرى يسبق الأدب الشعرى بمراحل . الصعوبة التجديد فى الشعر العربى ؟ لست أدرى . ولكنى أدرى أن كثيراً جداً من القصائد التى نعتها كسلا أو مجاملة بالعصماء قد كان يمكن أن تنظم فى أى عصر من العصور الغابرة . وما زالت قصائد والمدح ، شائعة عندنا . وإذا استثنينا فئة صغيرة من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها فى نفس جديد ولو فى صيغة قديمة فى الغالب — فيمكننا أن نقول بأننا لا نلمح فى الشعر الحد الحاسم الجلى الذى نراه فى النثر . ولئن انضجت الحركة

القومية عدة مواهب شعرية فانها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفنى فأرسل الصيحة التى تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيداً .

فنحن فى هذا والشعوب الاخرى سواء ، لاننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقتة الحرب فى أية لغة من اللغات . بل القحط الشعرى يبدو فى كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً الى روح العصر الذى نعيش فيه ، وقد يكون النثر الفنى صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية فى هذه الايام

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهى أن الشعراء يخاطبون المرأة فى قصائدهم بضمير المؤنث ، وقد كانوا من قبل يستعملون فى مخاطبتها الضمير المذكور . وقد أقلع كبار الشعراء عن الاساليب المألوفة فى المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء نجوى أنهاراً كلما غمض امرؤ عينيه ليحضى الى بارية . ولما كان الموت على رقاب العباد ... !

أما النثر فهو الذى يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلال ترسم الشخصيات الادبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التى تبدع ابداعاً فى هذا الطور الحاضر . ولا أظن أن اللغة العربية فى أى عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذى نشهده اليوم . فالموضوعات الادبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شئ مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهاى أحسن ما يكتب فى صحف الغرب دقة وإحكاماً فى رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة — لو كان هناك مسابقة — بين سائر أقسام الادب . ويجارى فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم فى مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن الى أحسن . ومن دواعى السرور أن المرأة أيضاً تعتلى المنبر وتخطب فى الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى فى موضوعات عصية . والمسئلة والمسيحية فى هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة فى كل فن وخبر ، تبحث فى الاجتماع والتاريخ والادب والفلسفة والاخلاق والعلوم الفنية . وغيرها وصف جميل للرحلات والاسفار ووصف لعادات الشعوب واخلاقها ووسائل تقدمها ، وغيرها ذكريات شجية وترجمة عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للاطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب ... والرواية كذلك تحصى هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر

للنضوج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلاً في ذاته له خصائصه وسيكولوجيته وجوه ونزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنه في آن واحد . فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا به في هذا الوقت لانهما كهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعند ما ننظر الى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون . أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب

نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية وسلبها حتماً القصة السيكولوجية ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتأثر شيء منه كل يوم ، ووجوده وحى كبير للاديب المستعد لتلقى هذا النوع من الوحي . وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابه بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء بين المحبين — ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنه من غامض الأسرار

كذلك نقتدر الى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرى إلى المجاملة والثناء واما يبغى الطعن والتحقيق . ويندر جداً البحث النقدي النزيه الدال على تمام استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواح شتى . والغريب أن نفس الكتاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل اجادة وبخاصة أقل اصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندى أن الناقد البارع روائي على نوع ما ، وإن الرواية والنقد انهما تحاذيا اليوم في تخلفهما فيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهما . لأن الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية

الأدب الشعبي أو أدب العامة

في مصر أدب يجب أن لا يهمل ، هو أدب العامة الذي ندر من غنى به من الأدباء ، مع انه قادر على اخراج جنى خصب طلى لواهتم كل كاتب بحكايات مدينته واقليمه

١٠ — حضارة مصر

فدون ما يتناشده الشعب الساذج في حفلات الأعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلك الأدب في ازدهار ، أعنى الزجل ، الشعر العامي الجميل الذى يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادى والمحاذة اليومية . وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية — أخذ الله يدهم جميعاً !

ان لكل إقليم بيانه الأدبى المروى الذى يترجم عن الروح القديم فى أساطير وأنشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه المقيم وصبره واحتماله وتحدث عن عبقرية الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً الى النسيان والفناء

(٤)

الفن

الأدب النثرى أرقى الفنون جميعاً وأنضجها وان كان بعض الفنون أوسع رواجاً فى الجمهور وأقرب الى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها :

١ - التمثيل ، ٢ - النحت والرسم والتصوير ، ٣ - الموسيقى .

التمثيل

هذا أظهر الفنون فى مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الأدوار التى تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت أن تبعث فيها نفحة حيوية غنية . والتمثيل يرتبط بالأدب وبالتأليف المسرحى وبالحركة الفكرية والاجتماعية ويتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية فى تقدم محسوس . وقد ترجمت الى العربية روايات من غرر الأدب المسرحى فى العالم فجاء بعضها متطابقاً

والأصل الذى نقلت عنه ، و « مصر » غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسوخ غيرها مسخاً . وقد عنى جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للرحوم شوقي بك الفضل فى استحياء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها فى روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحى الآن فى حالة التكون . والنقاد المسرحيون أبرع فى ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة .

وقام فى الأعوام الأخيرة التمثيل السينمائى يسابق التمثيل المسرحى وهم الممثلون فى المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون فى ادخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها — فى كل رواية سينمائية تقريباً وصف العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة ، ولكن الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجى والفنى . يبدو أنه يمكن البت فى أن التمثيل السينمى المصرى لن يقف عند هذا الحد

النحت والرسم والتصوير

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحى من حيث كمال الصنعة ونضوج الفكرة — يمكن ترتيب المنتجات فى هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحى وقبل الفن الموسيقى . فى المعارض السنوية الرسمية كما فى المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدى الى شخصيات فنية هى على ثقة من وحيها ومن مقدرتها فى اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام فى احكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة فى تزايد وليس التقدم ليبدو فى الكمية وحدها بل فى الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا أول معرض أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً ، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن الى الآن يستوحى الصناعة الأوربية والفكرة الأوربية فالفنانون يميلون الى اخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطق يوماً الوراثة القديمة السكائمة فى فنانى هذه البلاد فيبتكرون فناً حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى

الموسيقى الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرتة الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الأساليب الحديثة التي روجها نادي الموسيقى الشرقى من ضبط الألحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية فى الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل فى تعلم الموسيقى العربية

ويتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من أفراد الضاربين على مختلف الآلات — عزفاً هو فى منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الألحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة ، وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها ، فكأن يتشابهن فيما يبدن مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذى ألف فيها التنوع والتفنن والتلون الى مدى لا يحد

أما أقرب الفنون الى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد اقبالاً منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون فى الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلقى فى جوها عاطفة الشجن الشرقى التى لا توصف . وإنما تتركز الموسيقى الغنائية فى مصر على صوت المغنى أكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلا أن أحسن ما تنشده فى نظرى هو الادوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . وأكثر ما يسمونه « تجديداً » فى الغناء خير له أن لا يكون . لأن بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التى لا تعتبر من الفن فى شئ بل هى من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ وإعادة وتكرار . ما زالوا يمددون فى الآهات وقتاً طويلاً جداً ويعيدون « يا ليلي يا عيني » فى تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لأعصاب تنظمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور يحب ذلك التطويل المخدر للأعصاب ويستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يتقنون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازديجار تلك العاطفة وانهاضها من ثاقلها الدهرى . وعلى ذلك ما زال العاشق فى الأغاني يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرته وجواه ،

الحركة سائرة الى الامام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشترك اقتصادياً وفنياً وأديباً وسياسياً وعلمياً في جميع المشاكل الطارئة على العالم

عند ما نقول قديم يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعند ما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدى وأكثر ارتباطاً . إذ ليس من بلد كصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فن العناصر الفرعونية الى العناصر المكدونية الى اللاتينية فالأغريقية ، فالعربية بتنوعها العديدة ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، الى عناصر أوروبا الجديدة كلها تقريباً الى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى — جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزاوجون الشعوب الغربية وهذا الامر — على ما يستوجه من الانتقاد في بعض الوجوه — يصب الدماء الشثية في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة « التصر » . وقد عرف دائماً لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها الى جزء منها دون أن تفقد فيه شخصيتها الصحيحة . وفي هذه الثروة الذاهرة من الوجهة الأدبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحيبة الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نبيلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تذيب نوعاً خاصاً من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطئ الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أى اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذى العقلات الغربية وتتفاهم واياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون . لأنها — وفي هذا أهميتها — مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الانسانية



الدين وأثره في حضارة مصر الحديثة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ على عبد الرازق

ليس في الدنيا حضارة نعرفها قامت دون أن يكون للدين فيها شأن كبير أو صغير ، ولا أمة عاشت دون أن يكون لها نوع ما من الدين أيضاً

والحضارة المصرية بنوع خاص تقوم منذ العصور الأولى على الدين وتتصل به اتصالاً وثيقاً بل أن بعض الباحثين الحديثين في تاريخ الأديان يميل إلى أن مصر هي مصدر النظام الديني في العالم . والأمة المصرية بنوع خاص أمة دينة منذ عرفها التاريخ . فقد تحدث هيرودوت عن المصريين وذكر أنهم يتميزون بأنهم أمة دينة

ولعل تلك الخلطة التي عرفها هيرودوت للمصريين قديماً لا تزال فيهم إلى اليوم ولا يزال المصريون كما كانوا أمة دينة . ولعل الحضارة المصرية الحديثة لا تزال تقوم كالحضارة القديمة على الدين وتتصل به اتصالاً وثيقاً . والفرق الوحيد أن دين الحضارة المصرية القديمة كان دين ميثولوجيا وأساطير . أما الحضارة المصرية الحديثة فدينها الاسلام والاسلام هو دين مصر وركن حضارتها منذ فجر الاسلام ، لم تتردد مصر في قبوله ولم تتخذ بدله ديناً .

من أجل ذلك يكون لا بد للباحث في حضارة مصر الحديثة من درس العنصر الديني فيها ، إذ هو أقدم العناصر في تاريخ مصر وأهمها ، ويكون الباحث في حضارة مصر الحديثة باحثاً بالضرورة عن حضارة مصرية اسلامية

ربما كانت الحضارة المصرية الحديثة متصلة بالحضارة المصرية القديمة ودينها إلى حد ما وبالحضارة الأوربية الحديثة ودينها كذلك ، وربما تكون متأثرة بأديان ومبادئ أخرى ولكنها على كل حال ترجع في آخر أمرها اسلامية وتخلص مصرية لا ينبغي أن تكون إلا كذلك ولا أن تعتبر إلا أنها حضارة مصرية اسلامية

ولسنا نريد فيما نتولى من البحث أن نعرض إلا لما يخص جانب الحضارة المصرية من وجهة النظر الاسلامية ، فاما وجهة نظر الأديان الأخرى فغيرنا أقدر على بحثها وأولى به

والذى تقصد اليه من درس الحياة الدينية فى مصر يقع فى ثلاثة مباحث

- ١ - هل الحياة الدينية تتغير فى مصر وتتطور أم لا .
- ٢ - واذا كانت تتطور وتتغير فما هى الأسباب التى تؤثر فى ذلك
- ٣ - ما هى طبيعة هذه التغيرات ومدى أثرها ومقدار خطرها

(١) اما أن الحياة الدينية فى مصر قد أصيبت بتغير كثير فى أغلب نواحيها فذلك ما لا مساع للشك فيه . واذا نظرنا الى حالة المدن الكبرى فى مصر لبحث الحياة الدينية فيها وجدنا مظاهر التغير واضحة ، ووجدنا فرقا واسعا بين المناهج الدينية وانظمة الحياة فى جيلنا الحاضر وجيلنا الماضى القريب .

كان آباؤنا منذ ثلاثين عاماً أو نحوها يعتبرون الجلوس فى القهوات شيئاً لا يليق بالكرامة ولا يناسب الوقار الدينى ، وكان شيوخ الأزهر الى عصر قريب يثنون العيون رصداً ليقبضوا على كل طالب يجلس فى القهوة ويقدموه للعقاب ولقد عرفت من آباؤنا من كانوا يتعففون حتى عن غشيان الفنادق وان كانت محترمة ، ويعتدون ذلك عملاً يزرى بالمرءة ، كما تعتبر نحن الجلوس فى الخماره مثلاً عملاً يزرى بالمرءة وسمعتهم وهم اذا ذكروا أوتيل شبرد وهو الذى تعرفون نخامة ورقياً قالوا عنه خماره شبت . وكانت التيارات فى نظرهم مفسدة لا يغشاهها الا أرباب الخاق المريب ولا يشتغل فيها الا ذوو المقام الوضع . ومن أجل ذلك وضعوا من قدر المرحوم الشيخ سلامه حجازى وأخلوا ذكره ، وكذلك فعلوا مع أهل الموسيقى والغناء أمثال عبده الحولى والشيخ يوسف المنيلوى أما الرقص فقد كان اثمه عندهم أكبر من كل خطيئة . لذلك كانوا يجنبون مجالسهم أن يذكر فيها اسمه ويصونون ألسنتهم عن أن تجرى بذكره

أولئك هم الآباء . أما الابناء فامرهم غنى عن البيان . وسألتوهم ان شئتم دور السينما والتياترات وصلات الرقص والغناء . أو سألتوهم قهواى الازبكية وعماد الدين أو سألتوهم حافظ بك ابراهيم اذ يقول :

أفى الازبكية مثنوى البنين وبين المساجد مثنوى الآب

تلك حال تصدق على الحياة الدينية فى مدائن القطر الكبرى كقصر والاسكندرية . ولكن الباحث يخطئ كثيراً اذا هو وقف يبحه عند النظر الى هذه المظاهر التى يجدها

في الأمصار الكبرى دون أن ينظر الى ما في الريف والقرى فإن الفرق بين الحياتين كبير. فالحياة في المدن صناعية من طبيعتها الحركة المضطربة والتطور السريع. والحياة في الريف زراعية من طبيعتها الهدوء والبطء. لذلك كانت المدن تمثل في أغلب احوالها غلاة الاحرار بينما يمثل الريف في أغلب احواله غلاة المحافظين

والواقع أن حياة الريف الدينية لم تبلغ من التغير ذلك المبلغ الذي تشاهدونه في المدن حتى لقد يحسب بعض الباحثين أن حياة الريف جامدة لم تتغير ولكن ذلك من خطأ الرأي فالحياة الدينية في الريف على ما فيها من بطة وهدوء قد أصابها التغير وحاقت بها سنة التطور

ومن التغير الذي يبدو هيناً وهو عند الريفيين عظيم انهم رضوا أن يحولوا بعض الساعات الكبرى في مساجدهم من ساعات عربية الى ساعات افرنجية بعد أن رفضوا ذلك وقاوموه زمناً طويلاً وفي كثير من القرى قد رضى أهلها أن يبتلعوا تلك البدعة التي درج عليها المؤذنون قروناً عديدة بدعة الصلاة والتسليم على النبي صلى الله عليه وسلم عقب الأذان وكذلك بطلت في أغلب الأرياف تلك المواسم التي كانت تقام لذكرى موالد الأولياء والصالحين ومن الملاحظ أيضاً أن اعتقاد الريفيين في مشايخ الطرق والأولياء قد أصبح أدنى الى الاعتدال والتهديب من بعد أن كان الناس يتعلقون بهم تعلق العبادة ويتخذونهم وسيلة لشفاء المرضى وقضاء الحاجات. ولعل أظهر ما أصاب الحياة في الريف من تغير هو أن أحاديث العناريت وقصصهم قد تلاشت أو كادت تلاشي.

لا نريد أن نمضي في سرد ما أصاب الحياة الدينية في المدن والقرى من تغير فأن احصاء ذلك عسير، ولقد يكون الذي ضربنا لكم من الأمثلة كافياً ليدلكم على ما أردنا أن نصل بكم اليه من أن الحياة الدينية في مصر تتطور وتتغير.

(٢) وننتقل الآن الى البحث الثاني في أسباب هذه التغيرات ومناشئها. ولا أمل لنا في أن نصل بكم إلى حصر تلك الاسباب والمناشئ حصرأ جامعاً مانعاً يرضاه فن المنطق، فأن ذلك مطلب عسير. ولكننا نستطيع أن نحاول ذلك على وجه تقريبي لا يخلو من تساهل ولكنه ربما كان قريباً من الصواب.

ومهما تنوعت واختلفت تلك الاسباب والمناشئ فقد يمكن أن نردها كلها أو غالبها إلى سبب أساسي واحد، ذلك هو أن مصر بجميع مقومات الحياة فيها تتقلب اليوم في سلسلة من التحول والانتقال وتسير في تطورها سيراً حثيثاً

تعلون أن مصر بطبيعتها أقرب مراكز الاتصال بين الشرق والغرب، وأنها في نظر الأمم الغربية باب الشرق ولا بد لهم أن ينفذوا من ذلك الباب إذا هم اتجهوا شرقاً، وهي في نظر الأمم الشرقية باب الغرب ولا بد لهم أن ينفذوا منه إذا هم اتجهوا غرباً، وتعلون أن الفلك الدوار قد نقل إلى سماء الغرب كوكب القوة والسلطان من بعد أن أطلعه في الشرق حيناً، وإن الأيام التي يداولها الله بين الناس قد جعلت الدولة للغريين وكانت من قبل للشرقيين، فعند الغريين اليوم المال والعلم والقوة، وعندهم الحضارة الغالبة، وهم يولون وجوههم شطر الشرق كما ينظر القوى الطامع إلى الضعيف يريد أن يغزوه ليعسط عليه سلطانه ويستعمر أرضه ويستغل ثمره، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر لأنها أقرب حصون الشرق إلى الغرب، ومن بسط عليها يده فقد دنت بلاد الشرق من قبضته. والشرقيون يولون اليوم وجوههم شطر الغرب لأن الضعيف ينظر إلى القوى دائماً، ولأن المغلوب كما يقول ابن خلدون مولع باتباع الغالب، وهم بذلك يولون وجوههم شطر مصر، لأن خطر هذا الغزو الغربي قد روعهم فاتجهوا بأنظارهم صوب مصر أقرب حصونهم إلى بلاد الغزاة وأهمها

فصر كما ترون ملتقى نظر الشرقيين والغربيين، وميدان النضال بينهما، وبذلك أصبحت مركزاً من أهم مراكز النهضة الشرقية الحديثة، وخصوصاً بين الأمم الإسلامية، وبنوع أخص بين الشعوب العربية حتى قال الناس عنها حقاً أو باطلاً إنها زعيمة البلاد الشرقية وحاملة لواء الحضارة فيها.

ومصر من قبل أن تتعرض لغزو الحضارة الأوروبية الحديثة كانت أبداً وثيقة الاتصال بالغرب وواسطة ارتباطه بالشرق. فقد اتصلت منذ العصور القديمة باليونان والرومان ويظن بعض الباحثين أنها قد اتصلت بغيرهم من شعوب أوروبا الشمالية، وما برحت الحياة المصرية منذ القدم تتأثر بالحضارات الأخرى من أمم الشرق والغرب وتتطور دائماً، ولكن تطورها كان في أغلب أحواله تطوراً هادئاً رقيقاً. فأما حين تعرضت لغزو الحضارة الأوروبية الحديثة — تلك الحضارة التي يقوم تاريخها على الثورات العنيفة والانتقالات الحادة، والتي نبتت أصولها في مجارى الدم وعلى هام الشهداء — حين تعرضت مصر لغزو تلك الحضارة أخذ التطور فيها يسير سيراً حثيثاً عنيفاً كان في رأى بعض الباحثين ثورة وانقلاباً

ففى خلال جيلين اثنين أو ثلاثة أخذت المدارس تنتشر فى أنحاء القطر ، فقل عدد
الأميين ، وازاد العلم انتشاراً ، وسرت الجرائد ، وتداولها القراء فى نواحي القطر ، وتمكنت
العلائق بين المصريين وبين الحضارة الأوربية بما استحدث العلم من وسائل قربت على
الناس ما بعد من المسافات والأزمان ، فسهلت المواصلات الدولية ، وتيسر الانتقال فى
البر والبحر والفضاء وتخطب الناس بالتلغراف والتليفون ، وتعارف القريب والبعيد
بالفوتوغرافية والتصوير ، وتقارب ما كان بعيداً بين التفكير المصرى والأوروبى ، وكان
ذلك كله مما ساعد على انتشار نوع جديد من الادب والثقافة ، فظهرت فى مصر بوادر
حضارة قوية جديدة ، ونشأ جيل مصرى حديث ينعم من وسائل المدنية والرفه بما لم ينعم
به الاولون ، ويأخذ من أسباب العلم والتمذيب بنصيب لم يتوفر من قبل للبصريين .

نشأت مع هذا الجيل الجديد وتلك الحضارة الحديثة ظروف وتطورات اجتماعية كان
لا بد أن تتأثر بهما الحياة الدينية فى مصر وقد تأثرت بهما الحياة فعلاً ، فكان من ذلك
ما رأيت من الخلاف الشديد بيننا وبين أجدادنا فى مظاهر الحياة الدينية ومناهجها وكان
من أثر ذلك أن أصبح المصريون يتناجون اليوم ويتجادلون فى الغاء الاوقاف ، وترجمة
القرآن الى اللغات الأجنبية ، ولبس البرنيطة ، وتقيد الطلاق ، ومنع تعدد الزوجات ،
 وغير ذلك مما يسميه أصحابه اصلاً دينياً . ولقد أصدرت الحكومة المصرية قانوناً يمنع
الزواج قبل سن السادسة عشرة ، من بعد أن كان الزواج فى كل سن سنة من سنن المسلمين ،
 وكان نصف هذا الدين .

جرت مصر منذ العصور الاولى على أن يكون الحكم فيها شريعياً ، يرجع الى أحكام
الاسلام والامور الاسلامية ، وكان المصريون يفتون من أن يحتكوا الى غير قوانين
الاسلام . لان الحكم بغير ما أنزل الله كفر صريح فى القرآن . ولكن القوانين قد
أصبحت فى مصر تؤخذ أحياناً من قوانين أوربا ولا يرى المصريون حرجاً فى أن
يحتكوا اليها ولا أن يخضعوا لها وافقت الفقه الاسلامى أم لم توافق . ومن قبل ذلك
استطاع الخديوى اسماعيل باشا أن يضرب على المصريين قانون نابليون شريعة لازمة
ويأخذهم بأحكامها أخذاً . وما كان ذلك كله الا خضوعاً لما أسلفنا من حكم الظروف
الاجتماعية والتطورات التى نشأت مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد

نشأت أيضاً مع الحضارة الجديدة والجيل الجديد فى مصر ظروف وتطورات فى

هم أنفسهم ولاية الأمر وأرباب السلطان التجأوا الى رجال الحكم السياسى، يستمدون منهم القوة، ويتخذونهم وسيلة الى الحكم. والحكام السياسيون من الجهة الأخرى يريدون دائماً أن يكون لهم على قلوب الرعية سلطان دينى، يثبت لهم الحكم ويمكن لهم من رقاب الأمة، وهم لذلك يفتحون لأنفسهم صفات وخصائص دينية تجعلهم من رجال الدين وتفيض عليهم قداسة دينية وحصانة دينية، لذلك كانوا يزعمون أنهم ينوبون فى الحكم عن الله جل شأنه، وأنهم حماة الدين وحاملوا لوائه، وكانوا يتخذون علماء الدين وأحباره وزهابة وسيلة الى ما يريدون. وعلى هذا الأساس كانت الخلافة فى بلاد الاسلام سلطة يؤيدها شيخ الاسلام وتجمع بين الحكم فى شئون الدنيا والدين، وكان الخليفة اماماً دينياً وسياسياً معاً، وكذلك كان شأن المسيحية فى بلاد الغرب، فلا يكاد يقوم فيها حاكم سياسى لا يعتمد على تأييد الكنيسة، ولا تقوم كنيسة لا تعتمد على الحكم السياسى والسلطان.

وعلى هذا الأساس أيضاً أرادت القوة السياسية من قديم الزمان أن تحدث لها فى مصر قوة دينية تؤيدها وتعاضدها فأنشأت الجامع الأزهر، وأسبغت عليه اسم الدين، وعلى أهله برزاً دينياً، وما برح الأزهر منذ يومئذ ربيب السياسة وآلة الحكام السياسيين وسندهم.

والحكومات التى تعتمد على قوة الدين وقوة السياسة معاً لا تكون الا مطلقة غير محدودة السلطان ولا خاضعة لرقب. وهذه الحكومات المطلقة عرضة دائماً لأن تستبد وتطغى. لذلك لبثت البشرية ترزح تحت سلطان هذا الحكم المطلق، الذى يزاوج الدين بالسياسة، وتلقى من تألب الحكام الدينيين والسياسيين شر ألوان العذاب، الى أن ثارت أوروبا تلك الثورة العنيفة الدامية فى وجه ذلك النوع من الحكم، فقوضت أركانه وهدمت قواعده، بما فرقت بين الدين والسياسة أولاً، وبما قللت من سلطان كل منهما ثانياً، ونشرت حضارة أوروبا الحديثة بين الناس مبادئ حرية الانسان وحرية الفكر والديمقراطية والحكم النيابى وأمثالها. فلما اتصلت مصر بأوروبا ذلك الاتصال الذى ذكرنا أخذ المصريون ينجحون الى هذه المبادئ. ويعملون لها. وانكم لتعرفون أن المصريين منذ حكم اسماعيل باشا أو قبله يعملون على تحديد سلطة الحكومة، وضبط نظام الحكم على قواعد

الحياة الاقتصادية تأثرت بها الحياة الدينية أيضاً . ولا شك في أن النظام الاقتصادي في أي شعب من الشعوب مؤثر كبير في دينه وفي خلقه .

الاسلام شديد وصرح في تحريم الربا ومحاربة المربين . والمصريون يمتقنون الربا والمربين مقتاً شديداً ، لان المصريين مسلمون متدينون ولان في طبيعتهم كأمة زراعية أن يتساهلوا في تبادل المنافع وتقارض المسال . وكان الربا الذي يكرهونه منذ أقدم العصور شاملاً لجميع أنواع الربا ، فلما أخذوا بأسباب الحضارة الحديثة كثرت مطالبهم ، ودفعتهم ضرورات الحياة الى التماس المال ، فأنشئت بينهم البنوك وصناديق التوفير وشركات التأمين على الحياة وغيرها ، وما لبث المصريون أن أقبلوا عليها . وتعاملوا على شروطها ، ورأينا يومئذ علماء الدين يبحثون في أن الربا المعتدل حرام أم حلال وفي أن استرباح المال في صناديق التوفير حرام أم حلال وفي أن التأمين على الحياة حرام أم حلال .

كانت المحاكم الشرعية اذا ثبت لها ان مسلماً استدان من بعض البنوك لم تقبل له شهادة ، ولم تقره ناظراً على وقف ولا في ولاية ، أما اليوم فقد تبدلت هذه الآية وانعكست .

ومن بعض ما تشهدون من أثر الحالة الاقتصادية في الحياة الدينية أن عدد الحجاج المصريين نقص في هذا العام نقصاً كبيراً ، وأهم سبب لذلك هو الضيق المالى الذى يعاينه القطر في هذا العام . وربما كان من أثر الحالة الاقتصادية أيضاً ما تلاحظون من خروج النساء الى ميدان العمل ، تضطرن حاجات الحياة الى التوظف ومزاولة الحرف والصنائع ، وقد استتبع ذلك انتشار السفور ، وقلة احتجاب النساء عن مجالس الرجال ، وكان ذلك مما سهل عليهم أن يجتمعوا معاً فى المدارس والحفلات فى دور السينما والسيارات ، مع انكم تذكرون ما لقيته دعوة المرحوم قاسم امين الى تحرير المرأة منذ ثلاثين عاماً تقريباً . بقى بعد هذين العاملين الاجتماعى والاقتصادى عامل آخر ، هو أيضاً من أهم عوامل التغير الدينى في مصر ، وهو العامل السياسى

نشأت مع الحياة الجديدة فى مصر ومع الجيل الجديد ظروف سياسية جديدة مست الحياة الدينية وأثرت فيها

والسياسة والدين كما تعلمون عنصران متلازمان ، يعتمد كلاهما على صاحبه كل الاعتماد . وذلك ان رجال الدين فى جميع الأمم والعصور يطلبون الحكم ، ويريدون أن يكون يدهم زمام الناس يأمرهم فيهم وينهون ، ويحرمون عليهم ويحللون ، فاذا لم يستطيعوا أن يكونوا

الحياة النيابية والدستورية ، ولا يزالون الى اليوم يجاهدون في سبيل ذلك جهاد المؤمن بحقه ، المصمم على الدفاع عنه

تأثرت الحياة الدينية في مصر بهذا التطور السياسي ، فبعد أن كان مشايخ الطرق مثلاً يحكمون في أتباعهم حكماً دينياً نافذاً قوياً تزلزل من النفوس سلطانهم ، وتمرد التقدم المصري الحديث حتى على هذا التحكم الروحي . وبعد أن كان خليفة المسلمين في استنبول مجمع السلطين الدينية والمدنية ، وبعد أن كان المصريون يعرونه رعاية الاحترام والتقدير ، أخذوا يجادلون في حتمه ، ويتكفون في الخضوع له ، ثم يخرجون عليه وينكثون بيعته ، ثم ينكرون الخلافة من أصلها ويقولون انها ليست من الدين . وبعد أن كان لعلماء الأزهر نوع من السلطان في مصر ضعف مقامهم ، وتلاشى سلطانهم . وخلص المصريون أو كادوا من ربة التحكم الديني . ولعلمهم على وشك أن يخلصوا أيضاً من ربة التحكم السياسي واستبداد الحكام السياسيين

نكتفي بهذا القدر في بحث الأسباب والعوامل التي تؤثر في الحياة الدينية في مصر (٣) وننتقل الى البحث الثالث الأخير

أدركتم بما سبق ذكره أن كثيراً من جوانب الحياة الدينية ومظاهرها قد أصابه التغيير وأن ذلك قد تغلغل الى تقاليدنا وآدابنا وعقائدنا وإلى حياة الفرد والجماعة وإلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . فهل نحن إذن ازاء تطور بعيد الأثر وشديد الخطر ؟ وهل ينبغي أن يجرع من عواقب هذه الحالة الاسلام والمسلمون ؟ الأمر يحتاج الى بحث وتدير . ويجب أن نعرف قبل ذلك هل بلغ من تغير الحال الدينية في مصر وتطورها أن نأثر عدد المسلمين أم لا ؟ وأن ضعف في المصريين الشعور الديني أم لا ؟

أما عن عدد المسلمين فإن الاحصاءات الرسمية تدلنا على أن نسبة المسلمين في مصر الى غيرهم مطردة الزيادة ، كما أن عدد المسلمين في العالم مطرد الزيادة . إذن فنستطيع أن نقول أن أثر التطور الديني الحديث في عدد المسلمين أثر إن لم يكن محموداً فإنه غير مكروه . بقي الشعور الديني ، فهل تأثر في مصر ، وهل ضعفت الروح الدينية في المصريين ؟ لقد يبدو للناظر الى بعض الظواهر أن شيئاً من الوهن والفتور قد دب الى عواطف المصريين الدينية . فإن من الملاحظ أن بعض الطبقات في مصر أصبحت تتراخي جهاز

في اقامة الشعائر الدينية وتظاهر بالمعاصي، ولكن الذي يحقق النظر ويعين في البحث يرى أن هذا الذي يبدو تراخياً في الدين واهمالاً لشعائره ليس في حقيقة الأمر ناشئاً من تزلزل في العقيدة، ولا فتور في العاطفة، ولا ضعف في الروح، وإنما منشؤه ضعف في الخلق وفتور في الشعور بمعنى الفضيلة

وإنما يتهاون المصريون في دينهم ويتظاهرون بالانحراف عنه لأن الخلق المصري نفسه قد أصيب بالضعف والانحلال من كل النواحي: ضعف في الخلق الاجتماعي، وضعف في الخلق السياسي، وضعف في الخلق الديني. ولقد يكون المصري الذي يتجاهر بالفجور الديني مؤمناً صادق الإيمان، ودينياً مخلصاً لدينه، ولكن يغلبه على إيمانه ودينه شقاوته وضعف نفسه وخلقته. وذلك كما تجدون اليوم بعض المصريين يجاهرون أمتهم بالفجور السياسي، وقد يكون فيهم من يؤمن في أعماق نفسه بأن للسياسة خلقاً وفيها فضيلة ولكن يغلبه على خلق السياسة وفضيلتها شقاوته وضعف نفسه

فالتهاون الديني في حقيقة أمره ظاهرة خلقية ينبغي أن يستقل بالبحث فيها علماء الاخلاق قبل علماء الدين. يدلكم على هذا أنه كلما ظهرت في مصر حادثة قد تمس مواطن الاحساس الديني وتتهيج مشاعره رأيتم من أولئك المتهاونين في دينهم المتجاهرين بالخروج عليه من يكونون أسرع الناس الى الخفيضة، وأشدهم غيرة على دينهم والنهابة

وتلك حالة نفسانية مفهومة. فأنكم تجدون بعض الذين أصدبوا بعبادة التدخين وعجزوا عن مقاومته من أشد الناس تحمسا للدعاية الى أبطال التدخين وأصدقهم إيماناً بضرره وأمضاهم عزماً في محاربته. وكذلك يكون بين أهل الفساد والضلال دعاة للاخلاق والفضيلة صادقون.

اذن فلعل هذه التغيرات التي أصابت الحياة الدينية في مصر وقصصنا عليكم أمثلة منها ليست الا حواشي وأعراضاً لم تتصل بجوهر الاسلام ولم تؤثر في أركانه وقواعده. ولعلنا نستطيع أن نقول ان العاطفة الدينية في مصر لا تزال سليمة نامية، وأن الشعور الديني لا يزال حياً قوياً

سيقولون ما بالك تتغاضى عن دعوة الاتحاد الديني التي قامت تنشر جناحين في سماء مصر، وتنفث سموها في قلوب المصريين، وترفع علم الزندقة فوق دور العلم وبين المتعلمين والعامه. وما بال تلك الصيحات المنزعجة وهذه الجموع الهاشجة ضد الاتحاد والملاحدين؟

طبعي أن يكون في مصر ملاحدة أو زنادقة أو منافقون، يعلنون الإيمان

ويسرون الكفر . لأن ديناً من الأديان وأمة من الأمم وعصراً من العصور لا تخلو من هؤلاء . وعصر النبوة نفسه لم يخل منهم ، لأن الله لم يرد أن يجعل في هذه الدنيا خيراً محضاً لا ينبت في جوانبه الشر ، ولا إيماناً شاملاً لا يقوم حوله كفر

ولقد نبئت في أحضان الحضارة الحديثة نزعات خبيثة الى الألحاد ، وسرت في ركابها دعوة منكرة الى المادية ، وقد كان للألحاد والمادية في تاريخ الحضارة الأوروبية الحديثة وتطورها شأن مذكور . أما في مصر فأن شأن الألحاد والمادية لا يكاد يكون مذكوراً ، ومقام الألحاد في مصر اليوم يوشك أن يكون مقامه من قديم الزمان ، وما زالت مصر كما كانت من قبل لا يقوم فيها ملحد ولا ترتفع فيها دعوة الألحاد الا في الحين بعد الحين وفي الجيل بعد الجيل ، ولم تتكشف حضارة مصر الحديثة عن قوة جديدة للألحاد ولانشاط حادث للملحدين

إذن فما بال أولئك الصائحين يملأون الأرض صراخاً وعويلًا ويفزعون من هول الألحاد وخطر الملحدين ؟

الامر بين . هناك كما عرقت تطور حديث في الحياة الدينية ، وهناك نزعة ثائرة ضد ما كان لرجال الدين وعلمائه من قوة وسلطان ، وهناك نزعة قوية ضد الحكم المطلق الذي يعتمد على سلطان الدين . وهناك رجال يناصرون تلك النزعات الحرة الخالصة للدين وللوطن وهناك في مقابلة هذا نزعات قديمة الى التحكم الديني والسياسي ، وهناك رجال يناصرون هذه النزعات . والحرب التي تسمعون حديثها ليست كما يزعمون حرباً بين الألحاد والإيمان ، ولكنها الحرب بين الدعوة الحديثة الى التجديد والانقاذ والدعوة البالية الى الجحود والاضمحلال ، بين الحياة والموت ، بين أولئك الذين يدفعون الى الامام مصر ودين مصر والذين يريدون أن يدفعوا الى الوراء مصر ودين مصر

سيقول آخرون : أين أنت من حركات التبشير المسيحي وما فيها من خطر على الاسلام والمسلمين ؟ وأين أنت مما تصيب به الناس من فتنة في دينهم وضلال عن سواء السبيل ؟ يخيل الى من ينظر الى معاهد التبشير في مصر وضخامتها ، وإلى نشاط المبشرين وما يقتربون في سبيل الدعوة الى المسيحية من خير وشر ، ومعروف ومنكر ، أن وراء الأكمة خطراً خفياً ، وأن بين الضلوع داء دويماً ، ويخيل لمن يسمع حيناً بعد حين أن المبشرين قد فتنوا طفلاً أو خادعوا فتاة أن الامر جلل ، وأن الاسلام منهم على خطر .

ولكن الذى ينظر من وراء هذه الظواهر الخادعة الى الوقائع الثابتة ، والذى يستنطق الأرقام ويستمع إلى صوت الحقائق يجد أولئك المبشرين أقل شأناً من أن يصلوا بكيدهم الى حى الإسلام ، أو ينالوا من المسلمين منالاً فالإسلام دين قد صهرته الحوادث ، وتقلبت عليه الفتن ، وعصرته التجارب ، وقارعه سيوف القوة والبغى ، وحاربه الدسائس بشر أنواعها ، والفتن بكل أصنافها ، منذ أجيال وأجيال ، نخلص من خلال ذلك كله سليماً قوياً ، لم تلحق به شبهة ، ولم تعلق به وشمة ، ولن تبلغ جهود المبشرين وان تعاظمت . ولا حيلهم وان دقت ، ما بلغت من قبل تلك الغوائل التى أرادت أن تقف فى طريق الإسلام فداسها الإسلام بأقدامه وحطمتها تحطيماً ، ومضى فى طريقه إلى الأمام قدماً

ولقد مضى على المبشرين فى مصر عشرات من السنين لم يألوا جهداً ولم يتعففوا عن وسيلة من وسائل الدعاية ثم أنتم هؤلاء ترون ان الإسلام لا يزال قوياً وان البركة لا تزال فى المسلمين

ان خطر المبشرين سياسى وخلقى أكثر مما هو دينى . وان مصيبة المصريين بالتبشير والمبشرين ان تنال دينهم بأكثر مما تجنى على وجودهم السياسى وعلى أخلاقهم . من الملاحظ أن بين التبشير المسيحى والتبشير السياسى علاقة لا ينبغي أن يغفل عنها الباحث ، وقد يكون التبشير المسيحى فى خفى أمره آلة من آلات الغزو السياسى والاستعمار ، وقد يكون الغزو السياسى آلة من آلات التبشير المسيحى ، وسواء كان هذا أم ذاك فالعلاقة بين المبشرين والمستعمرين كالعلاقة التى كانت فى قديم الزمان بين رجال الدين والسياسة ، وهى التى حدثنا كم عنها آنفاً .

يدلكم على ذلك أن سلطان التبشير المسيحى يشتد ويقوى ، ونشاط المبشرين يتزايد كلما كانت الأمة ضعيفة وكانت ميداناً للنشاط السياسى والمطامع السياسية ، هنالك يديض المبشرون ويفرخون تحت أجنحة الدسائس الاستعمارية وفى كنف القوة السياسية ، ذلك شأنهم فى أواسط افريقية وشرقها مثلاً وفى مراكش والجزائر . وعلى نسبة ما يكون للأمة من قوة واستقلال يكون ضعف المبشرين وانكماشهم . فإذا ما بلغت الأمة كمال قوتها واستقلالها وجدت سلطان التبشير متلاشياً ، وحركة المبشرين خاملة ، كما فى تركيا وأفغان وبلاد العرب إذا فالتبشير المسيحى مرض سياسى وخلقى . وعلى رجال السياسة والأخلاق فينا أن يبحثوا فى طريق الخلاص منه

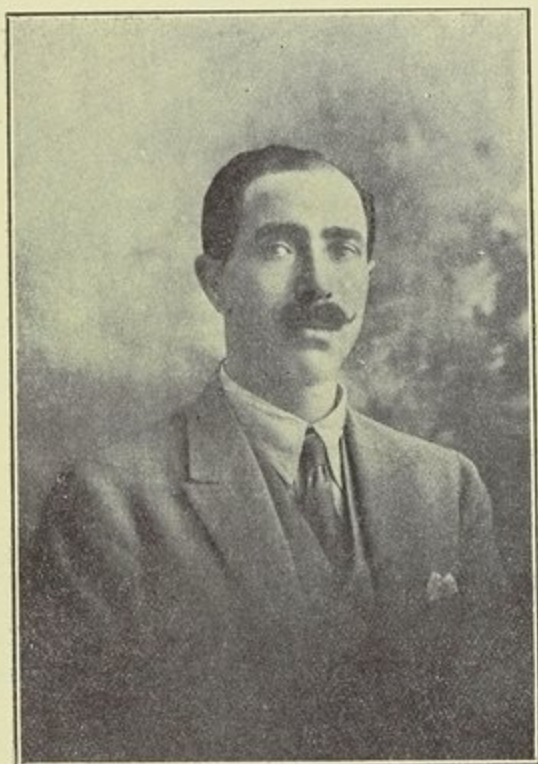
النتيجة التي تخلص لنا مما سبق أن الحضارة الحديثة في مصر قد أثرت في حياتها الدينية، وأن تلك الآثار كثيرة الشعب وواسعة الفروع، ولكنها على كثرتها وتشعبها لم تصب جوهر الإسلام بسوء ولا عرضته لمكروه، بل لعلها قد أقدته من كثير كان يشوبه، وخلصته من علل كانت تنابه، وهياته لأن يسير في طريق الكمال سيراً حثيثاً

ان الحضارة الحديثة، على ما يشوبها من مادية وإلحاد، وما يعيها من نقائص خلقية وغير خلقية، لتخطو بالبشرية خطوة جديدة تقربها مما أعدت له البشرية من رقى وجمال، وتقرب العقل الأنساني الى ما نبغى له من إطلاق الفكر وحرية البحث وراء العلم الصحيح خالصاً من ضغط الاستبداد وتقاليده الجاهل والجمود وان الحضارة الحديثة إذ تحاول ذلك لتساير الاسلام الصحيح نحو الغاية التي يعمل لها، وتشر المبادئ التي يريد أن ينشرها

من كان يظن أن الاسلام هو أن تبقى المرأة محجبة، وأن يبقى الحكم السياسي مطلقاً، وأن يكون رجال يزعمون أنهم يتحكمون باسم الدين في عقول الناس وعاداتهم وشئونهم، وأن تبقى العقول جامدة، والنفوس خاضعة، والأذهان متحجرة، من كان يظن أن الاسلام بين جدران الأزهر، وبين اللحى والعمائم فان الحضارة الحديثة في مصر ستقضي على دينهم الذي يزعمون، وتجتثه أصولاً وفروعاً

ومن كان يظن أن الاسلام دين الفكر الحر والحكم العادل والعلم الصحيح، ودين الحرية والمساواة فان الحضارة الحديثة في مصر تهيم المستقبل القريب باسم لدين الفكر الحر، ودين الحكم العادل، ودين العلم الصحيح، ودين الحرية والمساواة، دين الاسلام.





حضرة صاحب العزة الدكتور محمد حسين هيكل بك
مدير جريدة السياسة

الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية

لحضرة صاحب العزة الدكتور محمد مسين هبكل بك

لئن كنت صحفياً وكنت بذلك خاضعاً فى الحديث عن الصحافة لاعتبارات ذاتية قد يكون لها فى حكمى على الموضوع الذى أعالج الآن أثر، فأنى سأقف من بحثى هذا موقفاً موضوعياً الى غاية ما أطيق وسأكون من الصحافة والصحفيين فى اتصالهم بالرأى العام وفى تعبيرهم عنه حكماً عدلاً غير متأثر بعملى الصحفى ولا ناظر إلا للحقائق الواقعة كما هى، أو على الأقل كما أراها، ذلك لأننى أعتقد أن توخى الحقيقة لذاتها ومحاولة تصويرها فى أدق صورها أكفل بتوجيه الرأى العام وجهة صحيحة، أكفل بأن يودى الغرض من هذه المحاضرات التى لا يقصد بها الدعوة الى رأى معين ولا التبشير برسالة معينة، وإنما يراد به التصوير الصحيح لتطور الحضارة المصرية من بعد الحرب.

أوضحت المقدمة التى وضعها جناب مستر كيلاند لهذا الكتاب أن الغرض منه بيان تفاعل العوامل التى تتأثر بها حضارات الأمم جميعاً: المكان - والعمل - والناس. وقد سبق الشئ الكثير القيم من هذا فيما سبق من هذا الكتاب. وقد رأى القارىء الأطوار التى مرت بها الزراعة والصناعة والتجارة والصحة العامة والتعليم والتشريع والدين فى هذه الآونة الأخيرة فى مصر. وها أنا الآن بدورى أوضح ما كان لاتجاه الرأى العام من أثر فى هذه التطورات وما كان من أثره فى هذا الطور الأخير من أطوار حضارتنا كما أحاول فى نفس الوقت الذى أتحدث فيه عن الرأى العام كأداة للرقابة الاجتماعية أن أقارن بينه فى أداء هذه المهمة وبين الحكومة كأداة للرقابة الاجتماعية هى الأخرى وكيف أدى وتودى هذه المهمة مقارنة سريعة بطبيعة الحال تاركاً لحضرة المحاضر الذى يختم هذه السلسلة أن يبين من جانبه رسالة الحكومة فى الرقابة الاجتماعية بالايضاح الذى يكفله له استئثار محاضراته بهذا البيان.

وما دام حديثنا عن الرأى العام وعن الصحافة وعن مهمتهما فى الرقابة الاجتماعية وعن أثرهما فى حضارة مصر اليوم محدوداً فيما كان من ذلك بعد الحرب فيجب أن نقف

وقفة قصيرة عند غداة الحرب وأن نجيل النظر برهة فيما قبلها وما بعدها لنقدر الانقلاب الحقيقي الذي أحدثته في شؤون مصر كلها بمقدار ما أحدثت في الأمم التي كانت جبهات حرب تصلي من النيران ومن الغازات ما لم تعرف مصر. وليس في ذلك شيء من العجب. صحيح أن مصر لم تكن جبهة حرب إلا أياماً معدودات عند هجوم الأتراك على قناة السويس في فبراير سنة ١٩١٥ هجوماً لم يعرف المصريون عنه شيئاً معيناً دقيقاً إلا بعد حدوثه بزمان غير قليل. لكن مصر كانت طوال سني الحرب الأربع ميدان حرب لا يقل نشاطاً ولا يقل عسكرية ولا يقل طلعة ولا قلقاً عن ميادين الغرب في فرنسا والشرق في روسيا وعن الدردنيل وسائر الجبهات التي عرفنا خلال هذه السنوات الأربع الملهبة الدامية. وخلال هذه السنوات الأربع كان الرأي العام المصري متوتراً أشد التوتر رغم أنه كان حبيساً في أغلال الحكم العرفي القاسية، وكان له من الطلعة عن الحرب وأخبارها ما لا يقل عمن لهم في جبهات ميادينها العديدون من الأهل والأبناء. ومصدر اللهفة والقلق تلك الحال غير العادية التي كانت تكتنف مصر يومئذ إذ كانت مستودع جنود الحلفاء يجيئون إليها وقيمون فيها عشرات الألوف ومئات الألوف من جنسيات مختلفة: الانكليزي والفرنساوي والهندي والاسترالي والنيوزيلاندي وما شئت من مختلف الأجناس والألوان والملل، كما كانت مخزن تموين الحلفاء في ميادين الشرق تأخذ السلطة العسكرية منها الغلال ومواد الوقود ودواب الحمل مما يتصل بطبقات المجتمع كله من أصغر فلاح فيه إلى أكبر أغنيائه وسراته. أضف إلى هذا عاملاً جعلها أشد قلقاً من الأمم المحاربة نفسها. كانت تلك الأمم كلها تجاهد في سبيل النصر لتأخذ من مغنم الحرب بنصيب. أما مصر فلم تكن تعرف أي مصير قدر لها، سواء انتصر الحلفاء أو انتصرت دول الوسط. وأشد الناس يومئذ تفاؤلاً كان أحد رجلين: رجل يثق بعود انكلترا التي سبقت إعلانها الحماية على مصر والتي كانت تعتبر الحماية والحكم العرفي ضرورات للحرب تزول متى انتهت الحرب بنصر الحلفاء، ورجل يظن أن النصر إذا تم للامان وحلفائهم الأتراك جلت انكلترا عن مصر وعادت رابطة التبعية التي بينها وبين تركيا رابطة اسمية لا تقيد من سيادتها ومن حريتها في شيء. وكلا هذين المتفائلين لم يكن يعبر عن موجة الرأي العام المصري لأن هذه الموجة كانت مضغوطة لا تنففس عنها الصحافة ولا يتنفس عنها حديث أو خطاب سياسي، وكانت بسبب ضغطها لا تدرى أيان يكون اتجاهها المستقبل. وأعلنت أمريكا على لسان رئيس جمهوريتها يومئذ الدكتور وودرو ولسن شروط

الهدنة ومن بينها حق الشعوب في تقرير مصيرها فلم يترك ذلك في رأى العام المصرى الأثر العميق الذى ترتب عليه من بعد ، لأن هذا الرأى العام كثيراً ما سمع الوعود تقطع ولا تنفذ ، والحق والعدل يشاد باسمهما في الخطب السياسية ثم اذا من ورائهما أسباب الهلاك والدمار تؤيدهما في صف من صفوف الانسانية لتقضى عليها قضاء وحشياً لا شئ من الحق ولا من العدل فيه في الصف الآخر . وقف الرأى العام أمام نظرية تقرير المصير مرتاباً في مبلغ ما تنطوى عليه إلى أن تقدم سبعة رجال هم الذين تألفت منهم النواة الأولى للمطالبة باستقلال مصر يريدون أن يكون لمصر حق تقرير مصيرها . تقدموا تؤيدهم وزارة مصر في ذلك الظرف لأنها ولأنهم شعروا بشئ من المسؤولية عن ما وقع في بدء الحرب حين أعلنت انكلترا الحماية على مصر فعليهم لذلك شئ من التبعة في اقتضاء ما قطعت انكلترا لهم من الوعود في المفاوضات التى سبقت إعلان الحماية الانكليزية على مصر .

لسنا بصدد رواية تاريخ مصر السياسى في هذه المحاضرة . لكن هذا التاريخ كان له من الأثر على اتجاه الرأى العام المصرى في السنين التى عقيبت الحرب سواء في توجيه مصير مصر السياسى أو في رقابة الرأى العام لأقدار البلاد الاجتماعية مالا يمكن إغفاله . ومن هذه الناحية الأخيرة وحدها رانا مضطرين لنقف أحياناً وقفات قصيرة نصل فيها بين هذا التاريخ وبين حياة البلاد الاجتماعية . وقف الرأى العام متردداً إزاء هذا التوجيه السياسى الذى وجهه له أولئك المصريون السبعة بتأييد الوزارة القائمة يومئذ وان نظر الناس بأشد العطف الى هذا التوجيه عطفاً كان مظهره هذا الانفجار الفجائى الذى حدث حين اعتقلت السلطة العسكرية أربعة من هؤلاء الدعاة للاستقلال . يومئذ أخذ الرأى العام اتجاهه ، لا بازاء مصير مصر السياسى وحده ، ولكن بازاء مصائرنا الاجتماعية كذلك . فقد كان هذا الرأى العام قبل الحرب مقسماً بين المحافظة والحرية ، بين العمل المباشر السريع والسعى التدريجى المستمر ، بين الرجعية المعتصمة باسم تقاليد الدين أحياناً وباسم الوطنية أخرى ، وحرية الرأى والعمل المستندة الى الدعوة الاسلامية الحرة والدعوة التى تسيرها . بين تحرير المرأة وحجابها ، بين استقلال مصر الاقتصادى وسياسة الباب المفتوح في التجارة . بين الرجعة التقليدية الى أدب العرب القديم والدعوة الى التجديد دعوة كانت تبلغ من التطرف أحياناً الى حد القول باتخاذ اللغة العامية لغة الكتابة والأدب . بين عوامل وآراء متشعبة قد يدهش ابن اليوم أن يعلم أن بعض

متناقضاتها كانت تعتبر في نظر البعض وحدة متسقة برغم تضاربها وتناقضها . ولن أطمع في أن أفضل اليوم شيئاً من هذا رغم جدارته بالتبويب والتفصيل ، فتبويه وتفصيله يحتاج الى دراسة طويلة والى عشرات المحاضرات لا إلى محاضرة أو محاضرتين أو عشر .

هذا التباين في الميول والآراء الاجتماعية ما لبث أن اختفى تحت سلطان الموجة القوية التيار التي أدت الى انفجار الرأي العام في سنة ١٩١٩ . ويرجع اختفاء التباين في الميول والآراء الاجتماعية الى سببين : أولهما الفكرة القومية التي اقتضت أن يقف الناس جميعاً من مختلف الطوائف صفّاً واحداً في النضال . فكم وقف القسيس الى جانب الشيخ وكما وقف المعلم الى جانب الأفسدى ، وقف المتعلم الى جانب الأمي وشعر الكل بروح من التسامح الخالص بأزاء بعضهم البعض تسامحاً لا بد منه لأمكان الوحدة والتعاون . والناس جميعاً يذكرون ذلك اليوم الذي خرجت فيه سيدات مصر وأوانسها من أكرم العائلات متظاهرات احتجاجاً على ما أصاب الحرية من عدوان وكيف وقف في وجههن الجند الانكليز ، وكيف كن مثال كرامة وعزيمة . والناس جميعاً يذكرون كيف كان المسلم والمسيحي يدخل الأول كنيسة الثاني والثاني مسجد الأول . لو أن شيئاً من ذلك وقع في غير هذا الظرف لثار الرأي العام به ولا اعتبره جنابة لا يمكن السكوت عليها . لكن روح التسامح التي سادت الجميع يومئذ جعلت من هذه الأعمال في نظر الرأي العام مظاهر إخلاص للوطن وتضحية قومية جديرة بالإنجاب والتقدير . بل اندفع الرأي العام الى أكثر من هذا . اندفع الى اعتبار هذه الأعمال مثلاً صالحة جديرة بالاحترام والتقليد .

السبب الثاني لاختفاء التباين في الميول والآراء الاجتماعية يرجع الى موجة علمية جرفت الأمم كلها ، موجة التحلل من كل القيود والتقاليد والنهل من الحرية بنصيب كان يعتبر قبل الحرب تخطياً حدود الحرية الى حماة الرذيلة أو على الأقل الى حدود الإباحة . كل قيد كان غداة الحرب ممقوتاً مردولاً . اختلطت في النفوس صور الخير والشر والكمال والنقص واضطربت أمام البصائر حدود الصفات والأعمال وأصبح قانون العقوبات المقياس الخلقى لا جناح على من يظل عند احترامه أن يستمتع بكل ما لا تتناوله حدوده وعقوباته . وكانت هذه الموجة يومئذ طبيعية لأن الناس رأوا الموت ورأوا النفي والتشريد والتعذيب خلال سنوات الحرب الأربع رأى العين فاستهانوا بالحياة والقوا بأنفسهم في حماتها وكأنهم ما يزالون يحسبون أنفسهم لا يعرف الواحد منهم إن كان قد

قدر له أن يبقى إلى الغد فهو لا يرض على نفسه اليوم بمسرة ولا بلهو ولا بشهوة من الشهوات . وطبيعي ما دام ذلك هو قدره الأمور في شأن نفسه أن يكون هو كذلك قدره الأمور في شأن غيره . لذلك عمت العالم غداة الحرب موجة فوضى خلقية نظر إليها الرأي العام كأنها الصورة الطبيعية للحياة . ليس الناس كانوا إلى أمس يموتون أو تصيبهم العاهات أو العلل بلا حساب ، فليأخذوا من الحياة ما شاؤوا بلا حساب كذلك . وبديهي عند تمكن هذه الحالة من النفوس أن تختفي الفوارق في الميول والآراء وأن يصل كل انسان بازاء غيره إلى غاية حدود التسامح وأن يحسب كل رأى سائغاً وكل عمل مقبولا . واقتربت بالحرب حالة اقتصادية أيدت هذا التحلل من القيود وعاداته . تلك حالة الرخاء الاستثنائية التي رأتها مصر ورآها العالم بعد الحرب بأشهر ، في ذلك الظرف بيع قطار القطن بأربعين وخمسة وأربعين جنياً وضوعفت مرتبات الموظفين وأجور العمال والفلاحين وأصبح ورق النقد لعبة في الأيدي ، واستطاع كل انسان أن يسد جميع مطالب أهوائه ، وخيل للناس أن لم يبق للثروة حدود فلم تبق أمامهم للاخلاق حدود ولا للتفكير حدود ولا لشيء من الأشياء . أو لا اعتبار من الاعتبارات في هذا العالم حدود . انمحت كلمة المستحيل من النفوس كلها لا من النفوس التي تسمو فوق حدود العظمة الطبيعية فتقول ما قال نابليون : كلمة المستحيل ليست في قاموسى ، أصبح كل فرد نابليون وكل فرد ركفلر وكل فرد فيما بينه وبين نفسه العلم الفرد في عوالم الكون كلها ، فليفعل اذن كل ما يشاء على شريطة البقاء في حدود القومية المصرية والحركة الاستقلالية التي حدث انفجار مارس سنة ١٩١٩ مؤيداً لها .

في رعاية هذا الرأي العام وتشجيعه وفي ظل رقبته بدأت صور النشاط الاجتماعى تظهر يدفع إليها أفراد يؤمنون بها . فالرأى العام لا يخاق الظواهر الاجتماعية وانما يراها ويؤيدها أو يحاربها حتى يقضى عليها . والأفراد هم الذين يخلقون هذه الظواهر . ففي رعاية الرأي العام وتياره الجارف أول النهضة وبعد هدنة الحرب قامت حركة العمال ناشطة يغذيها جماعة ممن يؤمنون بمبادئ التعاون ونظام التقابات . وكانت لحركة العمال هذه مظاهر سمعتم عنها في المحاضرات السابقة ما لست بحاجة الى العود للكلام عنه . وفي رعاية هذا الرأي العام بدأ النشاط النسوى في العطف على الفقير والطفل قوياً مثابراً حتى رأينا اليوم من ثمراته تلك الدار الفخمة التي أقامها الاتحاد النسائى . وفي رعاية هذا الرأي العام بدأ الفن المصرى يأخذ المسكنة اللاتقة به . وفي رعايته بدأت نهضة الأدب القومى

تأخذ اتجاهها قوياً واضحاً لا تقف في سبيله عقبة من العقبات . وليقدر الانسان قوة هذا الرأى العام في رعاية هذه النهضة الاجتماعية المختلفة النواحي والتي لم نشر منها هنا الا الى قليل نذكر ما كان من حماسة الرأى العام لتمثال نهضة مصر . لو أن هذا التمثال كان قبل الحرب لوجد من يقوم في وجهه باسم الدين أو باسم آخر . لكن قوة التيار يومئذ جعلت الأصوات جميعاً ترتفع بحمدة وتعزض الفن ورجال الفن وتدفع بالفنون الجميلة الى نهضة ظلت قوية زمناً غير قليل

وكما جرف تيار الرأى العام الرجعية وجعل الحرية المطلقة لا يقيد منها غير الاعتبار القومى كذلك جرف الصحافة ودفع بها جميعاً لمناصرة النهضة الاجتماعية التي كان يراها كما دفع بها لمناصرة الآراء السياسية التي كان ينادى بها . وانك ليأخذك العجب اليوم اذا حاولت أن تقارن بين صحافة سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٢١ وبين هذه الصحافة نفسها فيما تلا ذلك من السنين . خضعت الصحافة الى تيار الرأى العام يومئذ وجعلت تغذيه وتقويه وتمد له في أسباب سلطانه وسيادته . ولوان الزعماء السياسيين الذين كانت البلاد تنظر اليهم يومئذ بملء الثقة أتاحت الظروف لهم أن يولوا النهضات الاجتماعية ما هي جديرة به من رعاية لاستمرت مظاهر النشاط الاجتماعى ولرأينا في مصر اليوم من آثارها أضعاف ما نرى . لكن هؤلاء الزعماء الفوا أنفسهم بأزاء قوى سياسية اضطرتهم الى أن يحصروا نشاطهم في الميدان السياسى وأن يتركوا الميدان الاجتماعى يغذى نفسه بمقدار ما يستطيع الافراد الذين وجهوا جهودهم لتمامه وقوته . بل انصرف هؤلاء الافراد هم الآخرون الى نواح من النشاط السياسى كما حاولت القوى السياسية المختلفة أن تستغل هذا النشاط الاجتماعى لفائدتها . ونشأت على مر السنين عن ذلك نتيجة الطبيعية : فتور الرأى العام بأزاء مظاهر النشاط الاجتماعى بمقدار انقسامه تحت ضغط القوى السياسية المختلفة وترجع العلة في هذا الى الوضع السياسى الخاص الذى تخضع مصر لأحكامه والذى لا يوجد له نظير في غيرها من الأمم . ففي الأمم الأخرى يقوم النضال عادة بين فكرتين تؤيد كل واحدة منهما قوة أو مجموع من القوى وينحاز الرأى العام بوزنه الى ناحية أو الى الأخرى ، هاتان الفكرتان تدوران جميعاً حول النظام الذى يجب أن يجرى عليه الحكم في البلاد . أهو يجرى على اعتبار أن الحكومة قوة مستقلة عن الأمة متحكمة فيها بدعوى العمل لخيرها كما يتحكم الأب في ابنه والوصى في القصر الذين يكونون تحت وصايته واذن فهذه الحكومة تستمد سلطانها من قوة اكبر هي قوة الفتح أو الغلب أو

هو السلطان الدينى الذى يجعلها خليفة الله فى الأرض والوكيل عنه على عباده . أم هو
يجرى على اعتبار أن الحكومة وكيل عن الأمة خاضع فى تصرف شؤونها لسلطان رأيها
العام . وبعبارة أكثر إيجازاً وتحديدأ : أهو يجرى على طريقة استبدادية أو توطراطية أم
هو يجرى على طريقة نيابية ديمقراطية . وقد انتهت الفكرة الديمقراطية بالتغلب حتى فى
البلاد الخاضعة لنوع من الاستبداد الدكتاتورى لأن الدكتاتور الذى يقوم فى العصر
الحاضر يزعم دائماً أن الشعب راض عنه وان لم يتمكن من إظهار علائم هذا الرضى
بصورة حرة لأسباب خاصة . ومن أجل هذا قيل أن الصحافة سلطة رابعة الى جانب
السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية لأن الصحافة تعبر عن اتجاه رأى العام وتنطق
بلسانه . ولما كان رأى العام هو السلطة العليا التى تستمد السلطات جميعاً منها وجودها
كانت الصحافة هى التى ترشد تلك السلطات وتوجهها وكان لها من القوة ما أتاح
للسنيور موسوليني أن يقول فى أول عهد حكم الفاشست فى إيطاليا : انه قدير على
الاستغناء بالصحافة عن البرلمان . فى الأمم الديمقراطية التى غلب فيها حكم الشعب
وأصبح رأى العام مصدر السلطات أصبحت الحكومة أداة اجتماعية خاضعة لرغائبه
تعمل فى حدود رضاه ، ولا بقاء للوزارة التى تهيم عليها ما لم تكن حائزة لهذا الرضاء .
وفى مصر يقال اليوم وقيل قبل اليوم أن هذا المبدأ هو الذى يجرى عليه الحكم
كذلك . وفى دستور مصر أن مصدر السلطات كلها الأمة . والطبعى الذى يقره
العقل أن هذا معناه أن نظام الحكم فى مصر استقر على صورة معينة كاملة أو ناقصة
ولكن مسلم بها من جميع المقيمين فى البلاد ، مسلم معها بأن للامة ولرأيها العام السلطان
الآتم فى الأمور جميعاً . وقد ظن أن الأمر كذلك يوم كانت هذه الفورة التى أشرنا اليها
وفى بعض السنين التى تلتها . لكن الزمن أثبت أن الواقع غير هذا وأنه اذا لم يكن الحكم
فى مصر يجرى على قاعدة أو توطراطية استبدادية مطردة فإنه يخضع لعوامل كثيرة لا يخضع
لها فى غير مصر من البلاد . فهناك الاحتلال الانكليزى وهناك الامتيازات الأجنبية
وهناك الأجانب المقيمون فى مصر ، وهناك السلطان المالى الأجنبى ، وهذه كلها قوى إذا
القت بوزنها فى ناحية أو فى الأخرى ، ناحية الأوتوطراطية أو ناحية الديمقراطية أفسدت
ميل رأى العام المصرى الصحيح لآيهما وجعلته سريعاً الى القلق والى الاضطراب وعدم
الثقة بقوة سلطانه . وقد أبدت تلك القوى فى تلك السنوات الأولى عطفأ ظاهراً على

الديمقراطية المصرية . لكنها من بعد ذلك جعلت ترجح كفة وترجح أخرى حسبما تقتضى به عليها المصالح التى تمثلها .

كان لهذا الظرف نتائج الطبيعية . بدأ التباين الذى كان قبل الحرب بين الميول والآراء يعود الى الظهور وأن فى صور مختلفة . واستغلت تلك القوى ومن ناصرها من المصريين هذا التباين بتشجيع أضعف الميول وأشدّها عجزاً . والقت فى روع ذوى الميول الرجعية ما شجعهم على البروز الى ميدان الحياة بعد أن كانوا قد اختفوا منه أو كادوا يختفون إلى غير عودة . وهى فى هذا قد لجأت الى سياسة مادية مكشوفة . فهذه الطائفة من الناس كانت تعيش عيشاً ضيقاً ولا تمكنها ملكاتها ولا مواهبها من كسب مشجع على الاستمرار فى صفوف الطائفة . فلنزد فى كسبها المادى لتكون فى قبضة يدنا نوجهها كما نشاء . وهذه الطائفة قسم من رأى العام كان قد بدأ يندمج فى عناصره الصالحة ويأخذ من قوتها بأسباب قوته . لكن هذا الاستغلال أعادها الى مثل موقفها الأول والى مثل آرائها الأولى . فلتقف اذن حجر عثرة فى سبيل الرقى الاجتماعى ولتحاول أن تتخاق حول المنشآت الاجتماعية الحديثة التى آزرها رأى العام جواً فاسداً ان لم يستطع القضاء عليها قتل من قوة نشاطها واندفاعها . ولم تقف هذه السياسة المادية عند ذوى الميول الرجعية . بل امتدت إلى طوائف العمال الذين وعدوا منذ سنوات ماضية باصدار تشريع ينظم حالهم ثم لم يصدر هذا التشريع بعد ووقف الأمر عند ارضاء زعماء العمال فى صور مختلفة من الرضاء ، وامتدت كذلك الى الشبيبة والى طلبة المدارس والى الموظفين والى كل من أمكن أن تمتد اليه ومن عهد فيه أن يكون ذا أثر عند التفكير فى تحويل دفة رأى العام إلى ناحية أو الى أخرى تحويلا ان لم يوجهه توجيهها إيجابياً أو سلبياً فإنه يقفه مدعنا لكل أمر واقع يحل بمصر مهما بلغ من انكاره لهذا الأمر الواقع فى أعماق نفسه

اذا وصل رأى العام الى هذه الحال من الشعب والتمزق ضعفت قوته على الرقابة الاجتماعية رقابة تشجع ما يحسبه نافعاً وتقف فى سبيل ما يعتقده ضاراً ، ومن المستطاع ملافاة حظ عظيم من هذه الحال لو أن الزعماء الذين يثق بهم الشعب وقفوا من الشؤون الاجتماعية موقفاً مستقلاً عن نشاطهم السياسى فلم يأبوا أن يشجعوا ما يرونه جديراً بالتشجيع ولو كان المحرك له من خصومهم أو يقفوا فى وجه ما يخشون نتائجها الاجتماعية البعيدة أو القريبة ولو كان المحرك له من أنصارهم . وأخشى أن أقول ان هؤلاء الزعماء

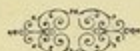
لم تمكنهم الظروف من القيام بهذا الواجب على وجه يوازن مجهود تلك القوى التي تخرج بالرأى العام عن الطريق الطبيعى الذى كان يسير فيه لو أنه كان فى ظروف عادية كالتى تواجه الرأى العام فى غير مصر من الأمم . قد يكون لهؤلاء الزعماء من العذر أن مقاومة تأثير هذه القوى فى مراقبة الرأى العام لشؤون مصر الاجتماعية غير ممكن حتى ترد هذه القوى الى أقرب الميادين للحياة الطبيعية . وهذه حجة لها من غير شك قيمتها ووزنها . لكننا نعتقد ان حسن توجيه الرأى العام فى الشؤون الاجتماعية من شأنه أن يزيده قوة فى الناحية السياسية لأنه إذ ذاك يلبس ما تعطل هذه القوى من تطور حضارة مصر الى الحد الذى يجب أن تصل اليه فيكون منها على حذر ويكون أقل خضوعا لها ، ثم يكون فى نفس الوقت بمنجاة من أن يقع تحت تأثير المصريين الذين يعاونون هذه القوى المعطلة حرصا على مطالبهم العاجلة و بسبب اسراع اليأس الى نفوسهم من الناحية السياسية . وهذا رأى أراه من ناحيتى وجيها وأعتقد أنه ينطوى على جانب من الحق عظيم .

وإذا كان لنا أن نبسدى بشأن الزعماء مثل هذه الملاحظة فانا يجب كذلك أن نوجهها للصحافة . فقد طغت الوجهة السياسية عليها طغيانا جعلها تقف من الشؤون الاجتماعية عند التسجيل ورواية الأخبار ولا تأخذ فى التوجيه الاجتماعى بالنصيب الواجب أن تأخذ به . وكثيراً ما فكرت أنا كصحفى فى هذا وفى الواجب على أن أقوم به . لكننا معشر الصحفيين نرى الجمهور منصرفاً الى الناحية السياسية انصرفاً يجعله يمر على ماسواهامن غير أن يأبه لها أو يعنى بها ، بل من غير أن يقرأ ما يكتب فيها . ثم أحسينا معشر الصحفيين نجد الميدان السياسى أسلس فى الكتابة قياداً كما أنا فى شغلنا بهذه التقلبات السياسية العنيفة المتصلة التى كانت مصر مسرحاً لها منذ سنة ١٩١٩ لم يقف أحدنا عند مسألة من المسائل الزمن الكافى الذى يسمح له بتقليبها وتمحيصها والوصول الى الايمان بها إيماناً لا سبيل معه الى أن تصرفنا أحداث السياسة أو غير أحداث السياسة عنها . ثم أن السياسة دخلت فى مصر فى كل شئ واخضعت لسلطانها كل شئ وكل طائفة من الطوائف حتى من لا صلة لعملهم قط بالحياة السياسية . اخضعت رجال الدين والمعلمين وطلبة المدارس والعمال والعمد والفلاحين والموظفين ورجال المهن الحرة من أطباء ومحامين فصرت اذا رفعت صوتك بدعوة اجتماعية من أى نوع كان ، لم يكن تقدير المصلحة العامة وحده هو الذى توزن به الأشياء ، بل كانت الاعتبارات السياسية هى صاحبة الحكم الأول والاخير فى

الأمر. ولم ينس احد الحركة التي قامت منذ بضع سنين لأحلال القبعة محل الطربوش كغطاء للرأس وقرار جمعية الأطباء بما في ذلك من الفائدة ثم تداخل السياسيين في الأمر وتقدم رجال الدين للفتوى في أمر القبعة والطربوش ، ورجال الوطنية للقول فيما اذا كان الطربوش شعاراً قومياً أم لم يكن . يومئذ وقف الرأى العام ووقفنا نحن الصحفيين في حيرة لم يكن مصدرها أن الطربوش خير من القبعة أو أن القبعة خير من الطربوش وانما كان مصدرها ما اذا كان الأخذ برأى دون آخر ينصر حزبا سياسياً على حزب آخر أو على الأقل يكون له شيء من التأثير بالفائدة أو بالمضرة على ما لحزب أو لآخر من السلطان

على أن الأخذ بالرد وال جذب والشد وهذه الهزات العنيفة المتوالية التي شهد الرأى العام المصرى المستنير ، ان كانت قد ترتب عليها شيء من فتوره بازاء الشؤون الاجتماعية ، فهي قد أثمرت عنده من قوة الملاحظة والنقد أضعاف ما كان له قبل الحرب وفي اعتقابه ، كما أنها جعلته يعتبر الحرية في مظاهرها الصحيحة مقياس الحكم على ما للاشياء من فائدة الحرية يتمتع بها الغنى والفقير والقوى والضعيف . وبهذا المقياس أصبح ما يمكن لهذه الحرية من المنشآت والنظريات موضع تأييده وعنايته كما أصبح ما يضعف منها موضع اعراضه أو ازدرائه أو قلقه

قد تكون احداث السياسة التي أشرنا اليها جعلته لا يبدى من الحرارة في التأيد وفي الإنكار بازاء الشؤون الاجتماعية ما يقوم الرأى العام به في بلاد لا تخضع الى الأقدار التي تخضع لها مصر . لكن هذه الظاهرة الصالحة ، ظاهرة قوة الملاحظة والنقد عنده تبشر المستقبل بأحسن الثمرات . ذلك بأن الموقف السياسى لا بد له من أن يصل الى نوع من الاستقرار على صورة من الصور في زمن طويل أو قصير . وعندها تعود الشؤون الاجتماعية لتأخذ مكانتها الأولى من عناية الناس واهتمامهم . ويومئذ يكون ما أفاده الرأى العام المصرى من ملاحظة وقد جديراً بأن يجعل رقابته الشؤون الاجتماعية كفيلاً بأن تدفع الصالح من هذه الشؤون الى الامام وأن تقف في وجه الضار منها بما يبعد عن الجماعة أذاه . ويومئذ تودى الصحافة على وجه صالح مهمتها في الرقابة الاجتماعية بما يجعلها مستقلة في ذلك عن احداث السياسة استقلالاً يسمح لها بأن تعير هذه المهمة السامية أعظم عناية .





حضرة صاحب العزة احمد بك صفوت
رئيس محكمة شين الكوم الأهلية

التنظيم الاجتماعي بواسطة الحكومة

لحضرة صاحب العزة احمد بك صفوت

اختص كل موضوع من الموضوعات السابقة بتنظيم حالة اجتماعية معينة كالصحة العامة والتسليّة والتجارة والعمل والعمال .

اما هذا الموضوع فيعم سائر الاحوال الاجتماعية لمعرفة مدى إمكان تنظيمها بواسطة ادارة الحكومة والى أى حد تقوم الحكومة بها .

ولا يخفى أن ادارة الحكومة لا يجوز لها أن تعرض للمسائل الاجتماعية الا عند الحاجة القصوى وعند عجز الأفراد عن تنظيمها بأنفسهم ، لقلة مواردكم أو لضعف الابتكار والتنظيم عندهم .

وسأبدأ ببيان معنى التنظيم الاجتماعي ثم بتحديد اختصاص الحكومة فيه ثم ببيان المدى الذى يتسع اليه هذا الاختصاص فى الوقت الحاضر .

ومراعاة لضيق المقام سأختصر واتجاوز عن التعاريف والاصطلاحات العلية اكتفاء بتقرير الواقع .

معنى التنظيم الاجتماعي

تفرض الحياة الاجتماعية على الانسان واجبات لا بد من مراعاتها وتقوم إما على الآداب morals والتقاليد traditions وإما على القانون ، ولزيادة الأيضاح أضرب مثلاً مقابلاً أرقى بلد فى التنظيم الاجتماعي ببلدنا واجعل المقابلة بين الأفراد وبين الجمعيات .

فبين الأفراد تقابل حياة عمدة من أعيان الريف يقيم في القاهرة بحياة رجل أمريكي هو جناب المحترم المستر كيلاند رئيس قسم الخدمة العامة . فلنقابل بينهما في حياتهما اليومية في العمل وفي التسلية وفي تنظيم أوقات الطعام وفي آداب المائدة وفي المقابلات ولتصورهما معاً يسامران في حفلة سيدة مهذبة . ولا حاجة بي الى تصوير كل منهما لكم في هذه الحالات .

وفيا بين الجمعيات أقارن الجامعة الامريكية تقوم بها جمعية بالجامعة المصرية الأميرية قام بها أفراد وعجزوا عنها وتقوم بها الحكومة . وأقارن نقاباتهم ومصارفهم التي بلغت ذروة التنظيم والاحتكار ، فكل صناعة أو تجارة تكاد تكون محتكرة بين شركات منضمة بعضها إلى بعض في مجلس واحد trust ، بنقاباتهم ومصارفنا وعصابتهم بعصابتنا .

فالتنظيم الاجتماعي يزداد كلما تحضرت الأمم وازدحم السكان ويقل جداً كلما بعدنا توغلاً في بدء الحياة الاجتماعية . ولذلك هو أظهر في المدن منه في قرى الريف . وأساسه المحافظة على صحة الفرد وتحسين طرق معيشته وتوفير الرغد والهناء له . إنما اذا أراد الفرد القيام بكل شيء لنفسه عجز . لذلك تقوم الحكومة به لمصلحة الجميع فتكون أقل تكاليف وأكثر إنتاجاً

ولكى ندرك ذلك حسبنا أن تقابل التنظيم الاجتماعي في المدن بالتنظيم الاجتماعي في الأرياف . فسكان شارع قصر العيني يستيقظون صباحاً فيجدون عمالاً كنسوا الشارع أمام منازلهم . وسبق ان غرسوا لهم فيه أشجاراً تحمله وتظللهم . ويجدون تراماً ينقلهم والماء والنور والتليفون متوفرة في منازلهم . ومواسير تحتها تنظفها لا يعلمون متى ركبت ولا أين تنتهى . والمدارس قريبة لأولادهم من روضة الأطفال الى الجامعة الى قسم الخدمة العامة . ويجدون بوليساً يعمل لراحتهم ليلاً ونهاراً . ويجدون أنواع المستشفيات قريبة منهم من قصر العيني الى العباسية . وأنواع التسلية الرياضية نهاراً والنفسية ليلاً على قيد خطوات منهم . والفقراء يجدون مطاعم الشعب والعيادات المجانية قريبة اليهم .

فشارع قصر العيني اكثر الأحياء تمدناً وتنظيماً اجتماعياً . أما ساكن قرى الريف فيكنس بنفسه أمام منزله . ويوقد بنفسه النار ليلاً في منزله . ولا يجد سائر الأشياء

التي يتمتع بها ساكن قصر العيني . فهذا هو التنظيم الاجتماعي في مظهره الفعلي بعضه تقوم به الحكومة وبعضه يقوم به الأفراد بالتعاون فيما بينهم .

التنظيمات الاجتماعية التي تقوم بها الحكومة في مصر

ليست التنظيمات الاجتماعية واجبة أصلاً على الحكومة وهي لا تقوم بها إلا عند عجز الأفراد عن القيام بها لأنفسهم إما لعدم توافر رأس المال عندهم وأما لفقد قوة الابتكار لديهم أو ابتغاء المصلحة العامة من قبل الحكومة .

وأحسن مثل يوضح ذلك تاريخ نشوء الجامعة المصرية فقد فكر فيها أفراد أنشأوها وعجزوا عن القيام بها لما تحتاج اليه من مال ومجهود مستمر فقامت بها الحكومة . والجامعة الأمريكية قام بها أفراد قادرون . وفي الأمم الراقية الغنية يقوم الأفراد بكثير من أعمال البر وتنظيم أحوال الفقراء بإنشاء ملاجئ ومدارس ومطاعم ومستشفيات لهم ونقابات لترقية سائر أحوالهم

والواجبات الحكومية الأساسية التي لا تقوم حكومة بدونها هي حفظ الأمن في الداخل والخارج بالبوليس والجيش وضمان الحقوق بالمحاكم وحماية الضرائب للانفاق منها . والدليل على أن هذه هي الواجبات الأساسية أنها هي كل ما قامت به الحكومات القديمة وهي كل ما يقوم به رؤساء القبائل وهي الواجبات الوحيدة التي تقوم بها الآن الحكومة في قرى الريف فلا يعرف سكانها من فضل للحكومة عليهم إلا حفظ الأمن بطريقة غير كافية وضمان الحقوق بطرق معقدة متعبة ثم جباية الضرائب . أما سائر التنظيمات الاجتماعية التي ينعم بها ساكنو شارع قصر العيني فهم منها محرومون .

وفيما عدا هذه الواجبات الأساسية نرى الحكومات الآن تقوم بأعمال كثيرة جداً لم تقم بها الحكومات في العصور الماضية . نراها مثلاً تقوم بإدارة البريد ولم يكن البريد واجباً على الحكومات القديمة فكل شخص كان يرسل بريده على يد رسول . و تراها تقوم بإدارة السكك الحديدية وإدارة التليفونات وكان ذلك قبلاً في أيدي شركات . و تراها تقوم في بعض المدن الكبرى بالإنارة وترشيح المياه وبيع اللهاثي .

وهذه الأعمال جميعها فيها وجهة اقتصادية لأن الحكومة ترجع منها جميعها وتقوم بادائها لأنها أعمال تعم سائر الناس ولا يمكن إلا أن تقوم بها هيئة واحدة تحتكرها

وتكسب منها لأن أكثر الناس يشتركون في الانتفاع بها فبدلاً من أن تحتكرها شركة تحتكرها الحكومة وتستغلها .

وهناك أعمال أخرى عامة غير رابحة تتولاها الحكومة وتنفق عليها مالا كثيراً وهي ليست من واجباتها كإدارة التعليم بسائر أنواعه من رياض الأطفال والتعليم الإلزامي والتعليم الصناعي والتجاري إلى الجامعة الأميرية والازهرية . ولم يكن التعليم من واجبات الحكومة قبلاً . وكالعناية بالصحة العامة التي لها في مصر وكالة وزارة وفي كثير من البلاد لها وزارة مستقلة .

هذه الأعمال بنوعها من تجارية وغير تجارية هي أعمال عامة نافعة تقوم بها الحكومة لأنها تمس كل الناس أو أغلبهم ولذلك تسمى بالأعمال ذات المنفعة العامة *œuvres d'utilité publique* وقد مثلت عليها لتيياز نوعها وهي متعددة

فقد أصبح من واجب جميع الحكومات تناول كل المشاريع ذات المنفعة العامة من مد الطرق وشق الترع وإقامة المعارض وتنظيم الموانئ وأسواق الحاصلات، والعمل على تنمية جميع الموارد من زراعية وصناعية، ومكافحة الآفات والأمراض البشرية والحيوانية والنباتية .

ونراها تقوم بنوع آخر كمطاعم الشعب وملاجئ العجزة ومستشفيات مجانية وصندوق التوفير ومساكن للعمال ومنع تشغيل الأحداث في المحالج وإنشاء لجنة للتوفيق بين العمال وأرباب العمل . ومقاومة البطالة وتنظيم أحوال العمال على وجه العموم وإنشاء النقابات الزراعية . وهذا النوع الأخير من الأعمال لا يرجح منه ويحتاج إلى نفقات كبيرة ولا يعم كل السكان بل يخص فريقاً أو طائفة هي طائفة العمال أو صغار الزراع . أو على العموم يمس الفقراء من الأهالي .

والحكومة تقوم به تحسناً لحالهم وترقية لهم من الوجهة الصحية أو المالية أو الاجتماعية وهذا ما يطلق عليه التنظيم الاجتماعي الحقيقي . والحكومات جميعها تقوم به للأسباب الآتية : —

- (١) عجز الفقراء عن مقاومة ضغط الحالة الاجتماعية لضعف مواردهم وجهلهم .
- (٢) أن تركهم عرضة للحاجة وتناجها الوحشة يؤدي إلى انتشار الاضراب والافكار الثورية ويضعف قوة الانتاج فيهم .

(٣) ان تفشى الامراض فيهم يؤدى الى أخطار عامة لأن الأمراض لا تقف عند حدود منازلهم بل تتعداها الى منازل الأغنياء .

(٤) ان فى ترقية أحوالهم على العموم رفع مستوى الأمة العام لأنهم من الأمة بمشابة القاعدة من الهرم فاذا ارتفعت القاعدة وقويت وتحملت ازداد البناء متانة وصلابة وجمالاً . وقد بلغت عناية بعض الدول الاوربية بأحوال الفقراء حد التدليل والرفاهية فللعاطلين فى انكلترا اعانة وكان بعضهم يستغنى بها عن السعى للعمل ويتنزه فى باريس أيام نزول قيمة الفرنك . وللعامل تأمين ضد الأمراض . ولهم أطباء يعالجونهم بنصيب من هذا التأمين . ولهم تأمين ضد الشيخوخة فمن شاخ منهم يتناول معاشاً . فضلاً عن تحديد ساعات العمل ونقص الأجور .

وقد كانت العناية بالفقراء آخر القرن الماضى تعتبر فرضاً دينياً على الأغنياء . وكان هذا الفرض يؤدى فى بعض الأوساط تأدية تامة . ولمثل ذلك شرعت الزكاة وجعل الاحسان من وجوه البر والثواب . وكان الاحسان الى القرن الماضى كافياً للقيام بهذه الوظيفة الاجتماعية . وظيفه معاونة الفقير وتحسين حاله . فلما ازدحم السكان وتنوع توزيع الثروة واشتدت حاجة الفقراء شعر بالضرر العام الناتج من تركهم عالة على عاطفة الاحسان واتضح أنه من مصلحة الأمة كلها أن تترقى معيشة الفقير فيبعد عنه شبح العدم وشبح الأمراض . فتحول القيام بذلك من فرض كفاية يقوم به الأغنياء من تلقاء أنفسهم الى واجب اجتماعى تقوم به الدول وتجبى من أجله الضرائب .

ولن أقصر بحثى على التنظيم الاجتماعى للفقراء بل سأتناول ذكر الاعمال ذات المنفعة العامة أيضاً لأنها نوع آخر من التنظيم الاجتماعى العام لكل السكان .

ولكى نميز بين التنظيم العام وبين التنظيم الاجتماعى أى بين الاعمال ذات المنفعة العامة للجميع وبين أعمال البر بالفقراء والعناية بهم نركن الى مقياس لا يخطئ . فالاعمال التى يستفيد منها الأغنياء وينتفعون بها هى أعمال ذات منفعة عامة وهى تنظيم عام والاعمال التى لا ينتفعون منها هى التنظيم الاجتماعى الحقيقى الخاص بعامة الشعب

فالأغنياء أمثال البдраوى عاشور وأمين فكرى طوموم ينتفعون بالطرق والمدارس وقد ينتفعون بمضخات اطفاء الحريق وبجمعيات الاسعاف لكنهم لن ينتفعوا أبداً بصندوق التوفير والمستشفيات العامة ومساكن العمال ومطاعم الشعب .

والآن ما الذى تعمله الحكومة المصرية من هذه الناحية

تعمل الحكومة المصرية على التنظيم والاصلاح فى ثلاث نواح معاً : —

(١) تعمل من الوجهة الاقتصادية لترقية موارد البلاد والافراد .

(٢) تعمل من الوجهة الصحية لتحسين الصحة ومنع الأمراض .

(٣) تعمل من الوجهة الاجتماعية لترقية الحالة عموماً بالتعليم وبتحسين أحوال المعيشة على وجه العموم .

(١) الوجهة الاقتصادية

تعمل الحكومة على ترقية وتحسين الحالة الاقتصادية بمجهود كبير جداً لا يشعر به إلا الذين يسهم مباشرة من الزراعة والصناعة والتجارة والعمال . وقد زادت جهدها اضعاافاً فى السنتين الأخيرتين بسبب الأزمة المالية وأظهرت نفسها حكومة قوية عاملة منظمة يحاكي جهدها جهد اكبر حكومات العالم تفكيراً وتنظيماً وتنفيذاً .

وبدأت سياسة الحكومة الاقتصادية الايجابية من سنى الحرب حيث شعر بحاجة مصر الى التجهز محلياً من المصنوعات بقدر الامكان فشكلت سنة ١٩١٦ لجنة لبحث موارد مصر الصناعية وكيفية استثمارها وكانت برئاسة دولة اسماعيل صدقي باشا فنشرت تقريرها وما زال هذا التقرير أساس السياسة الاقتصادية فى مصر . وبناء عليه انشئت مصلحة التجارة والصناعة . وقد بدأت بعض الصناعات تنتشر كالغزل والنسيج والدباغة وعمل السجاد وبعضها تنشأ كالزجاج والصباغة وتنظم الصادرات وأسواق المحاصيل حتى أسواق الفاكه والخضروات وانشئت النقابات الزراعية وأدخل النور والماء المرشح فى كثير من المدن .

وقد كللت هذه الجهود بأعمال عظيمة تمت فى السنتين الماضيتين منها انشاء بنك التسليف الزراعى ، يقرض الزراع على المحاصيل فلا يلجأون الى المرابين يبتزون أموالهم . ومشروع التسليف العقارى لمنع نزع ملكية الاطيان المرهونة بدفع قسط عنها للمصارف الاجنبية . ومشروع التسليف الصناعى لاقراض الصناع على آلاتهم

وتوصلت الى إنشاء محل للجزارة لتحديد سعر اللحوم أقبل الناس عليه ووقفوا امامه صفوفاً، والى تحديد أسعار المبيعات بالقطاعى، ثم انها تعمل لتحسين الانتاج الزراعى بجميع الطرق منها انتخاب البذور والتقاوى وتحسين انتاج المواشى والدواجن وانشاء مصانع نموذجية للالبان والجبنة والزبدة ويكفى رؤية مزرعة الجميزة بالسنتطة وحقول التجارب الكثيرة بها لمعرفة مدى هذا المجهود الذى ستظهر نتائجه بعد بضع سنين.

(٢) من الوجهة الصحية

كذلك بمجهود الحكومة من حيث الصحة العامة والاتفاق عليها. ويكفى القاء نظرة على مصلحة الصحة سنة ١٩٣٠ لمعرفة مبلغ هذا الجهد ومداه. يبدأ بالتعاون الدولى ضد الاوبئة والامراض الوافدة، ويشمل مكافحة جميع الأمراض، والمباحثات العلمية فى المكروبات والجراثيم لاستئصالها.

فهناك مصلحة الصحة البحرية والمحاجر لحماية القطر من الاوبئة التى تفد من الخارج فتراقب كل قادم وتتبعه حتى يثبت لها انه غير مصاب بأمراض وبائية. ثم انها تكافح جميع الامراض المتوطنة والوافدة وأهمها الرمد والانكليستوما والبلهارسيا والسل وسائر الامراض المعدية.

وفى هذا السبيل عممت مستشفيات الرمد، بعضها ثابت وبعضها متنقل ويبلغ عددها ٤٦ وبلغ عدد المعالجين مجاناً سنة ١٩٣٠ - ٤٣٥٠٠٠٠٦٢ أى نحو ٣٠ فى ٪ من السكان ولزيادة العناية بمرضى الريف أنشئ فى بعض المستشفيات مأوى يسكنه المريض ويبيت فيه اذا كان من بلدة بعيدة

وكذلك مستشفيات البلهارسيا والانكليستوما بلغت ٥٧ وعدد المرضى ٧٤٨٠٠٨٢ كلهم يعالجون مجاناً ومستشفيات للامراض السرية عددها ١٧ عولج فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ مريض وفى كل العواصم وبعض المراكز والقرى مستشفيات عامة عددها ٧٤ فيها ٦٤٩٥ سريراً وعدد الذين عولجوا بها سنة ١٩٣٠ نحو ٤٠٢٥٥٠٩٣٧ أى ٣٠ ٪. وهناك فرع خاص يعنى بالأمومة والطفولة له مستوصفات خاصة، واحد فى كل مديرية تقريباً كما فى مصر واسكندرية وأسيوط مستوصفات خيرية فيها تلد الفقيرات ويعالج

الأطفال والوالدات، ويوزع اللبن مجاناً وبلغ عدد الودات فيها ٢٢٠٢٨٧ وعدد الأطفال الذين عولجوا ٢٧٧٠٠٦٠

وآخر هذه الاعمال، وهو لا يقل عنها أهمية، انشاء ٩١٤ مرحاضاً صحياً في قريتين بجهة بليس على سبيل التجربة لفحص نتائج علاج البلهارسيا والانكلستوما والاعمال الصحية في زيادة مستمرة. ففي ميزانية السنة القادمة ٢٧٤٠٠٠٠ جنيه للمنشآت الجديدة.

وكذلك تقوم المصلحة بنشر الدعوة الصحية على طريقة مبتكرة بعرض أشرطة سينمائية في المدارس وعلى الحفراء وعلى الناس عموماً في الموالد الأربعة النبوى والزيني والحسيني والأحمدى، وفي هذه القاعة وفي الجمعية الجغرافية وعندها الآن ٣٨ شريطاً ومن أهم ما يسعى اليه تعقيم المرضى بعقولهم حتى لا يخلفوا نسلًا ضعيفاً

(٣) الوجهة الاجتماعية

تختص الوجهة الاجتماعية بتحسين حال الفقراء من الناحية العلمية والخلقية بتنقيفهم بمبادئ القراءة والكتابة بالتعليم الإلزامى الذى تعمل الحكومة على نشره تدريجياً حتى يعم سائر الناس وبمدارس ليلية فترتفع غشاوة الأمية فيقرأون بأنفسهم كلام الله المنزل ثم النشرات الصحية ويمكنهم المحافظة على حقوقهم فيمضون على السندات بدل أن يصموا بأختامهم ثم ينكرون

وكذلك من ناحية تنظيم العمل فالحكومة جادة في بحث حالة البطالة وحالة العمل لتنظيمه وتقرير يوم للراحة وتحديد ساعات العمل والحد الأدنى للأجور ومنع تشغيل طبقات من العمال في أعمال لا تناسبهم سناً أو خلقاً كمنع تشغيل النساء في الأعمال الشاقة الليلية^(١) كما منعت تشغيل الأحداث^(٢) والقاصرات في البارات^(٣)

(١) جريدة الاهرام في ١٩ مايو سنة ١٩٣٢

(٢) قانون نمرة ٤ سنة ١٩٠٩

(٣) قانون نمرة ١ سنة ١٩٠٤

ثم انها تسعى فى بناء مساكن نموذجية صحية للعمال وأقامت فعلا أبنية واسعة بجهة السيدة زينب الا أنها جاءت أرقى من حالة العمال فسكنها غيرهم . وتسعى الآن لجنة بوزارة المالية فى تنظيم بناء مساكن لهم مكان تل زينهم وراء السيدة زينب . وأنشأت لهم مطاعم عامة رخيصة ، أربعة فى القاهرة وواحد فى كل عاصمة تقريباً ، وصندوق التوفير فى البريد تقبل فيه الودائع من خمسة قروش ، وآمنت صغار الزراع على أرضهم فخرمت نزع ملكية ما دون الخمسة أفدنة .

ثم ان الحكومة تعين جميع الملاجىء التى تقوم بها الجمعيات الخيرية ومن أهمها ملجأ العميان والصم والبكم .

وعملت مضخات أطفاء الحريق وجمعيات الاسعاف فى سائر العواصم وبعض المراكز . واشتركت فى مؤتمر العمل الدولى بخيف سنة ١٩٣٢ وأنابت عنها معالى نغرى باشا .

وتقوم بتنظيم مصاييف لأولاد الفقراء لتصنيف ثلاثة آلاف منهم كل سنة مجاناً وتقوم بذلك لجنة من الأعيان برئاسة محافظ القاهرة وعناية دولة صدق باشا ورعاية جلالة الملك .

وشرعت فى إيواء العجزة المتسولين توطئة لمنع التسول وتقوم بذلك لجنة برئاسة محافظ القاهرة ورعاية دولة رئيس الوزراء

والمحاكم تقبل دعاوى الفقراء بدون دفع رسوم

ومن آخر وألطف ما قامت به تنظيم طائفة الصعايدة بالاسكندرية وانشاء ناد لهم يحسم الخلافات بينهم بطريقة ودية وكانت تؤدى الى الانتقام بالقتل ، وقد قرأت بالجراند أن هذه السلطة نفسها تسعى الى تنظيم طائفة الفتوات والخدمة والبوابين النوبيين .

فهذا مجهود الحكومة وهو كبير مستمر ومتسع وشديد ، ولا أقول أن أعمالها نحو الفقراء وسعت كل شئ فنحن فى بدئها ، ولا نهاية الا بالقضاء على الفقر وایجاد التوازن بين الثروة وعدد السكان . ولا تزال أعمالنا قاصرة عن أن تشمل جميع الفقراء وتتناول كل حاجاتهم . انما لا يمكن أن يقال ان الحكومة مقصرة نحوهم . ولا يظن أن ذلك

إحسان بل هو واجب اجتماعي نشعر به ويجب أن نقوم به لأن الأمة جسم واحد الفقراء أعضاء فيه وما دام عضو ضعيفاً أو عاجزاً فالجسم كله ضعيف عليل .

فالدولة قيمة أو وصية على الشعب تعمل لمصلحته ما يعجز الأفراد عن عمله لأنفسهم بأنفسهم إما لضعف الابتكار فيهم ولجهلهم وإما لعجزهم مالياً . أما الطبقات المتوسطة فيمكنها دائماً أن تنظم أحوالها بنفسها وهم يعملون . لذلك فالموظفون مثلاً وهم الطبقة المتوسطة ذات الدخل الثابت بدأوا ينشئون نقابات تعاونية لسد جميع حاجاتهم .

وقد شرع في أكثر وأغلب الأعمال التي عدتها في عهد الحكومات الوطنية أى من سنة ١٩٢٢ الى الآن وكلها في عهد جلالة الملك بوحيه ورعايته .

هذا ما تم في عشر سنين وهو حقاً بمجهود يجب أن نذكره بالحمد والشكر





الاستاذ سبابا حبشي
المحامى

علاقات مصر الدولية

لخضرة الاستاذ ساما ميسى

(١)

تناولت الموضوعات السابقة البحث عن العوامل الداخلية التي أثرت في تكوين مجتمعنا المصرى بحالته الراهنة سواء اختصت هذه العوامل بالمكان الذى وضعتنا فيه الطبيعة أم بالبيئة البشرية التي نحن منها أم بنشاطنا في الأخذ بأسباب الحياة .

وقد بقى عنصر هام من العناصر المؤثرة في نشوئنا الاجتماعى — ليس داخليا مما يبتنا أو حولنا وإنما هو خارجى عنا — وهذا العنصر هو علاقات بلادنا بالدول الأخرى وسأتناول في بحثى أولا أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة في نشوء المجتمع وأهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص . ثم أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها القديم .

وانتقل منه إلى بيان أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها الحديث وفي أحوالها الاجتماعية الحاضرة .

وفى هذا القسم الاساسى من موضوعى احتاج على الخصوص الى طول اناة القارىء وسعة صدره لصعوبة البحث ودقته .

أما صعوبته فلأن مهمتى ليست مهمة المؤرخ الذى يتولى سرد الحوادث واستنباط ما بينها من علاقات وإنما هى مهمة الباحث الاجتماعى الذى يتوخى دراسة الأثر الذى تنتجه الحوادث فى أحوال المجتمع وفى مجرى نشوئه .

أما دقته فلأن الموضوع شائك قد يضع الباحث بين عاملين — حبه لوطنه وحرصه على كرامته وحبه للعلم وحرصه على أن يتوخى الحقيقة المجردة فى بحثه .

على أننى اعتقد أن عاطفة حب الوطن وعاطفة حب الحق لا تنافر بينهما لأن الوطن يخدم بالحق لا بالأهواء ويعتز بمواجهة الواقع لا بالأوهام .

ثم أن البحث الذى نقوم به بحث اجتماعى وليس بحثا تاريخيا — غير أن التاريخ يقدم المادة التى يبنى عليها الاجتماع مباحثه .

لهذا لا تعرض للحوادث إلا بالقدر الذى يستدعيه الحال لبيان أثرها فى نشوء أحوال مجتمعا المصرى مادياً وأدياً .

إذا راجعنا تاريخ بلادنا الحديث تبين أن أهم الحوادث التى وقعت فيه بالنسبة الى علاقاتنا الدولية ما يأتى -

أولاً - الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) وحكم محمد على باشا .

ثانياً - حفر قناة السويس .

ثالثاً - المنافسة الانجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزى فى آخر الامر وتقهقر النفوذ الفرنسى أمامه .

رابعاً - علاقاتنا بالدول الأخرى ونظام الامتيازات الأجنبية والقضاء المختلط وقد تطلع بصرنا إلى المستقبل لنحاول أن نكهن بما يحبسه القدر لبلادنا العزيرة فى خاتمة هذا الموضوع .

(٢)

أهمية العلاقات الدولية كعنصر من العناصر المؤثرة فى نشوء المجتمع وأهمية علاقات مصر الدولية على الخصوص .

الأمم والدول لا تعيش الواحدة منها بمعزل عن الأخرى ولكنها تلتقى فى الحرب والسلم وتتصل بعضها ببعض بعلاقات الأخذ والعطاء والتجارة والسياحة والصدقة والمودة والتحالف أو تنقطع علاقاتها فتلتقى فى الحرب والعدوان والغدر والغزو .

وكلما ازدادت المواصلات سرعة ازدادت الصلات توثقاً وقرب تحقيق ذلك الحلم الذى ينسجه خيال الحالمين من محبى خير البشرية حول جنيفاً مقر عصبة الأمم ، وهو أن يدرك الجميع أن الدول ، وأن تعددت واختلفت وتباينت فى انظمتها وأغراضها وسياساتها ، هى أعضاء فى جسم واحد هو الإنسانية تتضامن فى الخير والشر وفى الألم والصحة وتتعاون على تحقيق الغرض الاسمى وهو السلام والرفاهية والسعادة للعالم الانسانى أجمع . وقد كانت بعض الأمم فى الماضى تباهى بأنها فى عزلة عن المشاكل الدولية فكانت انجلترا تعز بوحدها Splendid isolation وكانت أمريكا تحرص على مذهب

Monroe Doctrine منرو

أما الآن فليس من المستطاع أن تجاهل دولة ما يجرى عند الأخرى أو أن لا تتأثر

به. لقد كانت المسافة بين البلد الواحد والبلد الآخر تقاس في الماضي بالسنة للسريع المجتهد. أما الآن فتكفي سحابة نهار وظلمة ليل للالتقال بالمرأ كالهوائية من قارة إلى قارة ولعبور المحيط من بر إلى بر. وقد سمعنا مؤخرا كيف اجتاز منطاد جراف زبلن في يوم وبعض يوم القارة الأوربية ووصل إلى اقصى آسيا الشرقية، فأصبح ذلك الشعار الذي كانت تتباهى به بعض الممالك (اسبانيا) وهو *non sufficit orbis* حقيقة عن البشرية بأجمعها على أنه الى أن يحين الوقت الذي يكمل فيه التضامن الدولي ويعم السلام ربوع المسكونة يتعين على كل دولة في تصريف أمورها الداخلية وتنظيم أحوالها أن تحسب حساب علاقاتها الداخلية بجاراتها.

في السياسة تنازع بقاء بين الدول كما أن في الطبيعة تنازع بقاء بين المخلوقات فقد تقضى العلاقات الدولية على إحدى الدول أو على إحدى الأمم بأن تتكيف بتكيف مخصوص بل أن تتخلق بخلق مخصوص.

ما الذي جعل ألمانيا وفرنسا أمتين حرييتين ورقى فنون الحرب البرية فيهما. ما الذي جعل إنجلترا أمة بحرية متاجرة، وغرس في الانجليز حب السياحة والاستعمار وتعمير الأقطار البعيدة. تنازع البقاء الدولي الذي قضى عليها إما أن تكون سيدة البحار وإما ان لا تكون. وقد قال انجليزى عظيم لقومه في برلمانهم — احترسوا لأن البحر يخدمكم ولكنه يهددكم — يحميكم ولكنه يحاصركم.

كانت علاقات مصر الدولية منذ فجر التاريخ على درجة عظيمة من الأهمية بالنسبة الى مركزها الطبيعي بين العالم القديم والجديد. ففي حوض البحر الأبيض المتوسط وعلى شواطئه دار تاريخ العالم القديم. وحول مصر دار تاريخ البحر الأبيض المتوسط. تقع مصر في ملتقى الطرق بين البلاد والأمم — تمد ذراعيها نحو الشرق والغرب وتصل بين الشمال والجنوب وتلتقي عندها ثلاث قارات.

تمتد أراضيها الى شواطئ بحرين عظيمين يصلها أحدهما بالبحار الأوربية ويصلها الثاني بالبحار الهندية. هي مفتاح الشرق وقاعدته وأداة الوصل بينه وبين الغرب. لهذا ليس بالغريب أن يقول عنها نابليون في منفاه بجزيرة سانت هيلنا ذلك القول الذي يردده اللورد كرومر بعد قرن من الزمان في فاتحة كتابه مصر الحديثة « مصر أهم بلد في العالم » قال نابليون هذا وقد كان على رأس الحملة الفرنسية — ولم تكن قناة السويس قد حفرت بعد. ولم تكن تجارة الشرق والغرب تمر في المياه المصرية بعد.

هذا المركز الممتاز له مزايا وعيوب — له ورد وأشواك — له شهد وإبر . وقد جنت مصر بعض هذا الشهد ولكن لذعتها الابر . قدمت مصر جسمها ليد الغرب يده إلى الشرق فوفقه فلم تجز إلا جزاء سنار .

(٣)

أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها القديم

وصلت مصر الى السما كين في عهد الفراعنة . وأثر رقيها تأثيراً عظيماً في البلاد الأخرى التي أخذت عنها حضارتها وعلومها وفنونها .

فيخبرنا التاريخ أن الفينيقيين نقلوا حروف الهجاء من مصر الى اليونان وانتشرت من اليونان إلى سائر البلاد الواقعة في حوض البحر الأبيض المتوسط . ويخبرنا التاريخ أن هيرودوت أبا التاريخ زار مصر وكتب عن حضارتها وعجائبها لأهل بلاده وللأجيال المقبلة . وقد كتب العلامة البلجيكي Revillot كتاباً أثبت فيه أن قانون روما المعروف بالألواح الاثني عشر La loi des XII tables مأخوذ عن القانون المصري القديم حيث نقله اليونان عن المصريين الأقدمين ثم أرسل الرومان عشرة رجال إلى بلاد اليونان لنسخ قوانينهم وحملها اليهم Decemviri legibus scribundis

ثم غربت الشمس على هذه العظمة ودار الفلك دورته وإذا بمصر تهبط من مكانها بين السما كين إلى مرتبة نجم يدور في فلك الأمم التي تناوبت صولجان القوة على ممر العصور وعفت حضارتها وصارت مقلدة تأخذ عن غيرها بعد أن كان يؤخذ عنها . تغلب عليها البابليون والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك الى أن انتهى أمرها الى الممالك وبهذا اختتمت صحيفة تاريخها الماضي واستقبلت عصرها الحديث الذي يبدأ بالحملة الفرنسية .

وقد قال نابليون في خطاب له في أثناء الحملة الفرنسية في أول مجلس اختير من مشايخ مصر للتشاور في أمورها — وكان على رأسه الشيخ الشرقاوى — ونقل العبارة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه ، أن قطر مصر فريد في مركزه وأنه أخصب البلاد وكانت تجلب اليه المتاجر البعيدة . وإن القراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأوائل . ولكون مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكها فملكها بابل واليونان والعرب والترك

(٤)

أثر علاقات مصر الدولية في تاريخها الحديث

الحملة الفرنسية وحكم محمد علي باشا

يضع المؤرخون عادة بدء تاريخ مصر الحديث عند تقلد محمد علي باشا زمام الحكم. ولكن الأصح أن تعتبر الحملة الفرنسية فاتحة هذا التاريخ لأن تلك الحملة هي التي مهدت الطريق وأعدته لمحمد علي باشا وهي التي وضعت نواة المشاريع والأنظمة العظيمة التي وقع له تنفيذها.

لا بد أن يكون نابليون قد قرأ قول الفيلسوف لينتز الذي قال للويس الرابع عشر عندما أراد أن يصرفه عن غزو هولاندا ويغريه بغزو مصر حتى يدفع الخطر عن البلاد التي ولد فيها ذلك الفيلسوف « مصر هولاندا الشرق ، فإذا كانت لفرنسا السيادة على تلك البلاد كانت لها الكلمة العليا في البحر الأبيض المتوسط وقبضت على طريق الهند ، وبعبارة أخرى على تجارة العالم ،

وكان نابليون يحلم بأن يجعل من مصر قاعدة إمبراطورية شرقية عظيمة كامبراطورية الاسكندر الأكبر.

وقد تحطمت هذه الآمال مع أسطول الحملة الفرنسية في موقعة أبو قير وفشلت الحملة فيما يختص بالأغراض الحرية والسياسية التي أريد تحقيقها. ولكن أمراً واحداً عاش فيها وسيستمر باقياً ما شاء الله له أن يبقى. وهذا الأمر هو الأثر الاجتماعي الذي أحدثته الحملة في مصر.

ولست أجد في بيان هذا الأثر الخالد أحسن مما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل بك في مطلع مقدمته لكتاب الشوقيات الذي تضمن شعر أمير شعرائنا شوقي في السياسة والتاريخ والاجتماع.

قال الاستاذ هيكل —

« كانت مصر الى حين قدوم الحملة الفرنسية اليها في سنة ١٧٩٨ بعيدة عن الاحتكاك بدول أوروبا وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المالك تحت سيادة تركيا تسود فيها الدسائس ويعمل كل من أمرائها لما يجر اليه النفع. وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها نخودها في سائر بلاد الدولة العثمانية. وبلغ من ذلك ان تدلى علماء الفقه

الاسلامى الذين كانوا فى مختلف العصور نخر مصر وزينتها وفترو نشاطهم وفسد اتاجهم فى ذلك العصر ، أما الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتد سلطان الأتراك على مصر .

« فلما جاء الفرنسيون الى مصر وتغلغلوا فيها وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء رأى المصريون مظهراً جديداً من مظاهر الحياة لم يكن لهم عهد به فى تاريخهم الأخير . ولما جاء محمد على فى سنة ١٨٠٦ وقام بما قام به من الإصلاح فى مصر بأن بعث البعث من أبنائها الى أوروبا وبعث إلى جوانب الحياة من صور النشاط ما حرك النفوس وأثار طلعها هب على البلاد نسيم صالح لعله أول بشارت البعث لأمم الشرق العربى كافة . ثم لما عاد المرسلون من أوروبا وكانوا قد شهدوا فيها نشاطاً ضاعفه ما خلفته الثورة الفرنسية وراءها من حمى الفكر والقلب والعاطفة كانوا هم طلائع هذا البعث والعاملين عليه وكان من بينهم الأطباء والمهندسون والصناع والقواد . لكنها كانت حياة تحيط بها ظلمات ماض طويل لذلك كان سريان نورها ضئيلاً قصير المدى . ولكنها مع ذلك كانت بدءاً له ما بعده ، فلما كان عهد اسماعيل سارت فى سبيل النضج والقوة ، والحق أن علماء فرنسا مشوا فى أثر جنودها واليهم يرجع الفضل فى وضع الثقافة والتدين الحديثين فى مصر .

فلاول مرة سمعت مصر فى تاريخها الحديث صوت الحرية والمساواة والاخاء فى أول اعلان مكتبه بونابرت قائد الحملة جاء فى مطالعه كما يترجم الجبرتى فى ركافة عربية بعد البسملة —

« من طرف الفرنساوية المبني على اساس الحرية والتسوية . . . »

وقد أثرت هذه الأفكار الجديدة بعد خمسين سنة ونيف وكان أثرها ظاهراً فى مجلس شورى النواب المصرى وفى مطالب كبار رجال الثورة العرابية . وفى الحركة القومية المصرية التى لا تزال منذ عشرات السنين تدأب فى المطالبة بالحياة الدستورية كاملة ولأول مرة وضع فى مصر أساس النهضة العلمية وأساس الثقافة الحديثة حيث أنشأ نابليون بونابرت المجمع العلمى المصرى الذى لا يزال باقياً الى الآن .

استصحب نابليون فى حملته أحسن علماء العصر جوناو وشامبليون والرسام دينون والنقاش ريدويه والمهندس لير والرياضيين مونج وفوريه والطبيين والكيميائيين نوتيلو وجودفرى سنت هيلير ودولومين والميكانيكيين هاستفرايز وكوينة والأطباء ديسنيجيت

ولارى لتنظيم الصحة العامة والكتاب ارماند وبارسيفال جراتيون اللذين توليا تحرير أول صحيفة علمية أدبية في مصر تحت عنوان *La Décade Egyptienne* وأول صحيفة سياسية *Le Courrier d'Egypte* وأنشأت الحملة المصانع الحديثة لسبك المعادن وصب المدافع ونسج المنسوجات القطنية والحريرية ودبغ الجلود وضرب النقود .

وأدخل نابليون الاصلاحات الحديثة في جمع الضرائب وفي تنظيم الادارة والتعليم . ولننقل شهادة مصرى كتب أخيراً باللغة الفرنسية كتاباً طبع بمصر سنة ١٩٣١ عنوانه « مصر الحديثة والتأثيرات الأجنبية فيها » - وهذا المصرى هو سعادة احمد سعيد باشا حيث قال - « وبالاختصار فإن أعمال هؤلاء الرجال جميعاً كانت أترأثميناً . وعند ما ترك الفرنسيون مصر بقى فيها هذا الأثر الذى يمثل التأثير الفرنسى »

وننقل أيضاً شهادة مؤرخنا محمد رفعت استاذ التاريخ بمدرسة المعلمين فى كتابه « تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة » -

« كان نابليون يؤلف المجالس الوطنية بالقاهرة وفى البلاد ليستعين بهم على إدارة الحكومة وليستشيرهم فى شؤونها

« على أن الهزيمة العنيفة التى سببتها الحملة للبصريين أيقظتهم من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى وفتحت عيونهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها من قبل . فأنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتنسموا فى الهواء عنصراً منعشاً من ناحية أوروبا فاندفعوا بالطبيعة نحوها واصبحت أوروبا من ذلك الوقت موضع أعجابهم وارهابهم فى آن واحد فالحملة كما أنها أيقظت المصريين من سباتهم كذلك لفتت أنظار دول أوروبا إلى مصر ومركزها التجارى بين العالم . وأصبح للفرنسيين المركز الأول فى نظر المصريين واصبحوا هم ممثلى المدنية الغربية والرقى الحديث فلما حان الوقت واحتاجت مصر الى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين على تنظيم جيوشها وبمهندسين فرنسيين على تنظيم ريها وطرقها وبأطباء فرنسيين واساتذة ومشرعين فرنسيين . واصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر صلة اشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه »

ثم ذكر المؤلف نشاء المجمع العلمى المصرى وقال ان نابليون عهد الى العلماء الذين أنشأوه بالبحث فى أحوال مصر المختلفة فقاموا بمباحث خالدة والى هذه الجماعة يرجع

الفضل في درس مشروع وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر درساً هندسياً مهمة لير الذي كتب في الموضوع تقريراً فنياً كان موضع إعجاب واستفادة دلستس .

كذلك قام المعهد العلى بوضع خريطة جغرافية صحيحة عن مصر و بدرس تاريخ مصر القديم والتنقيب عن الآثار القديمة التى أجادوا فى وصفها ورسمها وقد طبعت جميع مباحث العلماء فى مجلدات عنوانها وصف مصر وهى أوثق المصادر التى نستمد منها تاريخ مصر الطبيعى وأحوالها عند دخول الفرنسيين . أما حجر رشيد فقد كشفه ضابط فرنسى اسمه بوشار ولكن استولى عليه الانجليز فى اثناء حملتهم الأولى وهو الآن فى متحف لندن . وفى سنة ١٨٢٢ توصل شامبلون الى حل رموز اللغة المصرية القديمة المنقوشة على حجر رشيد والى الحملة يرجع الفضل فى إقامة الصنائع والمعامل وتنظيم الطرق وإنشاء مطاحن للغلال والمستشفيات والحدائق والمتنزهات والعناية بالرسم والنقش والتصوير وإنشاء المكاتب وطبع الجرائد وغير ذلك من الاصلاحات التى وإن لم تكمل إذ ذاك فقد كومت النواة التى تجمعت حولها الاصلاحات التى قام بها محمد على فى المستقبل .

وفى الواقع نجد نواة جميع الاصلاحات التى قام بها محمد على فى مباحث الحملة الفرنسية هذا فضلاً عن أن محمد على استعان بالفرنسيين على وضع مشاريعه العظيمة . فالكونونيل دى سيلف Colonel de Selves المعروف بسليمان باشا الفرنسوى الذى كان أركان حرب المارشال ناى قائد نابليون هو الذى نظم لمحمد على جيشه . وسيريزى وبوسو Cerisy et Bossu هما اللذان أنشأ ونظما أسطولييه فى البحر الأبيض والأحمر وكان يتألف من ٦٠ إلى ٨٠ قطعة وكان فيه ٤٠٠٠ و ٤٠٠٠ بحار و ١٣٠٠ مدفع .

وكان منشئو دور الصناعة والترسانات التى صنعت الأسلحة لجيش محمد على باشا وأسطولييه من المهندسين الفرنسيين . وكان من تولى تحصين سواحل مصر بإقامة القلاع والاستحكامات من الفرنسيين . وكان من أنشأ مدرسة الطب المصرية التى احتفل مؤخراً بمرور مائة سنة على انشائها كلوت بك . وقد أخذ طلبتها من أنجب طلبة الأزهر وأنشأ كذلك محمد على باشا مدرسة خرجت نخبة من رجال مصر فى القرن التاسع عشر وهى مدرسة الألسن التى كان من خريجها العلامة محمد قدرى باشا . كما أنشأ مدارس للحرية والبحرية والهندسة والزراعة والفنون والصنائع بمساعدة مستشاريه ومعاونيه الفرنسيين . وأخيراً — وهذا لا يقل فى الأهمية عن جميع ما تقدم — قام محمد على باشا بمشاريع التجديد الاقتصادى بإنشاء الترع والجسور والطرق وإنشاء قناطر الدلتا بواسطة مونجل بك

ولينان دى بلتون وكان من نتيجة هذه الأعمال العظيمة أن زادت المساحة المزروعة من مليون فدان كما كانت وقت الحملة الفرنسية الى ضعف هذا الرقم . وزاد عدد السكان من مليونين كما قدر وقت الحملة الفرنسية إلى أربعة ملايين كما قدر في عهد محمد علي . أما التجديد الاقتصادى فى الصناعة فيكفى لاعطاء فكرة عنه أن محمد علي أنشأ ١٨ مصنعاً للغزل والنسيج ثم أدخل زراعة القطن وقصب السكر الى البلاد لتموين مصانعه بالمادة الأولية .

(٥)

حفر قناة السويس

كان مشروع القناة من أغراض حملة نابليون الأساسية وقام ليير بدراسة المشروع والتقرير عنه غير أنه أخطأ فى حساب منسوب مستوى البحرين . وقد عرض المشروع على محمد علي باشا فرفض أن يسمح به حيث قال انه إذا أنشأ القناة أوجد لمصر بسفوراً والبسفور سيكون سبب ضياع تركيا . ولكن فرديناند دلسبس تمكن من إقناع سعيد باشا وتعاقد معه فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ وفتحت القناة فى عهد اسماعيل باشا فى سنة ١٨٦٩ . وقد زادت القناة أهمية مركز مصر الدولى زيادة عظيمة وجعلت التنافس بين إنجلترا وفرنسا على النفوذ فيها حاداً — وهو اهم طريق بحرى فى العالم . وقد حاولت إنجلترا أولاً احباط المشروع فلما نجح حاولت ان تستأثر به ولم يكن هناك مساهم انجليزى واحد فى ال ٤٠٠.٠٠٠ سهم ولكن الفرص اتاحت لها بسبب الصعوبات المالية التى لاقاها اسماعيل باشا حيث اضطر ان يبيع نصيب مصر من الاسهم وعددها ١٧٦ و ٦٤٢ فاشتريتها إنجلترا (Disraeli) فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بنحو اربعة ملايين من الجنيهات فى حين أن قيمتها الآن تقدر بنحو ٢٥ مليوناً وتزداد اهمية القناة الدولية من سنة الى سنة وقد تسبب من حفره أن اصبحت جميع الدول التى لها بواخر تخترقه ذات مصلحة فى مصر . وكانت وجود القناة فى الاراضى المصرية من أهم الصعوبات التى اعترضت المفاوضات الانجليزية المصرية الى الان .

وزالت الصعوبة الدولية المتعلقة بمركز القناة الدولى باتفاق سنة ١٨٨٨ الذى ضمن حياد القناة . ولكن القناة جزء من الاراضى المصرية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصر كما يرتبط حظ مصر بها ولنا عودة اليها فى خاتمة المحاضرة .

المنافسة الإنجليزية الفرنسية وتغلب النفوذ الانجليزي وأثره في حياة البلاد

كان شراء اسهم القناة اهم خطوة في مد النفوذ الانجليزي في مصر وتقهقر النفوذ الفرنسي أمامه

وقد عقب استدانة مصر ان وضعت الرقابة الثنائية على ادارتها ثم خلع الخديوى ثم وقعت حوادث الثورة العرابية التي انتهت بالاحتلال الانجليزي وقبض الانجليز على ازمة الحكم بواسطة مستشاريهم في الوزارات تحت سيطرة القنصل الجنرال اللورد كرومر وعقب ذلك تنافس واحتكاك بين إنجلترا وفرنسا انتهى بمعاهدة سنة ١٩٠٤ .

ولا تهمنا هنا الحوادث التاريخية وانما يهمنا ان نسجل اثر النفوذ الانجليزي في المجتمع المصرى ... هل كان ضاراً ؟ هل كان نافعاً ؟ هل كان متردداً بين النفع والضرر ؟

اذا قرأنا كتاب مصر الحديثة للورد كرومر أو إنجلترا في مصر للورد ملنز وجدناهما يتغنيان بما صنعتها إنجلترا لمصر وبما للنفوذ الانجليزي عليها من الايدى البيضاء

واذا قرأنا كتاب تاريخ مصر السرى لسكاون بنت أو كتاب خراب مصر لروذشتين

وجدناهما يستمطران اللعنات على هذا النفوذ الانجليزي وما جره على مصر من النكبات

والحق ان ذلك النفوذ لم يكن نافعاً نفعا محضاً ولم يكن ضاراً ضرراً محضاً وكان نفعه يغلب في مرافق البلاد المادية بينما كان الأمر بالعكس بالنسبة لمطامح البلاد السامية واحوالها وشؤونها الأدبية .

ليس من طبع المصرى انكار الجميل ولا يستطيع أحد أن يتجاهل أعمال الرى العامة التي قام بها رجال أمثال السير كولن سكوت منكريف والسير ولهم ولكوكس والسير ولهم جارستن . ولكن هل كان للصناعة المصرية حظ من الاهتمام كما كان للزراعة وهل لم يبالغ في تخصيص القطر بالزراعة لأن هذا يوافق أغراض الصناعة الانجليزية .

ولا يستطيع أحد أن ينكر فضل سكوت في اصلاح القضاء الاهلى . ولكن هل

كان سكوت يستطيع هذا الاصلاح لو لم يجد من رجال القانون من تغذوا بالثقافة الفرنسية وتخرجوا عن يد تستو ولميير من كبار أساتذة القانون الفرنسى .

ولا يستطيع أحد أن ينكر تنظيم الأمن واستتبابه وتحسن الادارة وكفاية مصر شر الاعتمادات الأجنبية .

ولكن هل لم يكن ثمن هذه المزايا فاضحا وهل لم تشتريها مصر على حساب عزتها القومية وسيادتها .

كانت مصر قد قطعت شوطاً في اختبار النظام الدستوري وكانت اميال قادة الرأي فيها تستحق كل العطف من جانب كل محب للحرية . وكان يجب الأخذ بيد مجلس شورى نوابها ولكن انجلترا عندما استتب لها الأمر أوفدت اللورد دفرين لوضع أساس نظام الحكم المستقبل وقد كان قاسياً على النظام الدستوري حريصاً حرصاً زائداً في النصيح بالتدرج في الحكم الذاتي فأشار بإيجاد مجالس لا نيابية بل شورية لأن قيام الحياة النيابية الحققة في البلاد لم يوافق خطته أن يكون الأمر بيد المحتلين .

وكذلك كان الحال في التعليم فقد كان الغرض الاساسى من خطة التعليم التي اتبعت والتي أشار بها اللورد دفرن إيجاد الموظفين المصريين للوظائف الحكومية فضحت باغراض العلم السامية .

ويخبرنا المستشار مارشال بأنه منذ سنة ١٩٠٤ عرض على اللورد كرومر مشروع إنشاء جامعة مصرية فكان جواب اللورد ان الوقت لم يحن بعد .

وأخيراً أنشئت الجامعة المصرية من غير مساعدة الحكومة وعلى رغبتها تقريباً . هذا ملخص ما كان للاحتلال من مزايا ومضار .

وقد سلم الانجليز أخيراً بأن نظام الحماية أو الاحتلال ليس أساساً مرضياً للعلاقات بين البلدين . واتفق الجميع على انه يجب أن تحل محله معاهدة صداقة وتحالف بين البلدين ولا يزال الخلاف قائماً لم يحل لا من حيث المبدأ بل من حيث التفاصيل .

(٧)

نظام الامتيازات الاحنبية والقضاء المختلط

مهما كانت علاقات بلادنا وثيقة بدولة من الدول العظمى على الخصوص كبريطانيا العظمى في الوقت الحاضر فان لمصر علاقات بالدول الأخرى يتغلغل أثرها في أحوالها الاجتماعية وفي حياتها اليومية .

في مصر بطبيعة موقعها الجغرافي عدد كبير من الاجانب يبلغ الآن نحو مئة وخمسين ألفاً ولنشاطهم أثر ظاهر في تجارة البلاد وصناعاتها .

وهؤلاء ينقلون الى البلاد حضارة بلادهم وعلومهم وفنونهم ويستثمرون فيها رؤوس أموالهم .

وقد أدى هذا الى نشاط وتقدم اثار اليهما اسماعيل باشا في الخطاب الذي وجهه الى نوبار باشا في سنة ١٨٧٨ لانشاء مجلس النظار وباهى بأن بلاده انقطعت عن أن تكون من أفريقية وأصبحت جزءاً من أوربا .

ولكن هذا دعا الى وجود نظام الامتيازات الاجنبيه التي اصبحت غلا في عنق مصر وقيدت سلطة البلاد في التشريع والمالية والقضاء وقد خففت المحاكم المختلطة من عبء الامتيازات الأجنبية . وإمكن ما زالت حمى يحتمى وراءه بعض الطبقات المجرمة المنحطة في تجارة المخدرات والرقيق الأبيض وغير ذلك من أمراضا الاجتماعية التي تجد في نظام الامتيازات سلاحا تحارب به العدالة والانسانية .

كل هذه النظم تحتاج الى مراجعة وتعديل لكي توافق حاجات الزمن .
والاختبارات القاسية التي مرت بها البشرية في الحرب العظمى تمخضت عن أفكار جديدة .
وسياسة الاثرة والاستعمار أصبحت سياسة بالية تجر الوبال والويلات على الانسانية وتدور دائرتها على الباغي .

ينادى محبو السلام والخير في العالم أجمع باحلال التضامن والاخاء الدولي محل الشحناء والمنافسة

ومصر خطر على كل دولة تريد الاستئثار بها .
كل بلد وضعته الطبيعة في مركز ممتاز بحيث يقدم الى البلاد الأخرى خدمات يجب أن تكون خدماته لا موضع طمع البلاد الأخرى بل موضع تقديرها فلا تجر وبالا عليها .
يجب أن لا تكون مصر كالشمعة التي تحترق لكي تثير الآخرين .
عندما تنال مصر ما تطمح اليه في علاقاتها الدولية وتنبوأ مكانها بين الأمم الحرة المحبة للسلام تكون سبب بركة للآخرين بدلا من أن تكون مثار المشاحنات والبغضاء .



DUE DATE

JUL 19 1947

JUL 19 1990

JUL 1 6 RECD

201-6503

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



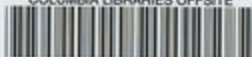
0114518740

DT
70
•A46

02972565

DT 70
•A46

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU69572933

DT70 .A46

Hadarat Misr al-hadi